موسم صيد الزنجور

رواية

الطبعة الثانية

إسماعيل غزالي



دار العين للنشر

القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية 2014

مَوْسم صَيْد الزّنجور

روايـة

إسماعيل غزالي

دار العين للنشر

مَوْسم صيْد الزّنجور

مؤسم صيْد الزّنجور

(رواية)

إسماعيل غزالي

الطبعة الأولى / ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: محمد عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣/٤٣٢٨

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 211 - 6

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

غزالى، إسماعيل.

موسم صيد الزنجور: رواية/ اسماعيل غزالى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٣

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢١١ ٦

١ – القصص العربية.

أ– العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٤٣٢٨ / ٢٠١٣

I

دورات الغراب الثّلاث

1

ولع الصيد لم أرثه عن سلالتي، هو إغواء أدركني مسُّهُ على حدة، بسنّ نزوع مبكرة. الأمر حدث بالصدفة، عندما منحتني صديقتي الفرنسية مخطوطة رواية تحت عنوان (البيانو بيت الزّنجور الأثير)، رواية تجري أحداثها على تخوم بحيرة، لشخص هاوٍ، بدأ هو نفسه الصيد بالصدفة وتلك حكاية أخرى لدوامة حلزونية مريبة.

مجيئي البارحة إلى هذا المكان، لم يكن بفعل تأثير مخطوط الرواية المشار إليه بداية، لأن الرواية الآن مجرد سديم في ذاكرتي، طبعا لأن قراءتي لها ترجع إلى سنوات يفوعتي، قراءة لمرّة واحدة فقط، كما اشترطت الصديقة الفرنسية، واستلمتها منّي مع استيفاء قراءتي لها ثمّ أحرقتها، وفق ما أخبرتني

به في رسالة أخيرة، وصلتني بيوم بُعيْد انتحارها الصاعق والغامض.

(صديقي الأعز شكرا لتجشُّمِك عناء قراءة مخطوطة روايتي الملعونة، وحدك تحمل سرها الآثم، فليكن صداها طيفا ورديا يذكرك بكاتبة لم يقدر لها أن تكون كذلك.

أجل، قررت أن أجهض حلم مراهقتي، ككاتبة!

وأول ما فعلته هو إتلاف تلك الثمرة القاسية لمخيلتي الحمقاء، أي نعم، أحرقت مخطوط الرواية، رواية لم أكتبها للنشر، ولا كتبتها لتكون بطاقة انتماء لهذا العالم المخبول.

عالم لا يستحق أن أتواطأ معه بالاستمرار فيه.

ما الكتابة إلا قدر شامت لا برهة للحقيقة فيه ولا وقت معه إلا للموت المقنَّع والكذب الذي لا جدوى منه.

بلى صديقي، عالم لا يستحق أن أعبُرَه إلا كغيمة حانقة في سماء هائمة، لا تترك ظلاًّ لها على التراب.

لا علاقة للضجر بما أقوله، ولا علاقة لليأس بما أعلنه، كل ما في الأمر أن رأسي طفا فوق المياه، واصطدم بسقف الحياة.

وعليه سأغادرها بجسارة، بملء الغبطة قررت أن أصنع خروجي المظفر من شرنقة الكوابيس هذه.

على أمل أن يكون العدم هو وجهتي الثانية، من يدري، فربما حياة أخرى ألعن من هذه بانتظاري خلف هذا الحاجز.

فليسقط هذا الحاجز أولا وبأسرع ما يكون، وليسقط كل أثر بليد خلفته ورائي.

قبلة وداع، صائد الزنجور الأخير

صديقتك A / A)

صائد الزنجور الأخير، هكذا وسمتني صديقة مراهقتي بشكل مبهم في رسالتها، وللآن لم أفك شفرة توصيفها لي بعد...

الصنارة الجاثمة في يدي، لا يمكن أن أنكر أن حبها الطارئ تمّ بالفعل، بتأثير من الشخص الغريب، بطل مخطوطة روايتها المذكورة.

هل هذا يعني أن الصيد، هو ما أتى بي إلى هذه البحيرة؟

لا أستطيع أن أجزم بهذا الأمر بالتأكيد، لأن قدومي إلى هذا المكان الجبلي، تم وفق دعوة من صديقة مغربية هذه المرّة.

لم أكن لأرفض دعوتها الجليلة، فهي مناسبة لكي أنفق بعض الأيام في هذه المنطقة الساحرة، وهي في كل الأحوال منطقة ليست بغريبة عني، لأن أسرة أمي ذات الأصول المغربية الأمازيغية، كانت تسكن قريبا من بحيرة وفق ما سرده لي أبي في طفولتي البعيدة، وهذا لا يعني بالضرورة أنها هذه البحيرة بالذات.

الأم الأمازيغية المغربية هذه، التي فقدتها لحظة ولادتي، كانت سؤالا عالقا في ذهني منذ الطفولة، وكنت أرى غيابها الملتبس بمثابة صندوق لغز، ما أزال أبحث عن مفتاحه السحري.

أبي الفرنسي لم يفصح عن كل الحكاية الخاصة بأمي الأطلسيّة وأسئلتي المحمومة له، لم أقنع بأجوبتها التي استطعمتُ سرابيتها ولم أرْتو من تفاصيلها المقتضبة. مقتضبة كانت إجابات أبي، غير أنني كنت أجدها دائما مستفزة ومحيّرة.

كيف لم أزر مكان أمّي الأصلي؟ وكيف فاتني أمر معرفة ما تبقى من أهلها؟

أبي من كان يؤجل الأمر مرارا، مبرّرا الأمر بمرضه الغريب، والذي تفاقم وتحول إلى شلل نصفي، وهكذا نسيت الأمر إلى حين، بوفاة أبي بُعيْدها بسنوات.

2

البحيرة منزوية بدغل فاحش الصمت، وما يحيط بها من جبال تكتسحها خضرة الأرز السامق، يجعلها زمردية، تبدو وحشية لأنها عزلاء، رابضة في الأعالي كما دمعة ربّة منسية، مستعصية على التحجّر.

بناية وحيدة في الجهة الشمالية شبه مخربة، تنتصب كفندق بسيط، وعلى الضفة الجبلية الغربية، خيمتان مشيدتان بطريقة يشوبها الارتجال، واحدة بارزة على الهضبة، لأسرة غجرية جعلتها مقهى لبيع الخبز وتقديم الشاي وإعداد وجبات الغذاء، "الطاجين" بالذات، والثانية صغيرة في الأعلى، هي لشرذمة صيادين مولعين بالمكان، ثم عربة منزلية أجنبية ذات علامة إنجليزية على اليمين لسيدة شقراء مع سيّد يبدو أنه زوجها.

في تلك التخوم القصية لوصولي الأول، انتابتني رعشة، وخلف قامة الجبل الشاهقة تناهى إلى سمعي رجع صدى لصوت امرأة حاد، مألوف إلى دمي، أو هكذا خلت الأمر.

صوت غامض وملتبس، شبيه بصوت صديقتي المغربية، غير أنه أحدّ منه وأقوى بشكل مضاعف.

هـذا الصـوت رافقني منـذ الطفولـة، وكان يبرق في أحـلام مناماتي الوارفة والشائكة.

شيّدتُ خيمتي في الجهة المقابلة للخيمتين والعربة المنزلية، كي أستأثر بعزلة من ذهب كاملة، ولم أشعر بأدنى خوف، لأن أمانا شائعا نفذ إلى داخلي واستوطنه، شعور وطدته وعززته توصيات ومعلومات صديقتي المغربية التي وعدتني بالمجيء في غضون أول ذلك الأسبوع.

الشاي المبالغ في سكّره بتلك الخيمة الغجرية، ما يزال طعمه عالقا في لساني، شربته مساء البارحة وأنا أتأمل المشهد من الجهة المقابلة لخيمتي، وعندها لحق بالخيمة أفراد المصطافين في تلك الضفة الجبلية، وبدا لي أن السيدة الشقراء وزوجها المفترض على اليمين يحترفان التصوير، ربما المرأة من يهوى فن التصوير وليس الرجل، إذ يبدو شارد الذهن ولصيقا بموج الضفة، أما أفراد الخيمة المجاورة، فواضح جدا أنهم هواة صيد، صيد ماذا بالذات؟ هذا لا علم لي به .

لم أنخرط في الحوار الذي كان تلقائيا في ذلك المقهى، واحتفظت بهدوئي وبرودي مصيخا السمع إلى اللهجة المغربية التي أفهم بعض

كلماتها بحكم معاشرتي لأصدقاء مهاجرين مغاربة في مدينتي "رانس" الفرنسية، وكذلك من خلال بعض المفردات الفرنسية التي كانت تتخلل حديثهم، ولم أتبين منها إلا كلمة: brochet، أي: زنجور، فخمنت دون أن يحتاج الأمر إلى استدلال منطقي، أنهم هواة صيد هذا السمك الوحشي، وبهذا أستدرك سؤال: صيد ماذا؟

هو صيد سمك "الزنجور" إذن ما يجمعنا هنا على ضفاف البحيرة الأطلسية.

لم أعقد لحظتها للغرابة خيطا، حيث أن سمك الزنجور، كان غريم صياد مخطوط الرواية التي أهدتني إياها صديقتي الفرنسية، ولا بالغت في إضفاء روح الفانتازيا على ما سمعته وفهمته من الحديث الراطن، وفوضت الأمر إلى ربوبية المصادفة، مصادفة أنني وأولئك الصيادين الهواة، هنا، من أجل التربص واصطياد هذا السمك اللعين.

طبيعي أن أعلم بوجود السمك في هذا المكان، حتى وإن لم تخبرني الصديقة المغربية، لأن الأمر يتعلق بمياه عذبة لبحيرة جبلية تقع في بلاد محسوبة على البحر الأبيض المتوسط.

لم يسبق لي أن اصطدت هذا السمك في مكان آخر خارج مدينتي، تحديدا في منطقة "رانس"، كما لم يُغوِني صيد نوع غيره إلا فيما ندر.

صيد هذا النوع الفريد ذاته لم أقدمْ عليه إلا في مناسبات قليلة، خلال عطل استثنائية.

المرأة ذات الأربعين ربيعا، بعينين زرقاوين، يبدو أنها حبلى، والرجل قريب من الستين، ولديهما ولد في العاشرة يمارس الرعي، وبنت تكبره بثلاث سنوات تخبز وتوقد الفرن وتقدم المساعدة المطبخية للأم.

كنت أحتاج إلى دليل، كي أفهم الأشياء أكثر، وكنت أعول على قدوم صديقتي المغربية، فاكتفيت بالملاحظة والتأمل.

طفل العشر سنوات، يعزف كمنجة من قصدير، والبنت ذات الثلاث عشرة سنة، لها صوت حاد ومستفز، لا تفصح عنه إلا لماما، وهي ذاهبة صوب بئر جانبية كي تأتي بالماء.

بدت لي خيمة المقهى المنتصبة كغراب متغطرس على الضفة، وخامرني دفء خاص، جعلني مشدودا إلى شيء غريب فيها.

حياة طاعنة في البساطة منذورة لبشاعة الخلاء والنسيان.

البشاعة التي لا تخلو من جمال بالنسبة لشخص مثلي يرنو إليها من الخارج، فيما الذي يتجشّم عناء العيش داخلها، لا يستطيبها، بل يحياها كقدر لئيم.

تلك الخيمة كانت مركزا لغواية ذات جاذبية مغناطيسية.

وقد داومت على ابتياع الخبز منها وأدمنت شرب الشاي صباح مساء فيها، لكي أغنم المزيد من سحر تلك الغواية التي تشدني بحبال بلورية لامعة إليها.

في عيني المرأة الأربعينية ما يدلني على منطقة مجهولة في داخلي، وفي صوت الطفلة الزمردي ما ينفض غبار النجوم في مكان منسي بذاكرتي وفي صرير كمنجة الطفل ما ينبش كينونتي وفي دأب الرجل المطل على الستين ما يعزز فكرتي الممجدة لغرابة الكائن الإنساني.

3

ضراوة العزلة هي ما يجعل خراب الداخل يترمم في مكان نادر الحدوث كهذا، "ضراوة" هذه، أظنها كلمة تليق بعنف الجمال وبذخ الطبيعة وقساوة الإحداثيات البشرية عند هذه النقطة المنسية من تاريخ الوجود المتوسطي.

ماذا يعني أن تسقط ريشة بازي في كأس شايك؟ ماذا يعني أن تخضب قُبَّرَةٌ صحو قيلولتك؟ ماذا يعني أن يطهم نعيق الغربان حزنك المبهم؟ ماذا يعني أن يرسم البجع خطا عموديا في أفق ذاكرتك المغبونة؟ ماذا يعني أن يداهم تأملك النحاسي تناسل دوائر الرعب على صفحة المياه حيث تدحرجت حبة بلوط وغطست كحكاية طفلة مهملة؟ ماذا يعني أن ترى وجهك في دلو غجرية وردت مياه البئر بكرا وأصيلا؟ ماذا يعني

أن يستحم وعيك المثلوم بلهاث الفجر في الصرود؟ ماذا يعني أن يزحف العشب المضيء في شهقتك وأنت تتطهر بملمس زهر وحشي لم تظفر به لغة القواميس بعد؟ ماذا يعني أن ترفع نظرتك إلى الصخور البديعة المطلة بشموخ مريب في الأعالي وتنحت في برهة أشكال العا لم القلق؟

كل هذه الترنيمة الفينيقة، هاجستني وأنا أتلذذ بطعم الغياب الأخضر على ضفة البحيرة الرصاصية، الغياب الذي يلغي الحضور القاتم للمدينة وصخب الأشياء المياومة والطاحنة.

هي حكاية صغيرة، حاولت أن أتمم مكارم دهشتها بالمجيء الذي حدث مصادفة إلى هنا، لماذا أصر على أنها حكاية صغيرة، إن كنت أعي تماما أن لا وجود لحكاية كبرى وأخرى صغرى؟ هناك حكاية وحسب، وكيفما كانت،، صغيرة أو كبيرة، وحتى إن لم تكن حكاية أصلا، فسقوطي الطارئ هنا كما لو تمّ رميي بمقلاع أسطوري أو منجنيق روماني، نسيت أسبابه تماما، سواء كانت اعتباطية، أو مرتبة تماما بيد غيب مكين، متربص وشامت.

اللعنة، لماذا علي أن أمطّط الكلام، وأنقاد لهذيان الكلمات التي تقهقه كلّما استدرجتني صوب كمين التناقضات؟ فلا شيء يمنعني من أن أعلن بأن الحكاية، شخصية جدا أيضا.

أحمل مذكرة صغيرة بحجم كفّي، وأدوِّن الأشياء التي ترتطم بذهني فجأة كما شظايا نيزك، وأبقي على أثرها، على أمل أن أعود إليها في زمن ما، وأرصّصها في ذاكرتي، باحثا عن حكمة ثاوية فيها، حكمة تضطلع

بها الأشياء المنفلتة والمنقرضة تلك التي انسحبت مادتها أو شكلها المرئي، إنها بالذات، كامنة في الغبار، وهو ليس غبار طرقات بكل تأكيد، وإنما غبار الزمن.

لم تنبح الكلاب كما ينبغي في اليوم الأول لإقامتي على ضفة البحيرة، ولا نزلت عشيرة القرود النزقة من شجر الأرز المتسامق في الأعالي. كان الغيم يلطخ المشهد، يتهادى خفيضا حتى ليكاد يلثم الأرضية المعشوشبة.

غيم أو ضباب يلبس لبوس الحلم المتموج، يذكي رغبة الصراخ والعواء، الصراخ الذي يجعلك أكثر تصالحا مع البدئي المغدور فيك، والعواء الذي يجعل المجهول فيك يندلع فجأة ويفيض ليلغي شكل وجهك الرسمي، المستهلك والرتيب.

وبانقشاع هذا الضباب، وبزوغ الغابة الرصاصية، بلون الخضرة المفرطة في الدكنة، الخضرة العسكرية الدامغة، يلوح الماء، شاخصا في لون غامض، ما هو بالرمادي السخامي ولا الأصفر السوداوي.

ما الذي يجعلني أؤجل الصيد، وأهمل الصنارة المتروكة في متاعها بالخيمة التي نصبتها على الحافة المقابلة؟

ربما لأن سحر الأشياء المسرف في الدهشة باغتني، وربما لأن نفسي كانت تحتاج هذا الخدر المتكاسل والممعن في التأمل أيضا، وربما لأن قصيدة ما، كانت قد بدأت بالتبرعم في داخلي، متناسلة أشعر بها تزحف كليلك أو لبلاب، ولابد أنها ستتفجر وتندلق خارج الحدود الوهمية لذاتي وفكرتي.

أبتسم بخبث لفكرة القصيدة، أو لنقل لم أتوقع أن يذهب تفكيري السديمي باتّجاهها، فمتى كنت شاعرا، حتى تطفو الرغبة في ذلك، أو مجرد أن يخطر في بالي شبحها، وأنا الذي تركت هذا الشاعر غائصا في وحل، إلى لارجعة في داخلي، منذ زمن بعيد..؟ اخترت أن أسلك طريقا مغايرة تماما لغواية الأدب، عندما قررت أن أدرس شيئا علميا، أتحاشى به سطوة الجنون والتيه والفوضى.

أضحك على الصورة الغامضة التي رسمتها لنفسي، وألعن الأشياء التي لم أحسب حسابها، والتي بدأت تمكر بي الآن، فلم يخطر لي أصلا منذ الأول، أنني هنا من أجل كتابة شيء ما، ليس بالضرورة حول المكان المذهل، ولا حتى عن فراغ كينونتي، بل إن ملاذ النسيان كان هو المبتغى العزيز من الرحلة الغجرية، وإذ أقول رحلة فلا أعني أنها استكشافية بالفهم الذي يعزز بحثا علميا لي، تابعا لمهنتي الشاقة والقاسية، كما لا يعني أنها رحلة أردت لها أن تمتد في خيط زمنها أكثر من أيام لا تتعدى الأسبوع، ولأكون أكثر أمانة، لم يكن متوقعا أن ألازم المكان وألبث فيه أكثر مما حصل.

سأكون أكثر دقة، وربما لن تلزمني البسالة وجسارة القول الرصين، إذ أقول إن القصيدة اللامسماة حقا، هي ما ينكتب الآن، دون أن أكتبها، وأعني تماما، أن ما يحدث وهو طيّ الغموض عندي، وعند المحيطين بي، وكل الشاخصين بحضورهم العابر أو المستقر في المشهد، تكتبنا جميعا دون أن ننتبه إلى ذلك، ودون أن تستميحنا عذرا وتطلب موافقتنا المطلقة

ورضانا المبدئي على ذلكْ، القصيدة المريبة، الفاسقة، ليست تلك التي خطرت لي، بكتابتها، أو تدوينها في مذكرتي الصغيرة، ولا تلك التي يكتبها شخص ما الآن، من الزائرين للمكان نفسه، أو شخص غائب عن المكان في الآن ذاته، ويفكر فيه بمكان آخر، تلك القصيدة التي جاءت بي، ولا أعرف أين ستذهب بي، ماذا تهيِّئُ لي من مفاجآت، ولماذا اختارتني وجها من وجوهها المرئيّة؟

هي ما يحدث الآن وأنا أنفض غبش ما أعرفه عني من معرفة رياضية وعلمية.

أضحك من جديد على الذاكرة الحمقاء، وألعن النساء الجميلات.

أذكرها الآن، وأذكر صداها، فصديقتي الأطلسية اللعينة، من فاهت لي قبل أن آتي:

– من يدري، ربما تغير رأيك وتكتب قصيدة؟

قالتها مشاكسة، عندما كانت تسألني عن علاقتي بالشعر، هذا الذي كنت أقرؤه بإدمان وأمارسه في مراهقتي المزمنة، وتركته بقرار حاسم وقاس متفرغا لطريق مرسومة بالأرقام والأشكال والإحداثيات.

هل قلت قصيدة؟

محض هذيان آبق، محض هراء فاسق. سأكون أكثر صدقا كما تقتضي اللباقة، فالمذكرة الصغيرة لتدوين ما يتركه عبوري المارق من أثر. بالذات أثر الأشياء الصغيرة، المهملة والمنبوذة، الأشياء اللعينة التي تلوذ بمملكة الغبار.

هذا شيء، والشيء الآخر الذي تحاول كلماتي أن تعتمه برغم نيتي العارمة في الوضوح، هو أنني لا أعلم لماذا تنزلق لغتي صوب الفخ دائما، وتعلن ما لا تضمره، فماذا سأخسر إن قلت إنني هنا في رحلة استكشافية أيضا؟ أي نعم استكشافية، وليس مطلب النسيان هو هدفها الأجلّ، والمسألة شخصية جدا تتعلق بمعرفة مكان وتاريخ أمي المغربية كما ألمحت إلى ذلك سلفا. وأما ما أعنيه بالقصيدة، فليس تماما النص المكتوب بالكلمات وحده، ولا جوهر الشعر بالذات، بل أعمق من ذلك، والمسألة هنا موسيقية بامتياز.

فإن كانت طريقي قد انزاحت عن جهة الأدب كما زعمت من قليل (ربما تأثير انتحار صديقة مراهقتي، مؤلفة رواية: البيانو بيت الزنجور الأثير، له دخل قوي بذلك)، فليس لأن تخصصي كباحث رياضيات هو الذي حال بيني وبين حلم الشاعر أو الروائي أو القاص. بل لأنني وجدت في الموسيقى ما يستبطن الشعر والرواية والقصة والفنون جميعها، وعالم الأرقام نفسه بمعادلاته وقوانينه وأشكاله اللامتناهية، تستضمره الموسيقى وتلحم تشعباته وخطورته المركبة وصرامته المعقدة.

هل قلت قصيدة؟ اللعنة!

هل قلت موسيقى؟

تلك هي الحكاية إذن..

4

تأخرت الصديقة الأطلسية أكثر مما ينبغي، وقررت أن أتدبر شؤون رحلتي بنفسي.

هذا هو اليوم الثاني لي على ضفة البحيرة. شمس بصفرة مفرطة، وزرقة المياه يغدو لها مزاج بصفاء البلور.

لحظة تليق بالصيد، غير أن الرغبة تتلكأ، وتلح على تأجيل الأمر.

آثرت رصد الغراب الناعق في أعالي الأزر على مباشرة أي فعل آخر. استرعى انتباهي تقدمه المتجاسر إلى سماء المشهد، تماما فوق البحيرة. رسم ثلاث دوائر، مندلعا بصيحات ثلاث، قبل أن يغادر سماء البحيرة مقفلا إلى عتمة الغابة الداكنة.

تحت الدوائر الثلاث التي رسمها، كان هناك قارب وسط المياه يتهادى على الصفحة، وفيه تلوح المرأة الشقراء ممسكة بكاميرتها ما تزال، فيما يشرع زوجها في ارتداء لباس الغطس، على أهبة أن يغوص.

وفي الزاوية المقابلة عند رأس البحيرة بالطول، يصطف الصيادون الثلاثة على الضفة، وهم منهمكون في حوارهم الصامت مع صنانيرهم الملقاة في تخوم المياه.

بدا على المرأة الشقراء كأنها تستطعم مرور رياح وديعة، داعبتها قليلا وجعلتها مسرنمة كما لو كانت غائصة في ملاذ صلاة ما.

تلك الرياح كانت مشفوعة بهسيس غريب، كأنما هي موسيقى مندلقة من قعر البحيرة. ربما لا تعدو أن تكون مشافهة بين فجاج أعالي الغابة وعشب ومويجات السفح.

وقفت أتلمس أثر الغراب ووقع الرياح معا، ثم سددت نظرة ثانية صوب المرأة الشقراء، ووجدتها ترفع رأسها صوب جهة الرياح. في يدها مذكرة صغيرة، أخذتْ تدوِّن فيها شيئا. حاولتُ تكهّنه، وخمنتُ. ربما هي تشاطرني هواية استدراج غبار الأشياء.

ثم خطوت عندئذ بتلقائية وبي رغبة القيام بجولة حول البحيرة، ربما انتابتني رغبة رشف شاي المرأة الأربعينية في الخيمة المنتصبة كما غراب متغطرس بالضفة المقابلة، وربما هسيس تلك الرياح، أيقظ فيَّ رغبةً مبهمةً في الرقص، أو الركض بالأحرى.

كل شيء يمضي حتى الآن بشكل اعتيادي، غير أن الصمت الأزلي الذي يجلل الوقت والمكان بدا كما لو كان يدّخر في حناياه العتيقة موعدا ما لمفاجأة صارخة.

– اللعين.. بمقدوره تخريب جهاز الأمة العصبي، وليس جهاز فرد واحد مثلي!

قال أحد الصيادين على الضفة.

قلبت الجملة في ذهني محاولا استيعابها، وتواترت عبارة ثانية من الصياد الثاني يقول:

– كأنه رابض في أعماقي وليس في قعر البحيرة!

واصلت المشي بمحاذاتهم وأنا أخفف الوطء حتى لا أحدث قرقعة وسمعت ثالثهم يقول:

– أين الغرابة في ذلك؟ أنتما تحاربان إمبراطور الغياهب..

يصمت ليشعل سيجارة ويردف:

– إنما الحكمة تقتضي المزيد من مماحكة الصبر والقدرة الماكرة على التربص بلحظة التوتر.

تردد بداخلي صدى عبارة امبراطور الغياهب، ثم كلمة التوتر بعدها، ورسم الصدى الرفيع أثرا برنين وثير، فالحياة ذاتها تحتكم في خسارتها وظفرها إلى لحظة التوتر العاتية هذه.

عندها تضاعف إحساسي الغامض بالشيء المبهم مجددا، فما أيقظه شحاج الغراب في دمي وما انتابني من هسيس الرياح، تعزز برنين كلمة التوتر هذه التي لامست المنطقة العاتمة بداخلي وكأنما استفزت وحشا رابضا أيضا في غياهبي اللامدركة، وحش قد يشبه تماما سمك الزنجور الذي كان الصيادون يتبادلون انطباعات الاستياء والحماس بشأنه.

لحظتئذ توقدت رغبة العزف على الساكسفون الذي أهملته من أسبوع.

ألقيت بالتحية على الثلاثة، وجاءني ردهم الطيب في الحين. كنت أمضي في جولتي حين قال لي أسمرهم:

– هذا نهار لائق بالغوص.

ربما كان يظنني من هواة الغوص في البحيرة، فأجبته توا:

– هو نهار أجدر بما تفعلون الآن في الحقيقة.

ابتسم أقصرهم وقال متداركا:

– يبدو أن السيد يهوى الصيد أيضا..

ابتسمت وقلت:

– ليس أي صيد وليس كيفما اتفق.

التفت ثالثهم وهو أشقر، راسما ابتسامة نصفها إثارة ونصفها غموض وقال:

– تماما فالبحيرة لا ترتضي أي صياد كيفما اتفق.

ران صمت قصير ورحب أسمرهم بحماس:

– تفضل، يمكن أن تجلس.

قالها وهو يشير إلى كرسي منتصب على الحافة، يشبه في وضعه كرسي مخرج سينمائي مبتدئ.

– شكرا، في مناسبة أخرى.

قلت لهَ وأنا أواصل المشي صوب الخيمة السوداء، بينما علقت جملة الأشقر في ذهني، و لم أشأ أن أتوغل في تأويلها، فـ"البحيرة التي لا ترتضي أي صياد كيفما اتفق"، ربما يعني بها أن مزاجها لا يروق لصيادي التسلية، وبالتالي لا يمكن أن يكون جديرا بمملكةِ قعرِها إلا من يحترم عمقها وغرابتها ويحسن الإنصات لكينونتها الهائلة.

في الخيمة السوداء، وجدت إبريق الشاي بانتظاري، صبت لي المرأة الحبلى كأسا، وسارعت لتدارك الخبز في الفرن الطيني على شمال الخيمة، ودنا مني الكلب الغريب، بشعر كث تلونه ثلاث بقع مثل تزواج خرائط، بالأبيض والأصفر والأسود، من لسانه المنسكب يفور بخار كما لو كان دوائر دخان غليون، أقعى قبالتي وشرع في تسديد نظرات ذهول، ما بين الاستعطاف والسخرية.

(في عيني هذا الكلب الغريب رأيت مدينتي "رانس" تغرق في لون رصاصي، بدت لي أشجارها عارية وأزقتها متاهية ونساؤها ملفعات بحزن البلور، وتناهى إليّ صخب الحانات وهرطقات الشارع، وسطعت حديقة البيت الصغيرة في ذهني، وسمعت صرير الأرجوحة تدللها الرياح وطماطم الجيران التي خاصمتها الحمرة، ونعناع الزاوية المصقوع، وورود السياج التي يبول عليها كلب السيدة.

أجل، كلب السيدة الأبيض الذي كلما تغوط في الخارج، اعترتها نوبة أعصاب لا تفتر إلا بعد مرور ساعات.

– سنشتاق عزفك الذي تنمو له أعشاب الحديقة.

قالت وأنا أودعها بذلك الصباح المندى.)

– مشي، مشي.

كانت الصبية ذات الثلاث عشرة سنة تصرخ في الكلب كي يغادر المكان أمامي وقطعت علي خيط التذكر الذي كنت ألمحه في عيني الكلب الغريب، وجلست على عتبة الخيمة تغسل الخضروات في ماء سطل برونزيّ بينما تنظر إليّ في خجل يكاد يكتسح وجهها، هذا الذي يرسم ابتسامة طفولية خالدة، ابتسامة مذهلة جعلتني أشعر بندم لعدم اصطحابي آلة تصويري، وأرجأت الأمر لزيارة أخرى وشيكة.

على الطاولة المصنوعة من جذع سنديانة وضعت كأس الشاي وبي حيرة قاسية، تتوزعني الرغبة بين النظر إلى مشهدين مثيرين معا، مشهد

البحيرة الزمردية الرابضة أسفلَ، تحت جبل شاهق مصدوع، يندلع الأرز في صخوره الرهيبة، وبين مشهد العينين الزرقاوين للصبية ذات الثلاث عشرة سنة.

في الصدع المريب الذي يشق صخرة الجبل الضخمة المقابلة، كان هناك رعب يعشش في تلك الظلمة المفزعة.

صدع هائل يشبه ثلمة في داخلي.. عندما أشعر بوجودها أرتجّ وينهشني ألم فراغ فاحش، فألوذ بغرابة كينونتي إلى الموسيقى وأشرع في عزف الساكسفون، وبذلك ألج الصدع وأتوغل في كهوف عتمته السرية وألحمه بغرقي الكلي فيه.

تلك حالة من حالات حاجتي الفادحة إلى العزف.

لحظتها تواتر إليّ رنين عزف خشن والتفتّ ورأيت طفل العشر سنوات يعزف على كمان قزديري في الهضبة على اليمين، وضحكت الطفلة لذلك، وشاطرتها الضحك، وبعدها لاح الغراب من جديد في سماء البحيرة، وتقدم حتى توسط المشهد، وبدأ في رسم دوائر، ثلاث دوائر مرة أخرى، وانسحب إلى أن دخل في عتمة الشق، أي في صدع الجبل الشاهق.

عندئذ، غادرت فضاء الخيمة بدوري، بعد أن منحت المرأة الأربعينية ثمن الشاي، وقفلت راجعا إلى خيمتي وأنا أتساءل عن السر في دوران الغراب ثلاث مرات في سماء البحيرة، أمجرد مصادفة؟ أم هو حساب دقيق

لا يعلم طيه إلا نسق خفي للطبيعة الوحشية؟

أيعقل أن يكون في تحليقه بذلك الشكل الدوراني، رسالة استفزاز للمرأة الشقراء على الزورق؟ فقد كانت تحاول التقاط صور له بتلك الهنيهة، فيما زوجها لم يصعد من قعر البحيرة إلا مرات قليلة.

(في قليولة ما قبل العصر، جالت في منامي المشوش فراشات بالأبيض والأصفر والأسود. كانت تندلق من حديقة جارتي، سيدة الكلب الأبيض، وهي تتكاثف بشكل مهول على قرميد بيتي بمدينة "رانس"، حتى غطت كل البيت، كنت على العتبة غارقا في طوفانها الوديع، وأنا أطردها برفق حتى يظهر لي حيز الرؤية. عندما تمكنت من ذلك، وجدتني في مكان غير فضاء البيت، وجها لوجه أمام عازف يرتدي جلبابا مغربيا، وهو يضع الكمان على ركبته ويشرع في عزفه بشكل حادٍ جعل المرايا تقشعر وتتكسر في داخلي، كان عزفه الغريب كما لو يشكّني بإبر في كل جهة من جسدي، بينما كان هو منهمكا في جذبة العزف، تدمّت أصابعه، وبدأ دخان نار يندلع من أصابعه، وفجأة توقف، ورنا إلي بعينين ذئبيتين، ثم رفع الكمان ورطمه مع صخرة ومن الكمان تطاير غراب وحلق وهو يدور فوقنا راسما ثلاث دوائر، ثم غادر السماء بعيدا إلى وجهة غير معلومة.)

استفقت هلعا، وابتسمت في الحين، عندما اكتشفتني على حاشية خيمتي الصغيرة، بجوار البحيرة وراقني لون الذهب في الشمس المائلة صوب الغروب.

حاولت استيضاح ما رأيته في منام القيلولة وحال بيني وبين ذلك وقوف شاب في العشرين بمحاذاة الخيمة الصغيرة، وهو يبادر بالسلام علي:

– مساء الخير.

قالها بفرنسية ركيكة كما لو يجس نبض إن كنت فرنسيا.

ورددت التحية عليه، فاطمأنت ملامح وجهه لذلك وقال:

– أرجو أن تكون مستمتعا بإقامتك هنا سيدي.

– أجل، ممتاز. شكرا.

قلت له كما تقتضي اللباقة.

وتمتم فورا:

– هل أجد عندك سيجارة يا سيدي؟

– لحظة.

قلتها له هذه المرة بالعربي، وبحثت في جيوب حقيبة وأخرجت علبة ومنها أخرجت سيجارة وبسطتها له وأردفت:

– تفضل.

قبل أن يتقدم الفتى بحماس قال مبتهجا:

- من يتوقع أنك تتكلم العربية؟

ثم بخجل تسلم السيجارة وأوقدها في الحين، وارتأيت أن أشاركه التدخين وإن كنت لا أتعاطاه إلا لماما وأشعلت سيجارتي أيضا قائلا:

- قليلا.

فجلس قريبا وهو يقدم لي نفسه:

- أنا أعمل في ذلك الفندق الصغير إن احتجت إلى أي شيء.

رفعت نظري إلى البيت العتيق المنتصب في الجهة الشمالية عند رأس البحيرة، و لم يثر انتباهي إلا القرميد الأحمر المتهالك اللون، فهو يذكرني بقرميد بيتي الذي دثرته الفراشات في منام القيلولة.

ووجدتني أقول له:

- آه، شكرا.

- يبدو أنك أول مرة تزور المكان يا سيدي؟

سألني فجأة.

وترددت قبل أن أجيبه:

- أجل، كيف عرفت؟

فقال على الفور:

– أنت تضع خيمتك في مكان محفوف بخطورة، فهذه الناحية من البحيرة تتساقط فيها أحجار الجبل الملعون هذا.

ندّت مني ابتسامة مخلوطة برعشة، وقلت له:

– أحب الجهات المحفوفة بالخطورة.

رسم ابتسامة اندهاش ورشف سيجارته ثم قال:

– بالنسبة للأحجار التي تدحرجها القردة من فوق، فلا خوف من ذلك لأن مضاعفاتها ليست دائما جسيمة.

رشفت من سيجارتي، وقلت له:

– وهل هناك أحجار غيرها أخطر؟

مج من سيجارته نفسا وقال:

– أجل، هناك أحجار تستهدف الغرباء، تندلق من جوف الصدع في تلك الصخرة الشاهقة فوقك.

دون أن ألتفت، رشفت من سيجارتي وقلت له:

– أيعقل هذا؟ ولماذا تستهدف الغرباء فقط؟

– للأمر حكاية يا سيدي وسأقصها عليك الليلة إن زرتني في الفندق.

قالها وهو ينسحب مودعا باتجاه النزل الصغير عند رأس البحيرة شمالا

وخمنت إن كان يستدرجني كزبون نحو الفندق ثم سرعان ما فكرت في حكاية الأحجار الغريبة.

أحجار تستهدف الغرباء...

رددت العبارة بأشكال دائرية وجربت نطقها بنبرة موسيقية عبر الإيقاعات الممكنة، وقلت في صمت:

الصدع الذي ينفتح في داخلي عندما تحتد الرغبة في عزف الساكسفون، ألا تندلع منه أيضا أحجار تستهدف الغرباء؟

ضحكت للصورة الشيطانية ودونتها في المذكرة الصغيرة.

5

تخطيت عتبة الفندق مساء ولفعتني موسيقى بحيرة البجع لتشايكوفسكي. رحب بي الشاب وقادني إلى مائدة جانبية قريبا من مدفأة صغيرة في الركن يضع بداخلها إبريق شاي على جمر متوقد، ثم طلب مني الجلوس وهو يتمتم:

– أكيد تحتاج إلى منفضة سجائر.

– لا داعي لذلك فالتدخين عندي مسألة مزاجية.

قلت له وأنا أمسح البهو الصغير بنظرة عاشقة، هناك الأحمر الذي يدمغ لون الزرابي ورموز وأشكال مثيرة محبوكة حتى في الوسائد، لم أقف

عند هذا المقام لأنني أثمن مخيلة البدويات وإبداعهن المذهل، واسترعت انتباهي الصور المعلقة على الحيطان، وهي لوجوه نساء ورجال من الراجح أنهم عبروا المكان ووشموه بذكرى لايطويها النسيان.

– هؤلاء عشاق البحيرة المأساويون، منذ 1910.

قال لي الشاب وهو يضع كأس شاي على المائدة وأضاف:

– لكل صورة حكاية، بقدر ما هي مثيرة وجميلة، هي أيضا تراجيدية.

قالها بنبرة أسف ورسم وجهي علامة استفسار، فكان رده في الحين:

– أغلب بهؤلاء قضوا نحبهم غرقا في البحيرة ولأسباب غامضة.

اعترتني دهشة لذلك ولم تنسكب مني إلا كلمة:

– غريب!

– أجل، ستستغرب أكثر عندما أحكي لك قصة كل صورة.

– يهمني ذلك صديقي.

– سأطمئن على العشاء بالخارج وأرجع لك فورا لندخن سيجارة.

قالها وانسحب، فقمت لحظتها أجول في البهو وأنا أنظر بامعان لمعرض الصور:

زوجان بملامح اسكندنافية، عازف كمان، رسام، مخرج، شاعر، طيّار رجل طويل في الستين بزي عسكري... إلخ.

ثم وقفت عند صورة امرأة أمازيغية ولو غير واضحة، كان فيها مايقول أنني أعرفها حق المعرفة.

انتشلني صوت الشاب، وهو يرحب بي مايزال، ومعه كانت المرأة الشقراء الأجنبية وزوجها، وقدمهما لي في الحين:

– فرجينيا من انجلترا ومرافقها هيوز من أمريكا.

– تشرفنا.

أربكني تصرف الشاب الذي ورطني في التحية والتعرف دون أن يستشيرني، فقد كنت أوثر أن أبقى صامتا، مرتكنا إلى الحياد، أراقب وأرصد الأشياء بعين باردة من هامش بعيد.

غير أنه أقحمني في اللعبة و لم أتساءل إن كان الأمر مدبرا له، أم هو محض اعتباط.

على الطاولة وجدتني وجها لوجه مع فرجينيا وهيوز، هذا الأخير بادرني قائلا:

– يبدو أننا وحدنا من الزوار الأجانب هذا الموسم.

في جملته ما يستضمر أنها ليست المرة الأولى التي يزور فيها المكان، ما دام يعرف أن إقبال أجانب آخرين يكون بوفرة في هكذا موسم.

– في الحقيقة، هذه أول زيارة لي للمكان.

قلتها بصعوبة، فما من داع يجعلني أكشف هكذا تفاصيل.

– يبدو أنك من هواة صيد الزنجور سيدي؟

قالت فريجينيا وفي عينيها لمع غائر لزرقة بلورية.

– ربما يكون شيء أعمق من صيد الزنجور هو الذي ناداني كي أزور البحيرة.

قلت وأنا ألمح برقا طفيفا في عيني هيوز الذي تمتم بابتسامة نصفها خبث ونصفها غرابة:

– هذا هو رد كل زوار البحيرة من الغرباء، يا سيدي.

ران صمت قصير، كسر إيقاعه دخول شاب الفندق وهو يقول بحماس:

– المزيد من الشاي أيها الأحبة، فالشواء على أهبة النضج.

– شكرا، لا بأس أن نشرب نبيذا هذه المرة كما يليق بالسمر.

قالها هيوز وهو يخرج زجاجة من جرابه، فأحضر الشاب ثلاثة كؤوس في الحين.

– نخب البحيرة.

قالت فيرجينيا.

– نخب الصدفة الجميلة.

قال هيوز.

- نخب الفرسان الثلاثة.

قلت مداعبا وندت منهما ضحكة مفرقعة.

- من يسمعك سيخمن أننا هنا من أجل حرب طروادية.

قال هيوز.

- الأكثر من ذلك، سيفكر بأننا هنا من أجل إنقاذ كل الضحايا المسجونين في القلعة المدفونة داخل البحيرة.

قالت فيرجينيا.

- ما هي إلا بئر أيها الأعزاء، وإن اكتشف السيد هيوز مكانها المجهول في داخل البحيرة، سيكون اكتشافا تاريخيا.

قال رجل في الخمسين، دخل لتوه يحمل مع الشاب العشريني طيفورا به خروف مشوي.

قدمه إلي الشاب قائلا:

- هذا مالك الفندق.

- تشرفنا.

- بئر الشيطان أم بئر الوحش الذي يظهر ويختفي؟

سألت فيرجينيا.

- ربما لا تعلمون أن هذه البحيرة كانت فيما مضى مجرد بئر، يغتسل منها الرعاة ويشرب منها غجر هذه الجبال، وقد حدث أن ثلاث فتيات جئنها ليغسلن الأواني ذات ظهيرة، وجلسن عند حافتها يحكين أحلام ليلتهن السابقة.

الأولى قالت:

- حلمت أنني واقفة عند هذه البئر أرمي بدلوي وأنا أغني وفجأة رأيت في مياه قعرها صورة الشاب الذي أرغب بالزواج منه يشرب من نهر في بلاد بعيدة وهو يقول لي:

صورتك قمر يضيء ليلتي.

وسألته: كيف تلوح لك صورتي؟

قال:

هذا النهر من تلك البئر.

قالت الفتاة الثانية:

- حلمت أنني ألقي بدلوي في هذه البئر، وعندما كنت أشد الحبل كي أرفعه، بدا ثقيلا تماما، أثقل مما يخطر على بال، عندها حدقت إلى أسفل لأرى إن كان الحبل عالقا بحجر، فوجدت الشاب الذي أرغب في

الزواج منه في دلوي وهو يقول لي: أميرا كنت وقد حولتني لعنة امرأة إلى ضفدعة وها قد أنقذتني من سحر مئة سنة.

قالت الفتاة الثالثة:

– حلمت أنني ألقي بدلوي في هذه البئر، وأنا أغني، فسمعت آهات تصعد فائرة من القعر، أصابني الفزع وألقيت بنظرة فوجدت سمكة غريبة لها وجه الشاب الذي أرغب بالزواج منه وبادرني قائلا:

أطربني صوتك فجئت متتبعا خيطه من أعماق المحيط الأطلسي.

بعد أن فرغن من حكايات ليلتهن، ذات الخيوط المتشابهة والمتقاطعة، ألقين بأوانيهن في البئر، واتفقن على أن يسقطن تباعا، فما أحلامهن إلا رؤيا صادقة، وفي الرؤيا رسالة سماوية ستنقذهن من مصير الزواج برجال في أرذل العمر، فرضهم أهلهن عنوة عليهن بذلك الأسبوع.

وما أن ألقين بأجسادهن في البئر، حتى شوهد غراب، ينعق في السماء، وشرع يلف ويدور، راسما ثلاث دوائر، وسقط بعدهن في البئر، وعندها حصل الشيء المريب، حين فاضت البئر، واندلعت بماء طوفاني مندلق بشكل متماوج، فتشكلت هذه البحيرة.

لم تتمالك فيرجينيا نفسها وأعربت عن إعجابها الكاسح بالحكاية الشهرزادية وشرعت في تدوين رؤوس أقلامها توا بمذكرتها.

– قد أعدك بإيجاد هذه البئر الخرافية، لكنني لا أعدك باكتشاف الهياكل العظمية للفتيات الثلاث.

قال هيوز وهو يقتطع لنفسه عضلة ناضجة الشي.

- دورات الغراب الثلاث في الحكاية، هل لها علاقة بدورات الغربان الثلاثية في سماء البحيرة؟

سألت الرجل الفندقي، وبدا على وجهه أنه استحسن الملاحظة الذكية، وقال:

- ليس فقط دورات الغربان الثلاثية هي ما يمتد من أصل الحكاية حتى الآن في الواقع، بل أشياء أخرى غريبة، ومنها الأواني التي تلفظها مويجات البحيرة إلى الضفاف أيضا بين الحين والحين.

بينما كان شاب العشرين يوزع الصحون على الطاولة، استأنف حديث مشغله وقال بحماس:

- هناك غناء نسائي ربما له علاقة بغناء إحدى الفتيات الثلاث أيضا يندلع من أعماق البحيرة في لحظات بعينها.

تحتد الزرقة البلورية في عيني فيرجينيا وهي مأخوذة بالإشراقات السحرية التي صارت تنهمر من الفندقيين المتحمسين.

التفتّ إلى صورة المرأة الأمازيغية في الركن المحاذي، وحاولت الامعان في الألفة غير العادية التي تنتابني إزاءها.

- ربما، يحبذ زائرنا الفرنسي التعجيل باكتشاف حكايات صور الشخوص المعلقة في الحيطان الأربعة؟

قالها مالك الفندق إذ لاحظ التفاتي الى اللوحة فقلت له:

- بالتأكيد أحبذ اكتشاف حكاياتهم، لكنني لست على عجل من أمري.

- في كل الأحوال وعدتك بذلك وسيكون لك ذلك يا سيدي.

قال فتى العشرين سنة.

- أرى أن صورة واحدة، تنقص معرض فندقكم هذا ليكتمل.

قالت فيرجينا مباغتة وجعلت الفندقي ينعطف إليها بوجهه الدائري ويقول لها:

-عذرا، أظن أن معرض الصور لا يمكن أن يكتمل بصورة من الصور سيدتي.

ارتبكت الزرقة في عيني فيرجينيا، و لم يصمت الفندقي إلا ليتابع:

- نتمنى أن يكتمل سيدتي، لكن الأمر له علاقة بلعنة ما، وهذا فوق ما نتمناه.

- لعنة!

تساءل هيوز.

وضع الفندقي قطع اللحم بالتساوي في الصحون واستأنف حديثه:

- أجدد لك الاعتذار سيدتي، وقد سرني أنك تدخرين لنا مفاجأة صورة ما لم نحصل عليها كما أخمن، لكن ما أعنيه بلعنة هو أن هذه البحيرة بالفعل، تعيش كل موسم على زهق روح غريبة، كما لو كانت قربانا.

اختل اللون في وجه فيرجينيا، واستشعرت حرجا بدل الخوف، لأن لحظة العشاء تلك لم تكن ملائمة لإثارة موضوع غير لبق كهذا، فحتى إن كان الفندقي يتكلم ببراءة وتلقائية، فنحن كأجانب لا يمكن أن نفهم الأمر إلا ترهيبا، وإن كنت أرجح أن الفندقي، يحبك هذه الأقاصيص من أجل استقطاب الزوار وخلق جو فانتازي يستهدف به عملا إشهاريا وضيعا لمشروعه السياحي.

استمر في نبرته يقول:

- هناك من يرجح وجود وحش في البحيرة، وهذا يروج له حتى بعض الأجانب المولهين بالمكان، وهناك من يرجح وجود روح شريرة تسكن القعر وتتغذى على أرواح الغرباء، وهناك القلة القليلة التي تحتكم إلى المنطق والعقل وتعتبر الأمر مجرد حوادث غرق، ومصادفات لا غير.

- ما من بحيرة في العالم يا صديقي، لا يروجون لحكاية وجود وحش بقعرها، هذا متخيل الناس في كل مكان.

قال هيوز بثقة ليرفع ستار الرهبة الذي حاول الفندقي أن يغلف به مناخ العشاء.

– أخالك تغمز، بأن أحدنا سيعزز رصيد معرض أمواتك هذا يا سيدي، والأمر شبيه بأفلام الرعب.

قالت فيرجينيا.

– ماعاذ الله، يا سيدتي، أستميحك عذرا، فقد كان قصدي أن أحكي لكم بعض الأشياء المحيطة بجمال المكان الغامض لا غير، وما نحن هنا إلا لكي نسهر على حياتكم واستمتاعكم بالإقامة في هذه البحيرة الجميلة واللعينة في آن.

قالها الفندقي مرتبكا دون أن يقنع في خطاب الطمأنينة.

– ثم، إن معرض الصور هذا، لا يضم ذكرى الأموات فقط، بل يحتفظ بذكرى الأحياء أيضا وإن كانوا قد غابوا فجأة.

قال فتى العشرين، كما لو كان يحفظ الدرس جيدا، فتدخلاته محسوبة بدقة، ولا يغامر بها إلا ليسد ثقوبا في كلام صاحب الفندق.

لحظتها شرع هيوز في التثاؤب، وكانت إشارة لفيرجينيا كي ينسحبا، ونطق بذلك مباشرة وهو يقف ليحييني ويصافح الفندقي والفتى وتقدم نحو العتبة يتمتم في حوار جانبي مع الفندقي، بينما تخلفت فيرجينيا وقالت لي وهي تحييني:

– كنت حكيما في صمتك.

وأردفت مبتسمة:

- بانتظار أن تتكرر الأمسية.

صافحتها وأعربت لها عن مسرتي باللقاء.

بعدها بدقائق متواترة، غادرت الفندق الصغير، وألح الفتى أن يرافقني صوب خيمتي، بمبرر أنه وعدني أن يحكي لي حكاية الأحجار التي تستهدف الغرباء وقد حاولت أن أثنيه عن ذلك، ليؤجل الأمر فيما بعد، وكان مصرا للغاية.

اقتعدنا مقدمة الخيمة، نتأمل قمر الليلة البرتقالي وهو يجنح غربا، ودخنت معه سيجارة إضافية، فيما كان هو يملأ غليونا مغربيا (السبسي) بالكيف، ودونما نسق شرع في إخباري بحكاية الأحجار اللعينة:

(يحكى يا سيدي، أن هذا الشق السحري في صخرة الجبل، حصل أيام الوجود الفرنسي بالمكان، وله قصة غريبة تماما، ففوق هذا الجبل الشاهق - المنتصب كشاهد أو حارس أزلي لامرأته: البحيرة - كانت النسور تشيد أعشاشها، وهي تقتات تارة على أرانب وطيور الغابة وتارة على سمك البحيرة.

المهم أن المستعمر الفرنسي عندما حط الرحال هنا، وبسط نفوذه في المنطقة بعد معارك شرسة وطاحنة، شرع في استغلال الثروة الطبيعية مباشرة، وقد سخر فرقا لتهجير الأسود والنمور والقرود إلى أوروبا، و لم تسلم حتى النسور من عملية التقتيل التي اتخذوها أسلوبا للمتعة والتسلية.

وعندما استنزفوا رصيد الغابة من الوحيش، لم يبق الا بعض حيوانات

وطيور شاردة، لنقل محظوظة، لم يشملها جرم الاغتيالات الواسعة. ومن هذه الطيور الجارحة، تبقى نسر واحد، بحجم ضخم، استعصى على تربصاتهم ومطارداتهم.

وقد حدث أن جلب الكولونيل زوجته إلى البحيرة، للاستجمام ذات عطلة، وأثارها وجود هذا النسر على الجبل الشاهق، ونال منها كل الاعجاب، حتى صارت تهلوس وتهذي به حتى في أحلامها، وهنا استنفر الكولونيل كتيبة من الرماة ومتسلقي الجبال كي يحظى بهذا النسر المريب، ليقدمه هدية صارخة لزوجته الشقراء.

وفي إثر ذلك، بدأت المطاردات اللاهبة لهذا النسر العجيب، الذي استأثر باعجاب القبائل الأمازيغية، وصاروا يتعاطفون معه، ويمجدوه إذ صاروا يرون فيه رمزا أخيرا لمقاومتهم التي لم تخمد جمرتها بعد.

ذاع خبر النسر في كل الأمكنة وتناقلت الألسن أسطورته، خاصة عندما حدث شيء مفزع، ذات صباح، باكتشاف جثث فرنسيين ممزقة ومنهشة، وقد حكى أحد الناجين منهم ان النسر نفسه داهمهم وجرح أصدقاءه، فجن جنون الكولونيل، الذي ما عاد يحلم فقط بتحقيق أمنية زوجته وإنما تحول الأمر إلى رهان أخطر، فهو صار على محك مواجهة جديدة، والمضحك أنه سخّر لذلك حتى مدفعيته الثقيلة، التي كانت تطلق قذائف صوب الجبل الشاهق كلما حط النسر هناك، وبتلك المدفعية أحدث أول الشروخ في صخر الأعالي.

لم يكن الكولونيل يعلم أنه يهدي مكانا أثيرا للنسر الذي اتخذ من الشق الرهيب مسكنا وملاذا، فصعوبة الوصول إلى الشق السامق كانت مأمنا له. واستمر يداهم الجنود على مدار شهر وينهش أجسادهم، وهذا ما جعل القبائل تبتهج للأمر وتعتبره نصرا من السماء، وحفزهم ذلك للتكتل من جديد في عصابات جبلية لمهاجمة الوجود الاستعماري في تلك المنطقة العاتية.

و لم يكتف النسر بذلك، وخرب خيام المستوطنين، واستنزف ذخيرتهم من الرصاص والجهد لشهر ثان، وقد زاد وضع الكولونيل حرجا، مع بدء عمليات الهجوم على الموقع من طرف القبائل في شكل عصابات، زرعت الرعب في المعسكر.

ولكي يردع زحف القبائل، بدأ الكولونيل بإعدام كل من يقبض عليه من المقاومين في وضح النهار، بغرض الترويع والحد من العمليات.

و لم يمض على شروعه في مسلسل الإعدامات إلا أيام، حتى حدث ما لم يكن في حساب أحد من الطرفين، فذات ظهيرة كانت زوجة الكولونيل تستمتع بالشمس على قاربها داخل البحيرة، حين داهمها النسر فجأة، وحملها بمخالبه مندلعة بصراخ حاد تردد صداه في فضاء الغابة طويلا، وأصاب كل من رأى المشهد الهلع، وهم يرونه حاملا إياها ومحلقا بها إلى أن دخل الشق المظلم في الصخرة السامقة، وغاب...

شاع خبر الحادثة المفزعة، ونسجت حولها أكثر من حكاية، وتبخر عقل الكولونيل الذي ظل لشهر يعمل على استرداد زوجته من شق

الصخرة بتكليف فريق متخصص في تسلق الجبال وارتياد الكهوف، ولم يجدوا لها أي أثر، النسر نفسه، اختفى ولم يكرر الظهور بعد ذلك، وحين صلب عود المقاومة من جديد، تكبد معسكر الفرنسيين خسارات فادحة، أقدم خلالها الكولونيل على الانتحار في البحيرة، وقد شوهدت جثته المنفوخة على سطح المياه ذات صباح غائم.)

صمت محدثي قليلا بعد أن استغرق منه الحكي نفسا محموما طويلا، ورشف من كأس الشاي، معاودا ملء غليونه البدوي وهو يستقرئ علامات الإثارة في وجهي المشدود إلى نهر حكاياته الغرائبية.

أوقدت سيجارة إضافية وتمتمت للفتى:

– حكاية سندبادية جميلة، لكن ماذا عن الأحجار أيها المحتال؟

ابتسم الفتى وانتشى عميقا بسحب نفس طويل حتى تدفق الدم في شرايين عينيه الثعلبيتين وقال هامسا بصوت مبحوح:

– (ليس احتيالا يا سيدي، ولكن الأمر مترابط، فبعد اندحار المعسكر، وسيادة الايقاع الطبيعي في المكان، أصبحت البحيرة قبلة للمصطافين من أبناء البلاد ومن الأجانب، تعرف تماما طيبوبة البدو، ولا مشكلة قائمة أصلا في تقبل الغريب، لأنه محبوب جدا ومحتفى به بشكل مبالغ فيه هنا، حكاية الحجر، بدأت سنة 1950، حين شهدت البحيرة سقوط حجر غريب من السماء، كما يؤكد أجنبي رصد المشهد ذات ظهيرة، فيما أكد راعي غنم أن الحجر لم يكن مصدره من السماء، بل اندلق من الشق في

الجبل، والكارثة يا سيدي، أن زوارق أجانب، كانوا ثلاثة أفراد، يزاولون رياضة الزوارق الشراعية، غرقوا لحظتها بنزول الحجر الغريب، والشيء اللامفهوم هو عدم طفو جثثهم بعد ذلك، مالك الفندق يروي قصة أخرى سمعها عن جده ترجع الى سنة 1910، شهدت نزول حجر غريب أيضا في البحيرة، وهناك خلاف حول مصدره، السماء أم الجبل، فشق الصخرة لم يكن على كل حال موجودا بذلك التاريخ. وبيت القصيد هنا، أن تفسيرات الناس لكل ظاهرة غرق غامضة في البحيرة، إذا ما تعلقت بأجنبي، يرجعونها بالضرورة لسقوط حجر ما، أو لعودة النسر الخرافي وإن اختفى أثره، أو يرجحون لعنة روح ما تتجسد في سمكة وحشية تشبه لوثيان.)

انتفخ رأسي بتلك الحكايات الغرائبية، واكتفيت بذلك الحد من تخمتها، وقد غادر الفتى ضفة خيمتي حين شاهد التعب يخضوضر له وجهي، وعندها اندلعت رياح بهسيس، تراقصت له خيمتي ومخيلتي معا، وجدتني أحمل الساكسفون، وارتجلت لحنا لم أتوقعه، فقد كنت أحاول عزف لحن "نفق الحب" للساكسفوني " كلارس كليمنز"، حين ألفيتني ألوذ بطريق سحرية، تشعبت بي داخل حديقة بممرات تشبه متاهة واقتفيت هسيس الرياح، موغلا في مجاهل الحكايات التي تورمت ذاكرتي بها، وكنت كما لو أحفر نفقا داخل سجن، وأنا أراهن على هرب مجازف خارج قلعة ذاتي الحجرية، استغرق عزفي نصف ساعة، سقطت لها ثمل التعب والانتشاء معا، وكانت غبطة عاتية تزحف في دمي لابداعي ذلك

اللحن المرتجل الساحر، ودون تردد، أشرق في ذهني عنوان: دورات الغراب الثلاث.

ابتسمت للعنوان المريب الذي أطلقته بألمعية على تلك المعزوفة و لم يفتني أن أسارع إلى مذكرتي وأسجل خطاطتها الموسيقية.

ساحل اللؤلؤة السوداء

6

أيقظني شحاج غراب على تخوم الفجر، وكانت فرصة مرتجاة لمحاولة بدء الصيد، محاولة مناوشة إمبراطور الغياهب بالأحرى، واللعب معه قدر المستطاع. جهزت عدتي القتالية فالأمر يتعلق بمبارزة طويلة الأمد، تحتاج أعصابا مفتولة من رسن صلْبِ الشكيمة، وهكذا اخترت لي مكانا لائقا بطقوسية الصيد وشرعت في تركيب صنارتي بطريقتي الخاصة، لم أعرف كيف بدت لي السماء بلون بطن الزنجور: اللون الأصفر المائل إلى البرتقالي. ابتسمت. في ذهني كانت تموجات الموسيقى التي ارتجلتها أمس تتصادى. فكرت في الغناء الخرافي الذي يندلع من البحيرة. أعني تلك الخرافة التي قصها الفندقي والفتى أمس على العشاء. لاسبيل اليوم إلا

لترويض الامبراطور، قلت لنفسي. وضعت الطعم الحي لسمكة من نوع الباربو barbo في الشوكة المعقوفة وألقيت بحركة مسرحية الشص بعيدا إلى وسط البحيرة، وتماهيت بجسمي مع نزول الثقل إلى القعر، لا بد أن الإمبراطور قد سمع الشيء الدخيل في قصره العتيد، لابد أنه يقف متسمرا بين نبات معشوشب، ينظر بحذر ساخر إلى الطعم ويترقب مروقها قريبا منه، أكاد أتخيل عينه الجاحظة، المريبة، وأكاد أتخيل كائنات البحيرة السفلية تمرح في بلورها، بل أكاد ألحظ برق سخريته يلتمع وهو يشفق على بلاهة الصيادين. هذا المكوث لساعات، لدهر، في مكان واحد، وبجلد أعتى المتحملين لفداحة الانتظار، هو أول ما يثيرني في سمك الزنجور، حتى دونما حركة تذكر من زعانفه الأمامية أو الشرجية. هذا ليس كسلا على كل حال، وليس تقشفا في بذل الطاقة كما يظن الكثير، فانتظار شديد القساوة كذلك، يهدر فيه طاقة أكبر مما لو كان يتحرك في كل الجهات، إنها طريقته الخاصة في العيش والاقتناص والوجود، أما عدوانيته ضد كل كائنات البحيرة فلا تحمد عواقبها. صرت أتخيل وجهه أمامي، بفمه العريض الشبيه بمنقار بطة، فم بهلوان بالأحرى، إنه مهرج الأعماق المريبة، وتلك الأعماق التي يتحصن بها، تستأثر بكل شيء، إنها المسرح الخفي، غير المعلن، الذي يستضمر مسرح العالم المكشوف.

لا أعرف كيف حضرت جملة القلعة المغمورة بالمياه التي نطقت بها فيرجينيا في عشاء البارحة، وتساءلت إن كانت تعني بها حكاية من حكايات الأطلس المتوسط الخرافي، أم مزحة، أو استعارة لا غير. استعارة نالت اعجابي على كل حال.

نصبت القصبة على الضفة وتراجعت إلى الخلف كي أجلس على صخرة، وأخرجت المذكرة الصغيرة لأدون فكرة القلعة المغمورة بمياه البحيرة، وجدتني أخطط شيئا غامضا غير واضح في ذهني، يدي ترسم وأفكاري شاردة في قيعان البحيرة.

– ها أنت ذا تكشف عن هوايتين مذهلتين: صياد بارع ورسام عجيب في آن!

فاجأني صوتها الطروب، كانت فيرجينيا، واستغربت كيف داهمتني لأنني لم ألمحها آتية من الضفة الأخرى، ربما استغرق انهماكي في تخطيط المذكرة وقتا لم أدرك جسامته.

– لا أزعم أنني صياد بارع وإنما أتسلى، وأما الرسم، فأخربش كطفل لا غير.

قلت مسحورا بحضورها الطارئ، افترشت لها كرسيا لم أستعمله وجلست بقربي وهي تقول:

– أرجو ألا أكون مزعجة لطقس عزلتك؟

– مرحبا بك، بالعكس حضورك مفاجأة سارّة.

– أحببت أن نتقاسم كأس شاي هذا الصباح.

قالت وهي تصبّ من التيرموس لي فنجانا.

طويت المذكرة وقد لاحظت أنني رسمت وجه زنجور مخيف.

– يشبه وجه سفاح من القرون الوسطى؟

قالت لي فيرجينيا وكانت تعني رسمي.

ضحكت للتشبيه المارق وقلت لها:

– تلك هي الكلمة المفقودة: سفاح. أحسنت التوصيف.

– يا إلهي، ولماذا ترسم وجه سفاح بهذا الصباح الجميل النادر؟

ضحكت من جديد ولذت بزرقة اللازورد في عينيها ونبست:

– هذا لأنني أعاركه الآن يا صديقتي؟

– رباه، أتسخر أم تتكلم بجدية؟

– أجل أتكلم بجد.

أشرت إلى الصنارة وقلت لها:

– هذا سلاحي الطروادي، والسفاح رابض في قلعة البحيرة.

ابتسمت ورشفت من فنجانها ثم قالت:

– آخ، ظننتك تتحدث عن سفاح بشري أيها المخادع، فالوجه المريب الذي رسمته لايبدو لسمكة أبدا.

– هذا ما وجدتني أفكر فيه أيضا، فصورة وجهه البهلواني لم تفارق ذهني منذ ألقيت بالشص في تخوم البحيرة.

بتلك اللحظة بدأت صيحات القرود تتعالى في الجبل وراءنا، وبعضها نزل إلى السفح وشرع في التوسل إلينا.

- أووووه. تصور، أكلوا ذخيرتي من الطعام ذات ليلة بالكامل.

قالت وهي ملتفتة في إعجاب.

- مشاكسون، ومثيرون حتى في عدوانيتهم.

قلت لها وأنا مبتهج لحضورهم الصاخب.

ألقت لهم ببعض الخبز وتقافزوا إليه في عراك حميم، ولحظتها غمزت صنارتي، فقمت إليها لأجس النبض، وكنت على يقين من أن الشوكة علقت في النبات، وهذا سيكلفني جهدا إضافيا.

- شوط فاشل بامتياز.

قلت لفيرجينيا وأنا أرسم ابتسامة فوق ذلك.

- لا بأس، لا بد من تكرار المحاولة.

استغرق الأمر وقتا كبيرا كي أفك عقال الصنارة من فخ النبات الداغل وكانت فيرجينيا منصرفة لقبيلة القرود التي تحلقت حولها، وأخذت تناوشها من كل الجهات، ثم في لحظة غافلة صرخت، التفتّ ووجدت أن قردا يشد على مرط ثوبها ويسحبها إلى أعلى واستمرت تصرخ بشكل حاد، سارعت إليها وانفضت جمهرة القرود هارعة تتسلق الجبل وهي تزقح بشكل صارخ.

ضحكت وهي تعانقني بتلقائية مذعورة، وقلت لها:

– هل كانت عنده نية اغتصابك؟

ضحكت وقالت:

– المشاكس، أفزعني، كان سيختطفني حقا لولا أن تدخلت.

– قبيلة قرود تختطف امرأة انجليزية بالمغرب. واو، عنوان صحافي مثير يصلح كإعلان تجاري لفيلم هوليودي سياحي.

قلت وأنا أضحك ما أزال.

– تتمسخر علي.

قالت وهي تتنفس الصعداء، ثم جلست من جديد على الكرسي وهي ترتعش، ثم أضافت:

– امرأة إنجليزية! خلاسية فوق ذلك.

– هذا ما توقعته أيضا!

– حقا، طيب أخبرني عن توقعك هذا؟

– في ملامحك شيء من النكهة الأسيوية، ربما الهندية، وأكاد أجزم الشرقية.

– رهيب أنت.

– صدق تكهني وحدسي؟

– الأمر يحتاج لسيجارة.

قالت، ونبشت جيب قميصها وسحبت علبة ومنها أخرجت واحدة ومدت لي واحدة، أمسكتها ووضعتها في ثنية أذني وقلت لها:

– لحظة أقوم بتركيب الطعم وأرجع إليك بكامل يقظتي.

– تفضل عزيزي. قالت.

هيأت سمكة من نوع **gardon**، وبنفس تلك المهارة في الإلقاء التي تمرنت عليها طويلا، رميت بالصنارة بعيدا في تخوم البحيرة. صفقت فيرجينيا للرمية وهي تقول بفرح طفولي:

– رمية ممتازة أيها الساحر.

– شكرا على الإطراء.

قلت لها ونصبت القصبة من جديد على الضفة وأنا أستشعر قهقهة الزنجور في القعر، تخيلت فمه الواسع يطلق تلك الضحكة الساخرة، كأنه يدرك تماما ما أعده له من كمين رخيص ومكشوف.

رجعت إلى مكاني على الصخرة وأوقدت السيجارة مهيئا لفيرجينيا شرط الحديث، كانت القردة قد غادرت بطن الجبل بينما كان شجر يهتز لحركاتها المناوشة في الأعلى.

– أجل خلاسية يا صديقي، من أب انجليزي وأم خليجية، من الإمارات تحديدا. والقصة غرائبية وملحمية تشبه في عمقها تخوم هذه البحيرة وحكاياتها المتشابكة.

قالت بنبرة أشرق فيها حزن جمالها البديع ورشفت من سيجارتها، وتابعت:

– أبي كان صحافيا مولعا بالتاريخ وقصص المغامرات والبطولات، وقد انصب اهتمامه على حكايات المشرق، وتتبع خيوط المستعمرات الإنجليزية ودوّن سجلا هائلا من الوقائع الشفوية لهذه المناطق العربية، وسبب سفره إلى "دبي" في الثلاثينيات من القرن العشرين، كان هذا الهاجس بالضبط.

في دبي افتتن بحكاية فارسة عربية قاومت الاحتلال البريطاني ببسالة وكان لها حكاية عجيبة هي وقبيلة غجرية حطت الرحال في ذلك الساحل، أعجب أبي بحكايتها، وتتبع أثرها ململما شظاياها من المقربين وممن كانوا شاهدين على المرحلة، وكانت المرحلة معروفة بصيد اللؤلؤ، أي قبل اكتشاف النفط بأعوام.

و من غريب الصدف، أن التقى أبي ببنت هذه الفارسة العربية، وقد استغرق ذلك جهدا كبيرا، وبينهما نشأت علاقة حب، توجت بالزواج، الزواج المختلط الذي أسفر عن حادثة ولادتي.

كانت سيجارتها قد شارفت على الانتهاء، ولاحظت أن نبرتها توقفت

فجأة كأن غصة بكاء بدأت بالتكون في غيمة حنجرتها، وكسرت إيقاع الصمت المشدود إليها بامعان وقلت:

- تقاطع مصائر جميل، ومثير، وماذا عن توثيق حياة الفارسة العربية، أعني جدّتك الإماراتية الثائرة؟

أوقدت سيجارة ثانية، وندت منها شهقة ثم تابعت:

- أبي كان قد جمع كل المادة في ملف، بشهادات وتواريخ وحوارات، وكان يؤجل عملية التدوين والكتابة، لأنه فضل كتابة المادة كسيناريو لكي يقترحها على السينما كفيلم.

- جميل.

قلت بشكل تلقائي. غير أنني لاحظت التماع حزن عتيق في بلور عينيها، ولمحت دمعة تتبلل بها أهدابها الرفيعة، وأجهشت تقول:

- جميل أكيد، لكن القدر كانت له كلمة أخرى، ولم يكتب لذلك السيناريو أن يتم ولا للفيلم أن يتحقق، لأن أبي وأمي ماتا في حادثة سقوط طائرة.

- واو.

وجدتني أقول ودنوت منها أمسك بيدها وأتمتم:

- آسف لأنني جعلتك تتذكرين هذه الحادثة الأليمة.

مسحت دمعتها اللؤلؤية وقالت بعدها:

– لا أبدا، هذه الحادثة جاثمة على أنفاسي، ولا يمكن أن أنساها.

حاولت أن أسحب مرساة الحديث من بركة الحزن وغيرت النبرة قائلا بحماس:

– لا أظن أن فكرة السيناريو والفيلم ستموت ما دام أن ملف المادة التوثيقية موجود.

اكتسح شيء من البياض ملامح وجهها طاردا كثافة الحمرة وقالت:

– أعلم هذا وأدركه.

– إذا حلم والدك ما يزال ممكنا صديقتي.

– نعم ما يزال ممكنا، وهذا هو حلمي أيضا الذي أحمله كصخرة، وما وجودي هنا إلا من أجل ذلك.

– جميل، لكن ما علاقة وجودك هنا، وحلم السيناريو صديقتي؟

طرحت السؤال وبقي عالقا في الهواء، لأن هيوز ظهر فجأة في ضفة البحيرة المقابلة وهو يشير بيده.

قلت لها:

– هذا زوجك يحيّينا؟

ضحكت وقالت:

- لا ليس زوجي، هذا مرافقي.

شعرت بما يشبه الإحراج وارتبكت قائلا:

- عفوا، ظننته....

وقاطعتني:

- لا ليس كذلك، هذا غواص مأجور، وللأمر علاقة بسؤالك الذي لم أجبك عنه، وسأتركه لمناسبة أخرى حتى يكون ذريعة جميلة للقائك من جديد.

قالت وهي تقف، لأن زورق المرافق هيوز بدأ بالتقدم نحونا، وسارعت إلى الضفة وهي تتمتم لي:

- سعدت بالحديث إليك، فمنذ زمن لم أرتح لشخص طيب مثلك.

حاولت أن أشكرها وقاطعتني:

- أعتذر لأنني كنت أنانية و لم أسمع حكاية خلاسيتك أيضا.

فاجأتني جملتها وقلت لها:

- وكيف عرفت بأمر خلاسيتي، لاتقولي لي أنك عرافة.

ضحكت حتى بزغت أسنانها العاجية وقالت:

- هذا مجرد حدس وتكهن أيضا، ففي ملامحك شيء من نكهة شمال إفريقيا.

قالتها وهي تمد لي يدها كي أعينها على صعود الزورق الذي حل على الضفة. فيما كان يعتذر هيوز عن إزعاج طقس صيدي كنت أتبادل التحايا مع فيرجينيا وظلت عيوننا تتناقل أصداء الإعجاب والذهول إلى أن غادرت الحافة واستقرت مع مرافقها في مركز البحيرة.

7

ما أن لبث الزورق على صفحة البحيرة حتى شرع هيوز في ارتداء لباس الغطس والنزول إلى أعماق البحيرة، فيما استرخت فيرجينيا على الدفة وهي ترصد بكاميرتها سماء النهار.

عاودتُ التفكير في امبراطور الغياهب الذي يسخر من طعم مصيدتي، وقفزت إلى ذهني صورته وهو يقف على ضفة البحيرة ويعزف على السكسفون.

ضحكت للصورة الشيطانية التي رسمتها مخيلتي، وقد كنت على أهبة أن أسحب خيط الصنارة لأعاود الإلقاء بها في مكان يحاذي الأول، وجاءني صوت خشن يقول:

- يوم جدير بصيد الإمبراطور يا سيدي.

كان صوت الصياد الأشقر، الذي ترك صديقيه على الضفة الأخرى. ابتسمت له وهو يحييني وأردف قائلا:

- جئت أشاركك هذا الطقس إن سمحت لي بذلك؟

قالها وهو يهيء صنارته، ورحبت به قائلا:

- تفضل، بكل فرح.

وضع طعم سمك حيّ من صنف "الغاردون gardon" وألقى بالصنارة بعيدا، كانت رمية محترف يعرف ماذا يفعل، ويعرف جيدا مناطق البحيرة كما يعرف جسده.

- عزفك الخرافي ليلة أمس، جدير بأن يخرج له كل سمك البحيرة مسرنما على الضفة.

فاجأتني عبارته المسنونة وقلت:

- شكرا، على إطرائك الجميل يا سيدي.

- ليس إطراء، فقد جعلت قمر الليلة أكثر ضوءا من ذي قبل، كما جعلت سنديان الغابة يرقص كنساء عاشقات.

أذهلتني صوره المارقة وانطباعه الشعري، فاتضح لي أنني في حضرة كائن متفرد، غامض ومثير. سحبت خيط صنارتي وأنا أقول له:

– منذ زمن لم أرتجل العزف كما البارحة، ويبدو أن البحيرة أيقظت فيّ أحلام طفولة بعيدة.

– هنا أحلام الطفولة، هنا أحلام الأبدية.

قال بلهجة احتفالية وهو يُصدِّر لي شعورا مرحا.

كنت قد سحبت الصنارة بالكامل، وأنا أحاول أن ألقي بها في جهة جديدة، وجاءني صوته الممزوج بدخان سيجارة:

– تربصت به في كل جهات البحيرة، اللعين، يعرف حساباتي ويمكر بها في كل لحظة.

عندما استقرت صنارتي بعيدا، نصبتها مرة أخرى وتراجعت إلى الصخرة وأنا أشعل سيجارة وأقول:

– أليس هذا هو التوتر الذي كنت تتحدث عنه البارحة، أظن أن هذا هو أجمل ما في صيد هذا النوع المتوحش، أنك تنازل خصما ندا، وليس ضحية سهلة.

رشف من سيجارته وسدد نظرته صوب الزورق المتهادي على صفحة البحيرة وقال:

– أشد ما يحيرني في هذه البحيرة، أنها تختار أصدقاءها الأشاوس بعناية، فليس كل زوارها من السياح العاديين.

بجملته هذه، غيّر بوصلة الكلام شمالا، وفضلت ألا أعقب، وحين

ران صمت قصير بيننا كسره قائلا:

– لا أحد يأتي إلى هنا صدفة، مهما ظن هو نفسه ذلك.

قالها وكأنه يعنيني، واستفز بداخلي حكايتي المؤجلة إلى حين. التزمت المزيد من الصمت وأردف يقول:

– ستكتشف يا صاح، أن مصائر غريبة لزوار البحيرة تتقاطع بشكل لا يصدق. وهذا ما يحدث دائما وأبدا هنا.

بدت لي لغته مبهمة قليلا، ولم أكن لأطالبه بالتوضيح، فهو مولع بالكلام الاستيعاري وقد وجدت في ذلك هامش إثارة وإن كنت مرتكنا لبعض الحياد.

– مثلا، عندي إحساس غريب، بأن شيئا غامضا تماما يجمع طريق ذاتي وطريق ذاتك أكثر مما يفرقهما!

فاجأتني الجملة الحادة ورشفت من السيجارة وأنا أنبس له:

– على الأقل يجمعنا صيد الزنجور.

– ليس فقط، هناك ما هو أعمق من ذلك.

قالها بنبرة يقين جعلتني أرتاب للحظة. ثم أضاف كما لو استشعر عدم اطمئناني:

– قاومت شعور أنني أعرفك منذ رأيتك أول وهلة، لكن عزفك

السحري البارحة أكد لي أن الشيء المفقود في إيقاع حياتي موجود عندك، أعني أن مفتاحا ما أبحث عنه منذ زمن، يوجد على الأقل في سكسفونك.

أذهلني اعترافه المجنون وقلت له:

– إلى هذا الحد، أعجبك عزفي المرتجل.

– عزفك هو الدليل المفقود إلى قلعة الامبراطور.

ماكاد يلفظ كلمة امبراطور، حتى غمزت الصنارة وتمايلت بشكل متردد ومتوتر، فقفزت إلى القصبة وأحكمت القبض عليها وأنا أزرع قدمي على الضفة ورقصت مع انشداد الخيط، لم يكن عالقا هذه المرة، تلك العلامة لم أكن لأخطئها، لقد كانت نذير وقوع الزنجور في الكمين، ولم أصدق أن يقع بتلك السرعة، وأرخيت الخيط، ثم سحبت بحذر، كانت هناك صلابة غير معتادة تجرني بشكل ميغناطيسي إليه، أرخيت البكارة ثم شددت عليها من جديد كما لو أصارع ثورا، تذكرت وضعي البارحة في العزف، وحاولت أن أتخيل القصبة سكسفونا، حاولت أن أعزف موسيقى في ذهني، وأنا أراقص وأتحايل وأبدي ما عندي من مهارة ومكر، وفجأة شعرت بأنني أسحب خواء، كان الخيط قد ترهل وتراخى، وعندما سحبته وجدته مبتورا...

ضحك الصياد الأشقر وقال:

– لم يكن الامبراطور نفسه يا صاح، صدقني، كان وصيفه فقط.

لم أفهم ما كان يعنيه، و لم أشعر بحرج أو تلفعني الخيبة، لأنني أعرف تماما مع من أنا، فالندية تقتضي هكذا أخلاق مبارزة، وسحبت الخيط المبتور، وفي قرارة نفسي عزم على الإكتفاء بذلك القدر، بعدها بقليل، غمزت صنارته هو، وكان ترددها بمثل ترددي الأول، وقف الصياد الأشقر بقامة مديدة مع القصبة التي تقوست بشكل متوتر كظهر قط عندما يتصدى لخطر عدو، ثم طوى ركبة رجله اليسرى وتخلفت قدمه اليمنى كما لو كان سيافا، تلك كانت صورته الجليلة، مثل ساموراي، أدهشني كيف كان يبارز السمكة ويسحبها إليه بمهارة رفيعة، إلى أن ألقى بها على الضفة، وسارع إليها دون أن يبدي حماسا أو ابتهاجا، كان زنجورا يزن ما بين 7 و10 كيلو غرام، وكان رمادي اللون، بزعانف صفراء، وبطن برتقالية. أمسك به الصياد الأشقر واستمال وجهه إلي، كان وجه بهلوان يضحك ضحكته الأخيرة، وصاح بي:

– هذا هو وصيف الامبراطور، وليس هذا الصيد هو الذي ترومه صنارتي.

قالها وهو يحمله ويرجعه إلى المياه، الزنجور نفسه لم يصدق أنه يعانق الحياة من جديد وخبط بذيله، وانطلق بعيدا أمام استغرابي.

وأردف يقول:

– مثل هذه هي التي علقت بصنارتك... هذه أنصاف زناجير يا صديقي ولا يشفي صيدها غليلي.

أشعل سيجارة ودخن ثم قال:

- الزنجور الحقيقي، الذي يتربع على عرش هذه البحيرة، سمك نادر، لا وجود لمثيله لا في أمريكا ولا كندا ولا أوروبا، الزنجور اللعين الذي يعيش في هذه البحيرة يا صاح، يزن بين 100 و115 كيلوغرام ربما أكثر يصل 150 على أوفى تقدير، وله شكل غريب، فاتن وساحر، إنه زنجور مرقط، مثل فهد.

جلست على الصخرة مصعوقا بما يحكيه الصياد الأشقر، وأثارني سلوكه النبيل عندما رد السمكة الوصيفة كما يسميها إلى المياه، وعندها تناهى إليّ نعيق الغراب، فرفعت نظرتي ولمحته يتوسط سماء المشهد، وهو يرسم الدوائر الثلاث، ويتراجع محلقا ليختفي في ظلمة الشق الصخري برأس الجبل.

8

منذ فارقت الصياد الأشقر ظهيرة وأنا منزو في خيمتي، نمت بشكل ثقيل وقد كنت منهك القوى كما لو عدت من حرب طاحنة، نمت بشكل مشوش وكابوسي، ولاح لي امبراطور الغياهب، الزنجور المرقط أكثر من مرة في حلمي المتقطع، لاح لي بأكثر من شكل وقد تحول إلى مركز استفزاز لوجودي كله هنا.

صار صيده الآن مستأثرا بكل رغبتي وولعي، والأمر عسير تماما ويحتاج إلى تمرين طويل ومناورات قاسية وجبارة.

داعبت السكسفون ولمعته واستلقيت بجانبه.

الساكسفون ليس مجرد آلة نفخ، وليس مجرد أداة لنفير متناغم، ولا الطريقة المثلى لإيقاظ حيوانات الشعر في مخيلة الهواء.

إنه رياح الأزل ترسم خطا للأبدية، وعلى هذا الخط يمشي الألم الانساني بملء الغبطة.

هذا الألم القدري، تحتال عليه الفنون جميعا، كما تحتال على الموت والنسيان، باستثناء الموسيقى، وحدها، تثوّر الألم فيؤول معها إلى أشكال سديمية، تحولها إلى كيمياء غموض، بقدر ما هي غريبة، هي أيضا أليفة، لأنها تخاطب المجهول الثاوي في غياب الجسد، المجهول العاتم المتواري في الشقوق الرحبة للصمت غير المدرك. فلعبة العدم والوجود، هو ما يمتحنه هذا الخط في انسانيته الجامحة، والكينونة لا يمكن إلا أن تختبر أوهامها العتيدة وحقائقها الصدئة، في مهب هذا التموج الساكسفوني.

يمكن أن يكون النفخ على جمرة صغيرة (تلكم الجمرة التي تختزل جهنم)، أحد وجوه العزف على هذه الآلة الملعونة، جمرة اللهب التي تنذر بالجحيم. أي جحيم؟

جحيم الذهاب بيقين الشيء إلى نقيضه المريب.

جحيم النزول بكهولة العالم، صوب قعر طفولة غير متوقعة.

جحيم الفراشات السوداء، التي تقودك عبر نهر صاخب، نحو شواطئ غير محروسة، هي شواطئ الخلق الأول، المستغني عن اللغة وقسوة مسرحها.

من المرجح أن يكون نفخا، يستهدف نفض غبار النجوم عن زهرات ربيع غير مرئي، يكشفها الإيقاع للذهن بألمعية خارقة، إنها لعبة الموسيقى، خرق الحواجز الموهومة والحفر في لانهائية القدرة الانسانية، تلك المأسورة بقوانين محدوديتها في آن.

ما أدراج الساكسفون، إلا أدراج سلم، بدون نهاية، صعودها كما نزولها، لا يفضي إلى جهة معلومة.

لا يهم أن يفضي إلى جهة أصلا، فمزاولة التيه داخل القيعان، تلك هي صلاته الأثيرة.

القيعان، التي تتوحد الآن في طقس ارتياده للأقاصي واستبزاغ أنقاض الخلاء المنسي للحاضر.

السكسفون، لا يمكن إلا أن يصنع عشبا، والعشب هو الركض اللامشروط على حجر النسيان والموت.

اصنع عشبا لتركض صوب ميلادك أيها الشبح، يقول السكسفون لي، كلما احتدمت غواية العزف المبين.

هذا العشب الذي أواصل الركض معه، ولا أتعب، يقودني الآن إلى هاوية مرتجاة.

ما من لحظة حقيقية حملته للعزف إلا عن رغبة وحب وضرورة مستفحلة. ما من لحظة كان عناقه ترفا، أو عادة، أو سلوكا للألفة.

وفي كل لحظة، ما أن يبدأ النفير الجليل، حتى يصير جزءا مني، يدا أو جناحا.

مثل خرطوم فيل، يتمرأى في البداية، ويثقل العالم، وأستشعرني مثل شيء صلد ضخم، عاجز عن الحركة، وما أن أشرع في العزف، حتى أتحرر، طبقة طبقة وشلوا شلوا، حتى أصير فراشة:

السكسفون، تحول سحري من فيل إلى فراشة.

هكذا كانت علاقتي وجودية بآلة النفخ الأثيرة لدي وما تزال، وقد بدأ هذا الشغف صدفة مؤخرا جدا، بعد وفاة الأب بشهور، أبي الذي استوفى كل مجهوداته في استمالتي إلى عالمه الموسيقي، عزف البيانو بالذات، وخذلته في كل مرة، وجدتني أنفر من رغبته الصلبة تلك، كي أرث حياته وشهرته وجنونه، وانحرفت إلى عالم ليس بالمرغوب جدا، ولكنه كان قريبا بصورة من الصور إلى اهتمامي، هو عالم الرياضيات.

حدث الأمر، فجأة، عندما كنت أصطاد ذات ظهيرة في بحيرة صغيرة بضاحية عاصمة الشامبانيا "رانس"، وعلقت صنارتي بشيء صلب، لم يكن سمكا طبعا، خُيّل إليّ أنه حذاء عسكري لجندي من الحرب العالمية الثانية، فقد بدا بلون أسود عند الوهلة الأولى، وحين أهدرت طاقتي من مهارات كي أظفر به، وجدته مادة نحاسية، نفضت الوحل عنه وغسلته حتى صار بلونه البرونزي الأصلي، وأغبطني اكتشاف هويته الغريبة، كان آلة موسيقية، سكسفونا كبيرا، مصنوعا بطريقة مدهشة، يشبه في معماره

برج بابل، و لم يكن مخربا، كان يفتقد سنا واحدة فقط، وقد كتب عليه تاريخ 1907، بولونيا.

هو مكان وزمن صنعه وهندسته، جعلته في محفظتي ونسيته لأيام، في الحقيقة لم أنسه تماما، فقد ظل يهاجسني ويزغ في أحلامي، وصار التفكير فيه كحادثة عجيبة بمثابة هوس.

قررت أن أذهب به إلى أستاذ في الأركسترا الوطنية في باريس، كان صديقا حميما لأبي. وعرضته عليه في أمسية، فأبدى إعجابا طفوليا به، وقال أنه كنز حقيقي.

فحصه ودلني على صانع متخصص في آلات النفخ النحاسية كي يعالج درجه المفقود الوحيد، وبالغ في النصيحة:

– هذا كنز حقيقي، آلة تاريخية مثل هذه تراث انساني نادر.

رجعت بالآلة إلى مدينتي واخترت لها مكانا أثيرا قريبا من بيانو أبي وكمان جدي.

ثم حدث ما لم أتوقعه، حينما اضطرمت الرغبة في تجربة صغيرة مع السكسفون، تجربة العزف عليه.

كنت في الحديقة ألمعه، حين هبت عاصفة، واندلع صخب رعد، مشفوع ببرق شيطاني.

راقني المطر الشرس ولبثت أنتشي برقصة العاصفة وهي تلعب بسياط بروقها على المسرح.

أحد هذه البروق صعقني عندما لمس السكسفون في يدي وشعرت بكهرباء تصفعني، فسقطت مغمى علي.

استيقظت بعد ساعات، على العشب والسكسفون إلى جانبي ينام مثل حيوان أليف.

دلجت إلى الداخل، ونفخت فيه لأول مرة، وأذهلني أنني كنت أعزف موسيقى غريبة.

وجدتني مولعا به حد الوله، ولم يمض إلا شهر حتى ألفيتني، أعزف مؤلفات جدي: أحلام شجرة البرتقال، هذيان العشب، أحزان القرميد الطائر.

وبعدها، اكتشفت مجرة أبي الموسيقية، وعزفت له: حب في "رانس"، المشي فوق الغيوم، حديقة مالك الحزين... وكان مؤلف: غجرية من شمال إفريقيا. أحب كونشيرتو إليّ، طبعا لأنه كان خطابا غراميا من أبي لأمي التي لا أعرف عنها إلا قليل القليل.

طبعا كان من البديهي أن أشك في هذا العشق الفجائي الذي يشبه هجوما ميتافيزيقيا للموسيقى، ولم تزعجني فرضية الاصابة بمرض الميسكوفيليا، وألغيت هاجسها من دماغي نهائيا كوني ترعرعت في بيت كان هواؤه هو الموسيقى أصلا ولم أكن لأسقط في فخ مصادرة هذه الهيولى

الغامضة لأغوار الأبدية بتشخيص عصابيّ بليد، فالأمر هنا يتجاوز النظرة الاكلينيكية للمعضلة، وإيماني راسخ بأن الموسيقى ورثتها جينيا وليس عبر صعقة ضوء.

أحيانا أشعر بأن الساكسفون، طائر خرافي، يجنح بي صوب غابات لم تكتشف بعد، داغلة وعجائبية، ولا يقف عند هذه الحدود، بل يطوف بي حول الشمس.

وأحيانا أشعر بأنه، مسباري أتحول معه إلى رائد فضاء، ومعا نندفع صوب استكشاف الحياة بكوكب جديد.

وأحيانا كثيرة يتحول إلى بندقية، في يد أعزل يحارب من أجل خلود ابتسامة على وجه طفل أو طفلة.

لكنه حتما، أعمق من كل ذلك، أداة سحرية لقول ما لا تقوله اللغة أولا، ولقول ما يستضمره الصمت ثانيا، ولقول ما يتعثر التاريخ والذاكرة معا في حفظ أثره.

إنه موجز تاريخ الصدى.

أي صدى؟

صدى الإنفجار الكوني الأول؟

أم صدى القيامة؟

ذلك هو السؤال إذا...

9

كان المساء قد حل مشوبا بلون رصاصيّ، يعتوره بعض اللون الذهبي المخلوط بانعكاس زعفراني، وفي المياه الهادئة والمتراقصة بخدر مريب، يهدر صمت حاد، يخفي وراءه صاعقة ما.

خلف ذلك الصمت المدوي، تدخر البحيرة حكاياتها المسنونة وألغازها الأزلية، مثل كتاب سري وغامض، مكتوب بلغة سرمدية، لا تمنح لآلئها لأي كان.

كتاب يستعصي على القراءة نفسها، كم وددت لو كنت مؤلفه. على الأقل ها أنذا أحاول التواطؤ معه موسيقيا، والحفر في طبقاته بمخيلتي الساكسفونية، وما مقطع دورات الغراب الثلاث المرتجل، إلا بداية لمؤلف

موسيقي شخصي، مؤلف لم أضرب معه موعدا من قبل.

عندما استرجعت سيناريو اليوم وقلّبته في ذهني، لا أعرف لماذا أحسست بشخص غريب، أو شبح شخص ما، يرصدني ويرصد كل ما يقع في مسرح البحيرة، شخص أظنه من الفندق، يراقبني، ويراقب المشهد من زاويته الخاصة. لم أستطع أن أجد تفسيرا لهذا الشعور المبهم الذي فرض نفسه علي.

لم أزر الخيمة السوداء اليوم، وقد انتابني الحنين إلى كؤوس شاي المرأة الأربعينة، وافتقدت زرقة عيني الصبية ذات الثلاث عشرة سنة وصرير كمنجة الصبي صاحب العشر سنوات.

تركت خيمتي وقصدت الفندق الصغير للعشاء، وهناك وجدت فتى العشرين يوقد حطب المدفأة في الركن. ابتسم ما أن رآني ورحب بي:

– هل تصدق أنك خطرت في بالي الآن.

قال لي وهو يعد لي كرسيا.

– ولماذا أخطر في بالك بالضرورة؟

– كنت أود أن أحدثك في أمر.

– حسنا تفضل.

– سنتحدث عندما آتيك بالشاي طبعا.

قالها وانطلق إلى الخارج، فوقفت ألفّ في معرض الصور وأنا أمعن النظر في الوجوه التي عبرت مسرح البحيرة، ووجدتني من جديد أقف عند صورة المرأة الأمازيغية وبي شيء غامض جارف يشدني إلى ملامحها السرابية، فالصورة للأسف، عتيقة بالأسود والأبيض وجدّ مهترئة.

دخل فتى العشرين وقال لي:

– أظنها تستأثر باهتمامك يا سيدي.

التزمت الصمت وقلت بعدها:

– بعض الوجوه وإن لم يسبق لك أن تعرفت إليها، تشعر بأنها تقرب إليك بشكل أو بآخر.

رسم تجاوبا بملامحه الطفولية وقال لي:

– أحسنت الوقوف عند هذه الصورة يا سيدي، فتلك امرأة محبوبة، ولدت على ضفة هذه البحيرة، ولُقّبت باسمها، أعني كانوا يطلقون عليها إسم: فتاة البحيرة.

وضع الفتى الشاي على الطاولة الصغيرة قرب المدفأة ودنا مني يقول:

– كانت تمتلك صوتا قويا لا أظن أنه سيتكرر.

– مغنية تعني؟

سألته بفضول:

- مارست الغناء لفترة وجيزة فقط، ثم اختفت.

- كيف اختفت؟

- تلك حكاية طويلة، وسأقصها عليك فيما بعد.

قال وهو يدعوني لشرب الشاي.

على الطاولة قريبا من المدفأة، قال لي:

- الأمر الذي كنت سأتحدث فيه معك يخص معرض الصور هذه.

صب لي كأسا، ومدها مردفا:

- أفكر بجدية في كتاب يضم حكايات هذه الصور.

وجدت الفكرة جميلة واستحسنتها، قائلا له:

- مشروع جميل، لتفعل وحظ موفق لك في ذلك.

- أنا الآن أعمل على خطاطة حكاياتهم، وأما الكتاب فحلم بعيد، لم يحن أوانه بعد.

- ليكن إذا.

قلتها وأنا أخرج سيجارة وأشعلتها توا ملتفتا بنظرتي الماسحة، أبحث عن شيء محدد.

– أرى أنه ما من زوار في الفندق؟

قلت له لأجس النبض.

– آه، نادرا ما يخلو الفندق من زوار، كل ما في الأمر أن شخصا استأجر الغرف الثلاث لمدة أسبوع، والغريب أنه لم يأت بعد.

ثم أردف:

– نسيت أن أخبرك، بأننا مدعوان إلى العشاء في عربة فيرجينيا.

– عشاء؟

تساءلت، وأجاب:

– أجل، كانت قد كلفتني بأن أخبرك بذلك.

أطفأت السيجارة في المنفضة ونهض فتى العشرين يسبقني وترافقنا معا إلى عربة فيرجينيا، على الضفة الأخرى كانت جمرة سيجارة تلوح من بعيد، وعلق الفتى على ذلك قائلا:

– إنه الصياد الأشقر بكل تأكيد، مجنون الزنجور المرقط.

ابتسمت وقلت له:

– وهل تعتقد بوجود زنجور مرقط في هذه البحيرة؟

وقف وقال بنبرة هامسة:

– أعتقد بوجود روح شريرة تلبس روح سمكة متوحشة.

ضحكت لجوابه واستأنفنا المشي وقلت له:

– ولما تنعتها بالشر هذه الروح الغريبة؟

– لأنها عدوانية، وتستهدف أرواح الأبرياء.

كنا قد وصلنا تخوم العربة المنزلية، ووقفت فيرجينيا يسبقها كلبها الصغير، الأشعث في ضيافتنا، وقادتنا إلى طاولة نصبتها قريبا من البوابة، ودلت فتى العشرين على سمك "البيرش": perch الذي سيشويه، فيما حطت صحون السّلطة ونبيذا أحمر، وصبت لي ولها وللفتى وقالت:

– نخب عشاق البحيرة.

– نخب بحيرة العشاق.

قلت مغيرا ترتيب الكلمتين.

– كم أتوق لأكون الآن في البحيرة.

قالت وهي ترشف كأسها وأردفت:

– كم أود أن ألمس انعكاس القمر في المياه بيدي.

ابتسمت لرغبتها، وقلت:

– لديك مخيلة شاعرة مريبة، أليست تلك هي رغبة لمس الأبدية؟

- أوه، ربما هي مخيلة سينمائية، ولكنني بصراحة أخشى من ذلك!

- تخشين ذلك وترغبينه في آن؟

- أجل أخشاه، فإن لمست الأبدية في القمر المنعكس في البحيرة على حد قولك، ماذا سيتبقى لي بعدها، سأكون قد انتهيت.

رشفت كأسي، وابتسمت للزرقة المحتدمة في عينيها وقلت:

- من يدري، قد تكون بداية لحياة ثانية غير هذه.

احتد البرق في عينيها وقالت:

- إنما أخشى لعنة ذلك، وأنا لم أسدد بعض ديون حياتي بعد.

جاءنا فتى العشرين بأول أسماك البيرش: perches المشوية وأنزلها في صحن وهو يهتف:

- لا يوجد ألذ من سمك هذه البحيرة، فهيت لكم هذا الطعم النادر.

لا حظت غياب هيوز و لم أشأ أن أسأل، إلا أن الفتى سارع بالقول كما لو قرأ ما كان يلتمع في ذهني:

- ها قد فوت السيد هيوز عشاء فاخرا يندر مثله في أمريكا.

ضحكت فيرجينيا حتى لمعت أسنانها اللؤلؤية وقالت:

– هيوز نزل إلى المدينة كي يعبئ البطاريات ويشتري بعض اللوازم، لا بأس.

– يندر مثله في أمريكا؟ هل تعني أن هيوز أمريكي؟

قلت للفتى، وردت فيرجينيا فورا:

– دعك من ذلك الأمريكي الأخرق وأجبني، لماذا لم تصحب معك سكسفونك الذهبي؟

تفاجأت لسؤالها ورددت بسؤال استنكاري:

– عجبا كيف عرفت بأنني أمتلك سكسفونا؟

رفعت كأسها وقالت:

– منذ زمن لم أسمع عزفا خرافيا مثل عزفك البارحة.

صمتت لحظة وأردفت:

– ظننتني أتخيل الأمر في البدء، وخلتها موسيقى للأمريكي "أسوني رولينز" أو "جون كولترابن"، وتأكد لي وأنا أخرج من عربتي اندلاع التموجات من خيمتك، لقد طهوت أحلامي البارحة وجعلتني أنام مخدرة كما لو في الزورق على البحيرة.

استغربت كيف احتفظت لنفسها بهذا الانطباع، و لم تخبرني به صباحا على الضفة، كما أذهلتني معرفتها بأمهر عازفي هذه الآلة، وقلت لها:

– شكرا لإطرائك سيدتي.

– ليس إطراء. أنت بركان مواهب.

ملأ فتى العشرين غليونه البدوي ورشف منه قريبا من المشواة، وقال بصوت احتفالي:

– هل تصدق يا سيدي؟ البارحة وأنا أسمع عزفك، انكشفت لي خارطة من النجوم، لأول مرة أراها في حياتي.

أذهلني قول الفتى، ووجدتني محرجا وسط انهمار انطباعاتهما، محظوظا جدا، وحفزني الأمر لاستكمال المقاطع الأخرى لمشروع مؤلفي الموسيقي الذي بدأ بالاختمار في دمي ومخيلتي معا.

– أظن يا سيدي أن عزفك، بإمكانه أن يضيء البحيرة، أعني أنك لو دأبت على العزف كل ليلة، ستصير البحيرة شفافة تماما وتكشف عن كل مكنوناتها كما لو كنا نشاهدها من وراء زجاج.

– واو!

صرخت فيرجينيا وأردفت:

– فتى ملعون.

صدمتني جملة الفتى وخلخلتني، واستشعرت فداحة ثقل يكاد رأسي يرتطم له مع الأرض.

عندها سمعنا صوتا آتيا من الفندق وهو ينادي باسم الفتى، قدَّم الفتى اعتذاره، غير أن فيرجينيا تشبثت به، صبت له كأسا وقالت له:

– لن نفك عقالك حتى تحكي لنا حكاية القبيلتين المتناحرتين حول البحيرة.

ضحك الفتى وتورد وجهه، وهتف في مناديه:

– عشر دقائق يا سيدي وأكون عندك.

جلس على الكرسي، وسحب نفسا من غليونه البدوي، وطفق يقول:

(الحكاية باختصار، أن البحيرة تتوسط سكن قبيلتين، وكل قبيلة تزعم ملكيتها للبحيرة وأحقيتها بها، وهكذا دخلتا في مسلسل طويل من التناحر، تفاقم وتحول إلى حرب، سفكت الدم وأزهقت الأرواح، وقد تبارز شعراء الضفتين وأبدعوا ملاحم شعرية بصدد ذلك..

استغرقت الحرب ردحا من الزمن، وقرر جيل جديد من القبيلتين أن يجنح إلى التصالح، وقد حدث هذا بعد أن تقدم شاب من القبيلة الشرقية ليتزوج من فتاة القبيلة الغربية، كما أقدم شاب من القبيلة الغربية على طلب يد فتاة من القبيلة الشرقية، وكانت مناسبة لضرب التصالح وعقد الهدنة الأبدية، وبالتالي جعل ملكية البحيرة في عهدتهما معا.

وأثناء رقصة الأحيدوس الاحتفالية بالعرس الصارخ، حدث أن جنحت أشعار الرقصة بقدرة قادر نحو النزاع حول البحيرة من جديد،

بشكل تلقائي ولا شعوري، وهكذا دارت رحى الرقصة بالتنابز شعريا حول أحقية كل قبيلة بالبحيرة، واستمر الرقص لثلاثة أيام دون أن يهدأ، وبلغ الخبر السلطة في أقرب مدينة، وتدخلت بعسكرها كي تفض الرقصة والنزاع بالقوة، ورغم أن مياها كثيرة مرت تحت الجسر، ورغم أن زمنا مر على ذلك، وإن صارت العلاقات الاجتماعية شبه متصافية الآن بين القبيلتين، إلا أن هذا النزاع والتعصب ما يزال كامنا في لاوعيهم، ولا يختفي إلا ليظهر في مناسبات محتدمة).

رشف الفتى كأسه، وهمّ بالوقوف وهو يعتذر عن مواصلة السهرة لأن مشغِّله يناديه، وغادر المكان هارعا صوب الفندق.

ضحكنا معا لطريقة حكيه المقوضة والمضغوطة، وقلت:

– حكاية تصلح للسينما أيضا..

تجاوبت فيرجينيا برأسها وقالت:

– كل ما سمعته حتى الآن ورأيته في البحيرة يصلح لفيلم شامل، لا يقتصر فقط على سيناريو أبي المؤجل.

قامت وشغلت موسيقى كلاسيكية، وقفلتْ إلى الطاولة ونبست:

– هل تمانع في سماع بعض الموسيقى النادرة والخالدة؟

– سيدة البحيرة لفرانز شوبرت. اختيار موفق ولعين، يليق بمكان وحشي كهذا.

قلت لها متحمسا بنبرة المفاجأة اللامتوقعة.

ابتسمت والتمتعت نجمة في عينها اليسرى، أوقدت سيجارة وقالت:

– لن أكون أنانية الليلة، وسأسمعك إن كنت تحب ذلك.

أربكني اقتراحها، وترددت، قبل أن أحكي كيفما اتفق:

– حسنا، لا أعرف ماذا أحكي لك بالضبط، أنت أصبت فيما يخص خلاسيتي، فأنا من أب ألزاسي، فرنسي، وأم مغربية. وفق ما يقوله أبي، التقى أمي المغربية على ضفة بحيرة، أعجب بجمالها البربري، وافتتن بصوتها الغنائي، فأبي كان عازفا ماهرا على البيانو، ولا أعلم تماما السيناريو الغامض لعشقهما، وكيف تطورت الأشياء بينهما وأفضت بهما إلى الزواج. أمي المغربية وراءها حكاية عاتية. دائما ما كنت أشعر بأبي يخفي عني أطوارها المريبة والمثيرة، خاصة فيما يتعلق بأسطورة غنائها.

بإيجاز، شاءت الأقدار ألا أراها، لأنها قضت نحبها وهي تلدني في العام الأول من زواجهما. كانت بعمر 34 سنة.

– آسفة أنني ذكرتك بذلك.

قالت فيرجينيا وهي تكاد تدمع عند هذه النقطة.

ثم واصلتْ:

– لم أر أمي إلا في بعض صورها النادرة (بالأسود والأبيض) وعبر حديث أبي الضبابي، لأن الحديث عنها كان يؤلمه، فهو كان متعلقا بها

حد الوله، وبرغم غيابها، فقد كان حضورها قويا يمارس تأثيره علي منذ الصغر، حتى أنني قررت تعلم اللغة العربية وفاء لذكرى أمي، وهذا ما طالبت به وأنا صغير، وخصص لي أبي أستاذا مغربيا لذلك، واختلاطي الكبير بالمغاربة والعرب في فرنسا مكنني من القراءة بها (ألف ليلة وليلة على سبيل المثال لا الحصر) والتكلم بها بشكل لا بأس به، المهم أن مكان أمي ظل دائما مصدر غموض بالنسبة لي، ولا أعرف لماذا كان أبي يؤجل دائما السفر إلى المغرب، كي أتعرف إلى أهل أمي المغربية، وقد عذرته في الأمر عندما تدهورت حالته الصحية، وأصيب بشلل نصفي، ثم مات بعدها بسنوات.

– واو. شيء محزن للغاية.

قالت فيرجينيا وهي تضع يدها فوق يدي.

واستأنفتُ أقول:

– قررت بعد وفاة أبي أن أزور بلد أمي، وفي كل مرة أعزم على فعل ذلك يحصل شيء يحول بيني وبين الأمر، إلى أن التقيت فتاة مغربية ذاتَ سهرة فرنكفونية في باريس. كانت مغنية مشاركة مع مجموعة تراثية في السهرة، وشجعتني على السفر وقدمت لي دعوة، وهي من دلني على هذا المكان، بعد أن علمت بحبي للصيد والبحيرات. وللآن أنتظر قدومها كي أبدأ معها رحلة البحث عن أهل أمي، وأظن أن هذا هو كل شيء حتى الآن.

ابتسمت فيرجينيا، ودخنت سيجارتها وهي تعلق:

– أظن أن: "هذا هو كل شيء حتى الآن"، جملة دقيقة صديقي، فربما نداء هذا المكان يخبئ لنا شيئا أعمق مما نعتقده.

صبت لنا معا من الزجاجة وقالت:

– الغريب أن هناك ما يشبه تقاطعا بين حكايتك وحكايتي.

عندها تذكرت جملة الصياد المريبة، حول تقاطع المصائر الانسانية الرهيبة.

أوقدت سيجارة، ورشفت كأسي وأنا أترنم بـ أغنية لسيدة البحيرة لفرانز شوبيرت، الصادحة في مسجلة العربة، ثم التزمت الصمت بعدها لأنصت لشفة فيرجينيا:

– لم أكن أتوقع أن أزور المغرب يوما، برغم حبي للسفر والمغامرات، لم أكن أتوقع أن أكون في هذا المكان الذي فاجأ كل توقعاتي أصلا.

ربما أنا هنا لأنني أطارد وهما، وما سأكاشفك به سيجعلك ترتاب، وبالتأكيد ستقول عني مجنونة.

وليكن، مجنونة، كنت قد سألتني اليوم عن العلاقة بالمكان هنا وكتابة سيناريو الفيلم.

طبعا لا أحتاج لمثل هكذا عزلة حتى أنجزه، فمتاح لي الأمر عند عائلة أمي في دبي بالإمارات، كما متاح لي الأمر في لندن، لكن شيئا غامضا

يحول بيني وبين إنجازه، وإن كانت كل المواد تقريبا عندي. شيء واحد ينقص المواد، لا أعرف لماذا أعلق أملي المستحيل عليه، وهذا الشيء هو لؤلؤة سوداء كبيرة، كان والد جدتي: الفارسة الخليجية، هو من وجدها على ساحل دبي، كانت أول لؤلؤة غريبة بذلك اللون، يعثر عليها بسنة 1910، وكانت جدتي صغيرة آنذاك، حينما داهم ثلاثة بريطانيين زورقه، وسلبوه إياها، وذهبوا بها إلى الجنرال، وقد كانت اكتشافا صارخا، وحدثا لبدء عمليات صيد اللؤلؤ في مكان خاص بساحل دبي، أغرقوا والد جدتي في تلك الحادثة الآثمة، ولحسن الحظ نجت جدتي من الكارثة حين قذف الموج بجسدها إلى الشاطئ، وتلك الحادثة ظلت موشومة في ذاكرة جدتي، وجعلتها تقود عمليات مقاومة وثأر عندما صارت شابة، وقد كانت فارسة يشهد لها بمهارة ركوب الخيل واستعمال السلاح.

تلك حكاية طويلة، لها تفاصيل مسهبة، سيقف عندها السيناريو بشكل مقنع، وأما الشق الآخر من القصة التي ستبدو لك مثل خرافة، فهو كالتالي:

لقد فاجأتني وثائق أبي البريطاني، عندما تتبع خيط اللؤلؤة السوداء الأولى التي سلبوها من والد جدتي، ومنحوها للجنرال (الجنرال المسؤول عن المستعمرة البريطانية بدبي)، ووجد بصعوبة، وبمشقة البحث والتحري، أن الجنرال أهداها لزوجته بأحد أعياد ميلادها، وكانت تضعها في صندوق صغير من ذهب خالص، ولما تدهورت أحوالها الصحية بأرذل العمر، كانت وصيتها لزوجها حين تموت، أن يحرق جثتها ويحشو برماد جثتها

الصندوق الذهبي الصغير إلى جانب اللؤلؤة السوداء، ثم يلقي بالصندوق في قعر بحيرة مغربية إسمها: أكلمام أزكزا، أي: البحيرة الزرقاء.

منذ اكتشفت هذا الأمر المثير في وثيقة من وثائق أبي، صرت أتحرى عن وجود هذه البحيرة التي كانت زوجة الجنرال مولعة بها، وتأتيها كل سنة بكل صيف، وبينهما نشأت علاقة روحية جعلتها تتمنى أن يتبخر حتى جسدها فيها. لم أجد صعوبة في البحث عن البحيرة بالأطلس المتوسط، بين مدينة مريرت ومدينة خنيفرة، بين منابع نهر أم الربيع وبين أجدير، وجلبت معي غواصا من لندن، أمريكي الجنسية، واستأجرته ليبحث لي عن هذا الصندوق الذهبي، فكلي رغبة وطموح كي أسترد تلك اللؤلؤة السوداء، أول لؤلؤة تم اكتشافها بساحل دبي، تلك التي عثر عليها والد جدتي.

حاولت أن أرتب الفوضى بداخلي من وقع مُباغَتَة بوحها، وحل في الحين هيوز ومعه أجنبيان، وعرفهما علينا في ذهول يكاد يأكل وجه فيرجينيا، ودلهما على مكان مجاور لكي ينصبا خيمتهما، وقال لفيرجينيا:

– صديقان جاءا من أمريكا ليساعداني في مهمة البحث يا صديقتي، وكنت أريدها مفاجأة لك.

– لم نتفق على ذلك.

قالت له فيرجينيا. رد قائلا:

– اطمئني، فلن يكون عملهما على حسابك، هما سيتسليان معي فقط.

لم يعجب الرد فيرجينيا وبدا على وجهها التلبد، وقالت:

– أنت فاجأتني حقا وهذا يجعلني مرتابة. على الأقل شاورني في الأمر.

وقفت عندها، ودنوت من فيرجينيا إيذانا بالرحيل، وقالت:

– فلتبق قليلا، لم نكمل السهرة بعد.

– الأفضل أن أذهب الآن، سهرتنا لن تكتمل أبدا.

وقفت متأففة ومشت إلي ثم رافقتني قليلا وهي تهمس لي:

– آسف أن ذلك المعتوه قطع علينا سمرنا العجيب.

– لا تتأسفي، سعدت بعشائك العجائبي.

ابتسمت لكلمة عجائبي وقالت:

– يبدو أن كل ما يحدث هنا ضرب من الخيال والحلم، فمن يصدق أو يدرك أين الواقع والحقيقة من كل هذه الغرابة المستفحلة؟

ضحكتُ لتعليقها المارق وقلت:

– نطقت بالجمال الصارخ. أريد أن أسكن هذه المنطقة الغريبة بين الحلم والخيالَ وإلى الأبد.

وقفنا وشيعنا بعضنا البعض بنظرة طاعنة في الدفء ومشيت في طريق معشوشبة كما لو كنت مسرنما، حتى أنني خلعت حذائي كي أشعر بملمس العشب المندى، كنت كما لو أمشي فوق غيمة، و لم أشعر بالمسافة ووجدتني عند عتبة خيمتي، ورفعت نظرتي إلى حيث كان الصياد الأشقر يدخن ويرتكن قريبا من صنارته على الضفة الأخرى، وبدت لي جمرة السيجارة ما تزال متوقدة، وهزني الحنين الشرس إلى الساكسفون، و لم أقاوم نداءه الكاسح، وسطعت في ذهني نية عزف القطار الأزرق للساكسفوني "جون كولتراين"، غير أنني ألفيتني كما البارحة، أرتجل مقطعا جديدا، حاولت النظر إلى القمر وأنا أشرع في هذيان مجنح، وبدا لي القمر وجه زنجور يكشر في وجهي، فسارعت بإغماض عيني وغطست بكل وعيي في إيقاع العزف، وكانت أناملي تتراقص مثل أرجل عنكبوت تشيد متاهة، أو مثل أرجل أم الأربعين وهي تشق طريقها نحو الفردوس، وبدت لي أناملي مسحورة توقظ المنطقة الشرقية للنسيان الأوروبي، و لم أصدق طراوة الإيغال في رمل الشدو كأنني أنجز كونشرتو طفولة كان من المفترض أن أعيشها في شمال إفريقيا، ونزّ عرق جبهتي، وأنا أغيب في صهد فاخر من اللذة وأنتشي بحفري نفقا جديدا في هذا الوجود، نفق يصل بين ذاتي وعالم آخر مجهول، وفتحت عيني، وأفزعني ما رأيت، إذ بدت لي السماء كقعر البحيرة، ولمحت ما في قاعها يتراقص فوقي، وسارعت بإغماضهما من جديد، ولذت بالرعشة المشحوذة في الحدود القصوى للمعزوفة وكدت أسقط، وأنا أستشعر ثقلا فادحا، أشد وزنا من البارحة وبزغ في ذهني عنوان صقيل للحن المرتجل حاولت أن أحفظه في

ذاكرتي هو: ساحل اللؤلؤة السوداء و لم يسعفني التعب كي أدون العنوان في المذكرة وارتميت في فراشي، ونمت كقتيل.

10

استيقظت كالعادة على نعيق غراب، والتزمت بالتكاسل في الخيمة، وأنا أرنو بطرف العين إلى طفل العشر سنوات يقود قطيعه إلى الهضبة المعشوشبة، يداعب كمنجته ملتفتا في كل الجهات. بطرف العين الأخرى شاهدت الرجل الستيني يصعد جبل الغابة ويغيب في الخضرة السوداء، فيما صبيته ذات الثلاث عشرة سنة نازلة صوب عين مائية متاخمة للبحيرة كي تملأ سطلين نحاسيين أكاد أسمع صريرهما أو أتخيله بالأحرى، وأما المرأة الأربعينية، الحبلى، فتوقد الفرن الطيني على هامش الخيمة، كي تطهو الخبز البدوي اللذيذ.

لم تكن عندي أي رغبة واضحة في ذلك الصباح الباكر. كأن لحن

ساحل اللؤلؤة السوداء استنزف كل قواي، وارتكنت أرصد المكان بعين فاترة، واسترعى انتباهي نزول الغواصين الثلاثة قبل الأوان إلى البحيرة على الزورق، وشرعوا في الهبوط إلى قعر البحيرة بذلك الوقت، وأما فيرجينيا، فلم يظهر لها أثر على عكس البارحة. مرق فتى العشرين قريبا من عتبة الخيمة وفاه بتحية الصباح، ثم دنا دون أن أطلب منه وقال:

– علي أن أتدارك بعض حرفيّي "الكيف"، كي أبتاع منهم بضاعتي التي ستكفي حاجتي أسبوعا على الأقل، فهم يمرقون في هذا الوقت من الأسبوع وراء الجبل.

ابتسمت وقلت له:

– حظ موفق.

استفسر قائلا:

– ألن تحتاج إلى كمية؟

وأجبته:

– لست سائحا من ذلك الصنف الذي يخطر على بالك يا صديقي.

وقال محرجا:

– المعذرة، أحب أن أخدم أصدقائي لا غير.

– شكرا.

وضع يده في جيب سترته وأخرج مذكرة صغيرة، ثم قال:

- هل يمكن أن تحتفظ بمذكرتي.

- بالتأكيد.

رددت عليه، وتحررت تقاسيم وجهه وألقى بالمفكرة الصغيرة داخل خيمتي واستأنف طريقه صوب الجبل.

جربت أن أستحضر لحن البارحة كما هو محفور في ذاكرتي، ودونت خطاطته الموسيقية في مذكرتي.

فكرت في صديقتي المغربية، وقلقت عليها، فليس من عادتها أن تضرب موعدا معي وتتخلف عنه، كنت محظوظا لأنني وجدت متاهتي الجميلة في البحيرة، وأنا غارق في أنسها الرهيب، وهو ما يجعلني لا أشعر بأي وحشة.

تغلبت على كسلي وتمردت على تعبي، وقررت الذهاب إلى الخيمة السوداء، لأشرب لي شايا معسلا.

على الطاولة الخشبية دائما، المصنوعة من جذع سنديانة، جلست على الهضبة وأنا أتأمل المشهد البانورامي الباذخ، وجاء الكلب المبقع بالأصفر والأسود والأبيض وجلس أمامي، وكان يصدر عنه صفير رفيع يشبه احتكاك عجلة فولاذية بأرض صخرية، تحاشيت النظر إلى عينيه المفزعتين، وسددت نظرتي بعيدا صوب الغواصين الذي يتناوبون على الصعود والنزول إلى قعر البحيرة.

وفي لحظة سهو، وأنا أنتظر قدوم الصبية ذات الثلاث عشرة سنة، وجدتني بقدرة قادر أنظر في العينين الدامعتين للكلب البري، وفي بريقهما الصقيل رأيت:

(جارتي سيدة الكلب الأبيض تخرج زوجها العجوز الكسيح في كرسيه إلى حديقة الجيرانيوم. تطلق سراح الكلب الذي يركض في جهات الحديقة. يصر أن يتبول على ورودي عند السياج. تلعنه من نافذة المطبخ. تخرج لتقيّده من جديد وينصاع لشتمها المبرح. ترفع نظرتها ويصيبها الفزع عندما ترى قرميدة مقلوبة على سطح بيتي. فهذا فأل سيء بالنسبة لها. ولا بد أن شيئا مريبا سيحدث. هي تؤمن بالأرواح الشريرة التي تسكن البيت العتيق، البيت الذي استوطنته ثلاث ساحرات فيما مضى على حد قولها، وكما هو رائج عند سكان المدينة، ساحرات عانت معهن المدينة الكثير من المقالب والأعمال السيئة، فهن المسؤولات على عاهة زوجها تقول، وحدث هذا بسنة زواجها الأولى، فقد كن ناقمات على الرجال، وكن يسخرن قواهن الغريبة ضد كل الجمال في البلدة.

وحيث اكتسح الطاعون ذات موسم المكان واستفحل الموت في كل الجهات، كن سعيدات مبتهجات للرعب الذي ألم بالبشر، وكن يرقصن في المقبرة، ويحتفلن بالشرب في الخراب الذي يحيق بالمدينة.

وأمام الكساد المروع وتفاقم الجوع، قرر سكان المدينة الانتقام من الفتيات الثلاث، الساحرات طبعا، وتجمهروا ذات مساء حول البيت، وأضرموا فيه النار، واحترقت النساء الثلاث في لهيب الغضب وحملوا

هياكلهم صباحا ودفنوها بمكان غير معلوم. ومنذ تلك الحادثة المرعبة، عادت الحياة إلى البلدة، وبقي البيت مخربا، إلى أن تجرأ جدي واشتراه، ورممه، أمام استغراب الكثيرين. جدي كان موسيقيا أيضا، وكان عازف كمان، وقد تحدى ما كان ينسج حول البيت من رعب، وقاوم أرواحه الشريرة بالموسيقى، التي طهرت المكان من كل شائبة. و لم يبق إلا علامات قليلة تظهر بين الحين والحين، ومنها انقلاب قطع القرميد على السطح، الذي يعتبره السكان نذير شؤم.

عانى أبي من تهيؤات هذه الجارة، فقد كانت تأتيه مرعوبة وتطلب منه أن يعزف على طول النهار، حتى ترجع القرميدة إلى وضعها الطبيعي، وبعد وفاة أبي، صارت تفعل معي الشيء نفسه. على الأقل صار للموسيقى هذا التقدير العجيب:

طرد الأرواح الشريرة.

ها هي ذي تصرخ في الكلب وتربط عنقه من جديد، وها هي ذي تقود كرسي زوجها الكسيح صوب الداخل، لا تنسى أن تدخل الكلب أيضا، تلملم الغسيل، وتغلق النوافذ وتسدل الستائر، وتلتزم بعدم الخروج اليوم، حتى الغد، على أمل أن ترجع القرميدة إلى وضعها الطبيعي، تضم ركبتيها إلى بطنها وهي ترتعد قائلة:

– أينك يا عازف الساكسفون، النجدة يا أيها الجار العزيز!)

– مشي، مشي.

قالت الصبية تطرد الكلب. بصوتها الحاد قطعت علي تلك الرؤيا الهذيانية في عينيه الغائرتين.

– دعي الكلب ينهي صلاته.

قال لها صوت خشن، كان صوت الصياد الأشقر الذي ألقى تحية الصباح وجلس قريبا مني وهو يخرج سيجارة.

– هذا كلب كسول تخلف عن الرعي من جديد.

قالت الصبية بلثغة.

ضحكت دون أن أفهم ما قالته بلهجتها الأمازيغية وترجم لي الصياد الأشقر كلامها وواصلت ضحكي.

– إلينا ببراد شاي.

قال لها الصياد الأشقر وهو يضرم النار في سيجارته.

ثم التفت إلي وتمتم:

– حاولت ترويضه على طول الليلة.

نظرت بعيدا إلى شق الجبل وهمست له:

– لمحت جمرة سيجارتك وكنت أود لو شاركتك طقسك السحري.

سحب نفسا من السيجارة وقال:

– لقد شاركتني بالفعل يا صاح، وقدمت لي هدية لاتقدر بثمن.

استغربت لقوله، وصعب علي إدارك المعنى، فربما كانت الجملة مجازا كالعادة، غير أنه واصل ورفع بعض اللبس:

– كنت مستعدا لأدفع نصف حياتي، بل حياتي لأكتشف حقيقة صارخة، كحقيقة البارحة.

لم ترفع جملته اللبس بل زادته إبهاما، وقلت له:

– بصراحة لم أفهم ما تعنيه!

ضحك بخفوت وبعض الجرح يعتور نبرة صوته الأجزل وقال:

– الموسيقى، الموسيقى، الموسيقى.

لم أتخيل في كل ما مر علي من تجارب أن هناك سمكا يطرب للموسيقى ويتفاعل معها، ويتراقص لها، ويتماوج معها، ويسكر بها.

ألمت بي قشعريرة وانتفضت في مكاني، وقلت باستغراب:

– تعني...

وقاطعني بعد أن سحب نفسا من سيجارته وقال:

– أعني، أن امبراطور الغياهب، فهد الغابة التي في أسفل البحيرة،

الزنجور المرقط، كائن موسيقي بامتياز، سمك يعشق الموسيقى حد الثمالة.

رشف من سيجارته وتابع:

– ما أن بدأت العزف على ساكسفونك ليلة أمس حتى أذهلني ما رأيت، رأيت البحيرة كريستالية تماما، شفافة، يكشف زجاجها عن مملكتها المتشعبة، ووسط مهرجان الأعشاب وسلالات الحوت المتناسلة، ظهر الامبراطور، ولم يكن مرتكنا إلى وضعه المستقر، ولم يكن ثابتا في مكانه، ظهر متوترا للغاية، وطفق يحوم ويرقص ويلف ويتمايل بثقل متبختر، رصدته يتتبع أثر النغمة، منتشيا بالرنة، مسحورا بالنفخ الجليل، رأيته مبتسما يختال مارقا بين جمهرات السمك، شاهدته مسرنما يرسم مداراته الحلزونية والكائنات متحلقة حوله في اندهاش ترقب ما يحدث لهذا المخلوق المرعب، الذي صار وديعا في تناغمه المحير، ظللت أتابع بعين جاحظة لنصف ساعة، حتى أنهيت عزفك المبهر. فأظلمت البحيرة كما السابق، وتمنيت بكل ما أوتيت من حلم لو أنك استأنفت عزفك، ارتميت على ظهري مذهولا، وسحبت صنارتي وقصدت خيمتي مصعوقا.

جاءت الصبية بالصينية وبراد الشاي، وشكرناها معا ورجعت إلى الخيمة، وانخرطت في صمت، غير مصدق ما قاله الصياد الأشقر، ثم قلت:

– غير معقول، كأنني في حلم.

صب لي كأس شاي وصب لنفسه وقال:

– ليته كان حلما يا صاح.

أشعلت سيجارة على الفور وقلت:

– منذ وطئت قدمي هذه البحيرة وأنا أشعرني داخل حلم يستعصي على اليقظة. هل يعقل أن يكون لعزفي كل هذا التأثير السحري؟ لا لا أصدق، ولا أريد أن أصدق.

ضحك الصياد الأشقر ورشف من كأسه وقال:

– أنا أيضا لا أصدق، لكن الأمر حدث بالفعل ولم أكن أحلم يا صاح.

رشفت من سيجارتي وندت مني شهقة غائرة، وتذكرت ما قاله فتى العشرين البارحة عن عزفي الذي تضيء له البحيرة وتردد صدى ما قالته فيرجينيا عنه:

– فتى ملعون.

يبدو أننا كلنا ملاعين التقينا بتدبير شيطاني على مسرح هذه البحيرة العجيبة، ولا بد أن مفاجآت لا تخطر على بال تنتظرنا في المنعطفات المحتدمة وما تلك إلا البداية.

– ساحل اللؤلؤة السوداء.

لفظت العنوان والتقطه الصياد الأشقر وردده:

- ساحل اللؤلؤة ا ل س ود ا ء.

عنوان مثير وشيطاني.

- هذا كان عنوان عزف البارحة.

قلت له.

- لعين. ألم أقل لك أن مفتاحا أزليا ضائعا، كامن في ساكسفونك السحري.

قال باحتفال مبتهج وساخر وطفقت أضحك رغم فيض المباغتة. واستأنف يقول:

- أنت مخطئ يا صديقي إن كنت تظن بوجود لؤلؤة سوداء داخل البحيرة. اللؤلؤة السوداء يا صديقي، هي البحيرة نفسها.

كانت جملته الصادمة مثل ضربة مطرقة على صدغي، أثارني كيف ترسم مخيلته الصور وتجترح احداثياتها بدقة محيرة.

لم أشأ أن أدخل معه في تفاصيل حكاية فيرجينيا، فهي باحت لي بسرها ومكاشفتها عندي في مأمن، لكنني كنت أشعر بأن هذا الشخص الخارق يعرف بحكايتها، بل ويعرف أشياء كثيرة أعمق مني عنها وعن كل زوار البحيرة.

- أوغاد.

نطق الجملة وهو ينظر بشكل حاد إلى الغواصين الثلاثة في وسط البحيرة وأردف:

- لن يهدأ لي بال حتى أعرف سر وجود هؤلاء الأوغاد هنا وعما يبحثون عنه بالضبط، أظن أن شيئا خطيرا وراء الأمر .

رشفت من سيجارتي وتجرعت من الشاي متلذذا وقلت:

- ألسنا كلنا هنا من أجل شيء آخر غير تلك الأشياء التي أعلناها؟

بدا عليه أن جملتي داهمته وقلت له موضحا:

- أعني أن هناك حكاية أخرى أيضا تخفيها لحضورك هنا وهي غير حكاية صيد الزنجور المرقط.

سحب ما تبقى من سيجارته، ونظر إلى أعلى، ثم نبس:

- أجل، لا أنكر أنني هنا بسبب حكاية أخرى، وهي على كل حال لاتلغي الأولى، وأريدك أن تعرف جيدا، أن كل حكاياتنا غير المعلنة، والتي تتقاطع مصائرنا فيها بشكل أو بآخر كما سيتضح في الآتي من الأيام، لا تشكل لي مصدر حيرة، بل أستمتع بنسقها الخفي، المدبر بشكل مدهش وحاذق، الذي يحيرني يا صاح، هو الحكايات المضاعفة التي نجهلها كلنا، وهي لنا فخ جماعي رابض في هامش كل ما يجري وما لايجري، وتلك هي المفاجأة الأعظم.

لمست في جوابه فلسفة، ومقدرة على الذهاب بعيدا، وحرصت ألا أستفزه أكثر حتى نبقى ملازمين للوضوح الأدنى.

بتلك اللحظة نزلت عصابة من القردة وتحلقت قريبا من الخيمة وطلب الصياد الأشقر من الصبية خبزا، وشرع في الإلقاء بقطع منه إليها وهو يقول:

- هذه فصيلة نادرة من القردة تسمى بزعطوط، وهي آيلة للانقراض، للأسف لم تسلم هي أيضا من مافيا التهريب.

بدا الجو احتفاليا وأكثر بدائية مع دائرة القردة التي كانت تسدد نظراتها إلينا بقوة وهي تقحّ بأسنانها كما لو تخاطبنا بلغة اقترفنا نسيانها.

خرجت الأم الحبلى من وراء الخيمة وطردتهم فتراجعوا إلى الخلف صاعدين من حيث أتوا ونهض هو إذ لمح فيرجينيا آتية من بعيد قائلا لي:

- سأكون مدينا لك إلى الأبد لو تواطأت معي، فها قد عرفنا الدليل السحري إلى صيد الزنجور المرقط، فاختر الليلة التي ستعزف فيها كي أكون له بالمرصاد ونغنمه معا.

رسمت ابتسامة نصفها دهشة ونصفها حيرة وقلت:

- ليس قبل أن أعرف حكايتك الأخرى.

ضحك ونبس مودعا:

- ستعرفها على كل حال يا صاح.

وقف فجأة وأخرج صفحة جريدة من داخل سترته وألقى بها إلي قائلا:

- كليشهات حول الزنجور الأطلسي.

التفت قبل أن يغادر وقال غامزا حين رأى فيرجينيا تدنو:

- لندن تضحك لك يا صديقي، فهيت لك.

أمسكت بالصفحة المهترئة للجريدة، وقرأت مقالا سياحيا صغيرا بدون توقيع في انتظار مقدم فيرجينيا:

"الزنجور أو الكراكي من سلالة فوق سمكية، ذات هيكل عظمي مكتمل، بصنفين شائعين: الزنجور المنقاري، المنشاري المعروف بلقب المدرع، والزّنجور صاحب الخطم الصغير المعروف بالطيني.

الزنجور موصوف بذيل صقيل من الحجم الصغير وزعانف ثلاثية مزدوجة (أي سداسية)، واحدة تتخلف عند الذيل من فوق ومن تحت وواحدة مزدوجة بطنية والأخرى تمتد قريبا من الغلصم عند الفك الخلفي، كما يزدهر جسمه الفارع بحراشف براقة ذات صلابة جارحة.

جسم الكراكي أو الزنجور سلمونيّ، كرويّ أو أسطوانيّ، يمتد رفيعا كرمح، يعيش في المياه العذبة، ويمتاز بطبيعة شرسة، مسعورة وقوة قتالية وشراهة افتراسية لجل أنواع الأسماك الأخرى، ولا تسلم الطيور من آلة بطشه العدوانية.

يلتزم الزنجور بسكناته الثابتة وحركة بطيئة خاصة الكراكيات ذات المناقير المنشارية، ويتلاون بحسب طبيعة المياه والنبات، مما يجعله شبه حربائي، وهذه كلها خصيصات تساعده على استيهامات صيده وتضفي غواية على فخاخه المخادعة التي يحصل بها على فريسته.

للزنجور المدرع أكثر من فصيلة تصل إلى ست أو سبع أنواع لها أسماء بحسب المواقع والبيئات وللزنجور المتميز بالخطم الصغير ثلاثة فصائل تختلف تسمياتها بين القارات.

تنتعش الزنجوريات أي صنف الكراكي المدرع المنقاري في بحيرات الأطلس المتوسط المغربية، ومنها بحيرة "أكلمام أزكزا" .

طول زنجور الأطلس المتوسط يمتد إلى ما بين 50 س و90 س، وقد يصل إلى ما فوق المتر، أي متر ونيّف، ويزن ما بين 5 كيلوغراما و10 كليوغرامات كحد أقصى، غير أن هناك من الصيادين من يؤكد على وجود صنف نادر من الزناجير ببحيرة أكلمام أزكزا بوزن 35 كليوغراما.

رأس الزنجور كبير وله وجه بملامح رهيبة: عينان جاحظتان وفم مسطح مديد وفسيح أشبه ما يكون بخطم بطة متشدق، وبأسنان مخروطية حادة. يتكاثر بين شهر مارس وماي، وينطلق صيده في الفترة الممتدة بين ماي ودجنبر، ويعتبر أشد أنواع سمك المياه العذبة صعوبة في الصيد على الإطلاق."

أوديسا بجع الشمال

11

هبت رياح طفيفة، لها هسيس متواتر، فانتصبت قامة فيرجينيا أمامي على حافة الهضبة وصاحت مغمضة العينين، شارعة ذراعيها كما لو ستحلق:

"هذه ليست رياحا يا طفلتي، هذه موسيقى البحر.

رياح الخليج يا طفلتي، موسيقى تعزفها حوريات في قصر البحر، قصر مشيد من اللؤلؤ."

هكذا كان يهمس صياد شاطئ دبي الأول، والد جدتي، فارسة الساحل العربي.

ابتسمت لإنشادها المسرحي وتمتت لها:

"هذه ليست رياحا يا طفلتي، هذه موسيقى البحيرة

رياح الأطلس يا طفلتي، موسيقى تعزفها الزناجير في قلعة البحيرة، قلعة مشيدة من أحلام الفتيات الثلاث"

كنت أعني الفتيات الثلاث لأسطورةِ تشكُّلِ البحيرة كما حكاها الفندقي، الفتيات اللواتي سقطن في البئر، قبل أَن يلحق بهن الغراب، وتفيض البئر وتستفحل حتى تصير ما هي عليه الآن.

حدقت إليها بِوَلَهٍ وأردفت:

– الآن انكشف لي ما كنت تعنينه بالقلعة السحرية المردومة في قعر البحيرة، ما من وجود لها إلا في خليج طفولتك.

تراجعت فيرجينيا إلى الوراء وجلست إلى جانبي، وسكبت لها كأس شاي. في عينيها كانت بهجة الخلود تعتمر أُحلام الطفولة، همست لي بشفة حمراء أكثر من اللازم:

– عزفك البارحة، جعلني كسحليّة ضاجعت رمل الخليج.

باغتتني الصورة المارقة. ضحكتُ وهتفتُ لها:

– هل تصدقين أن أصابعي البارحة كانت تشبه أرجل عنكبوتٍ يتسلق كرمة الأبدية؟

– أصدِّقُ عزيزي، كنت سحليّة فتحولت إلى فراشة في مهب أزقة لندن.

ابتسمتُ وأشعلت سيجارة وأنا مسحور بالزرقة الفوسفورية في عينيها وقلت:

– العزف كان من وحي لؤلؤتك السوداء، وقد استهلك قوتي، شعرت أنني خرقة في النهاية.

– واو، كنت أشعر أنها معزوفة تستهدفني وحدي، وتستهدف طرقا خاصة في داخلي.

قالت بغبطة عاتية.

– لم يكذب إحساسك العالي يا عزيزتي، فقد كان اللحن: ساحل اللؤلؤة السوداء.

قفزت في مكانها وارتعشت ثم هبت وعانقتني ورسمت قبلة وحشية على شفتي، وندت أنفاسها عميقا، ورغبت لو أن لحظة القبلة لا تنتهي، وددت بكل ما أملك من حلم لو سكنت تلك القبلة ولا أخرج منها أبدا، تلك القبلة الشبيهة ببرق عاصفة من القرمز، شعواء ألغت الخارج، نفت البحيرة والجبل والفندق والأطلس والجغرافيا والعالم، وفجأة اندلع البياض، البياض، البياض..

وانقشعت الإغماضة المسكرة، وفتحنا عيوننا معا على أسراب طيور،

بل مهرجان من الطيور. كانت جحافل طيور البجع قد حلت لتوها في البحيرة، وصبغت المكان بالأبيض الناصع، كما لو أن عاصفة ثلجية ندفت ثلج مئة شتاء في دقيقة سحرية، وعلقت نظراتنا في المشهد اللايصدق، وكأن كل ذلك الجمال الوارف كان من تأثير قبلتها الخالدة.

وثبت فيرجينيا مثل طفلة خارقة، ونزلت الهضبة راكضة صوب الضفة وهي تشهر آلة تصويرها، وطفقت تصور البجع من كل الزوايا، وبوضعيات مختلفة، فقد كانت تقف وتنحني وتنبطح على بطنها وتتدحرج وتتقلب على ظهرها، ثم تثني ركبتها وتتسلل بين الصخور كما لو كانت تحمل سلاحا وتتربص بعدو تارة.. السلاح الذي يتحول إلى وردة تحاول أن تداعب بها البحيرة والنهار المشمس تارة أخرى.

ثم أخيرا لاح الغراب، محلقا بغطرسة، يتقدم في موكبه المهيب حتى توسط السماء، وأخذ يلف في دورات كبيرة، راسما تلك المدارات الثلاثة، وانسحب بعدها باتزان واتساق وغادر المشهد تاركا أثر نعيق حاد يتردد صداه في فجوات الغابة الرهيبة، وولج الشق الصخري المظلم وغاب.

التحقت بفيرجينيا الغارقة في طقوسية تصويرها اللاهبة، وشاركتها المشي المسرنم داخل معسكر البجع، وقمنا بدورة كاملة حول البحيرة، استغرقت زمنا طويلا، حل معه المساء الرصاصي، واقترحت أن نتعشى مبكرا في الفندق، كي ننزل الليلة إلى البحيرة.

- كيف؟

سألتها بدهشة. وأجابت وخيوط الحبور تلف شقرتها البهية:

– يوم أنطولوجي كهذا لا يمكن إلا أن نتوّجه بسهرة داخل القارب في البحيرة.

سارعنا إلى الفندق، وطلبنا عشاء عند السابعة مساء، ولاحظنا غياب فتى العشرين.

سألت عنه الفندقي وقال:

– مذ خرج صباحا لم يرجع على غير عادته.

– كان قد مر قريبا من خيمتي وقال أنه يقصد مكانا وراء الجبل.

قلت له.

– ولد ملعون، لي معه حساب عسير.

قال الفندقي.

– المهم أن يكون بخير.

قالت فيرجينيا.

أكلنا طاجينا بسمكة "ترويت"، لأننا لم نتغذ معا اليوم، ونظراتنا تتناقل فلز الرغبة وإدمان الغرابة والجنون.

– ترى، أي الصور المحظوظة ستعزز معرض أرواح البحيرة هذا.

كانت تعني معرض صور الشخوص في بهو الفندق.

- ترينها صورة محظوظة بالفعل ستكون؟

قلت لها مستفسرا.

وردت بثقة أكيدة:

- محظوظة جدا، فلا أجمل من أن يكون موتك غامضا يسبغ معنى على وجود منسي كهذا.

لم أحمل كلامها محمل الجد واعتبرته جنونا ومشاكسة أنثى تمتلك ذائقة استثنائية ومخيلة حادة وتتحدث بلغة مجازية لافتة. أنثى يتألق في جسدها موجز تاريخ الجمال اللندني المشفوع بسحر الشرق. أنثى عاتية، تلهث وراءها الموسيقى ويقتفي أثرها السديمي إيقاع الشعر وقلق الفن معا.

انتهينا من الطاجين المنكّه برائحة الزعتر وتواعدنا بقبلة على سمر الليلة، وسرت في طريقي إلى الخيمة مسحورا كطفل تسلق دالية الغروب وقطف نجمة، ومضت هي إلى عربتها تثب كسراب طفلة ملائكية مقفلة إلى جنتها المفترضة.

التقينا عند التاسعة ونزلنا بالزورق مجدفين في ظلام الليلة حتى توسطنا البحيرة، وهناك أوقدنا شمعة للحظة، وجلبت فيرجينيا زجاجة نبيذ، وصبت لي كأسا، وصبت لنفسها، ثم قرعت كأسي وصاحت بنبرة احتفالية:

- نخب سهرة البجع على القارب السكران.

ابتسمت لجملتها البديعة وقرعت كأسها، هاتفا:

- نخب: الغريان في عربة الشمس.

ضحكت وصرخت وقالت:

- مهلا أبولو، مخيلتك قاتلة.

قبلتها وقلت:

- هذا القارب حقا يشبه عربة الشمس، غير أنا ما يقوده ليس أيائل، وإنما بجعات الشمال الحزين.

رجعت إلى الخلف وندت منها شهقة، ثم أغمضت عينيها وهتفت بقصيدة:

يجدف القارب في ليلة المحو

ثملا تتعقبه نجمة القطب

تهذي بملمس أزيزه الضفاف

وتسكر لإيقاع هسيسه الزناجير

يمضي مثقلا بفاكهة الموسيقى

يشق طريق اللهب في عتم الفجاءة

كأنه يكتب سيرة الموج

كأنه يتلصص على آثام الحديقة

بل هو كدمة القمر على صفحة المياه

يزهر الآن في قيظ الحلم

يغنم حياة العشب

يظفر بساعة القيامة

هنا بحيرة "ناراسيس" دوامة الغراب

هنا ميلاد الزنبقة يعلن برهة الأبدية.

(قذفت بي كلماتها داخل متاهة سريالية، ووجدتني مدثرا بنبات وحشي، أصارع بسيف ثورا له رأس زنجور، يشبه ثور المينوتور، استغرقت المعركة زمنا طويلا وأنا مجلل بخدوش تاريخي كله، لمحت وجه أمي في قمر متخيل، وأزهرت حيطان الليل بوجوه كل النساء اللواتي بصمن كينونتي، عابرات أو خالدات، رأيت قرميد بيتي ينقلب الواحدة تلو الأخرى والجارة، سيدة الكلب الأبيض ترقص طربا وهلعا في الحديقة، بينما يتبول كلبها الأبيض على زهر السياج، وتنبت في أزاهير السياج رؤوس شيطانية تشك لسانه فيتراجع إلى الخلف مندلعا بنباح حاد، جعله يتغوط على حوض النعناع، عندها جن جنون السيدة وأصابتها نوبة هستيرية وأخذت تضرب الكلب بسوط بشكل مبرح وند منه عواء تفاقم

في سماء البلدة. استأنفت عقابها للكلب الأبيض مما جعل العجوز الكسيح يصرخ في كرسيه المتحرك وهو يقول لها:

- عاهرة، يكفي أنك قصمت ظهري.

جن جنونها أكثر وهو يردد بشكل مستفز:

- اتركيه أيتها البغي.

- بغي؟ تقول لي بغي أيها الضفدع الحقير، حسنا.

فدخلت إلى المطبخ وحملت سكينا وانطلقت إليه وبدأت في طعنه بصدره وتلطخ وجهها بدمائه وهو يحتضر أمامها بينما هي تضحك بشكل هستيري، عندها انطلق الكلب الأبيض وانقض عليها وزرع أنيابه في عنقها وأحكم طوقها بعضة قاتلة، ثم قفز السياج وركض بعيدا.

قاوم العجوز الكسيح جراحه وحاول التغلب على احتضاره وزحف وولج حديقة بيتي من داخل ثقب في السياج الجانبي وكان الباب مفتوحا واقتحم المنزل متقدما إلى البهو وخلفه أثر طويل للدم، حاول بكل ما تبقى له من نبض أن يستند إلى كرسي ورفع الإزار عن البيانو المنتصب في الزاوية، وجلس على الكرسي، وشرع في العزف، لقد نبتت له ملامح أبي فجأة، ومن قبو البيت صعد شبح جدي، وهو يحمل كمانه وطفق يشارك أبي عزفه على البيانو، ومعا شرعا في أداء: سمفونية "صهيل الحصان المرقط" وفي عز رحيلهما الموسيقي سيندلع صوت حاد، أقوى بكثير مما يخطر على أي بال، كان لامرأة غجرية، تضع وشما على ذقنها، كان صوت أمي

الذي تطاير له قرميد البيت، تطاير له السقف، والأثاث، وتطاير قرميد بيت الجارة، والسقف والأثاث، وتوالى تطاير قرميد وسقوف منازل المدينة، و لم يبق في البلدة إلا الثلاثة، عازف الكمان العجوز، وعازف البيانو، والمغنية ذات الصوت الخرافي.)

كما لو كنت منهوبا غارقا في غيبوبة، وأيقظني صوت فيرجينيا وهي تصب لي كأسا، وتقرعه بكأسها، وتقبلني بلهفة كاسحة صائحة:

– يا بركة الفتيات الثلاث، يا آنسات البحيرة الزمرديات، اجعلن هذه الليلة بدون نهاية.

تراجعت إلى الخلف، ورشفت من الكأس وحملت الساكسفون، وبي توتر مريع وخشية لذيذة وما أن نفخت حتى شعرت برئتي تتكهربان، فكرت بعزف كبسولة الزمن للساكسفوني فرانك فوستر، وحيث وضعت الأصبع الأول على المكبس الثالث، شعرت بكيّ جمرة، ثم انهمرت بانهمار الحلم ووجدتني أرتجل عزفا خاصا بي، وكانت الرنة الأولى كشرغوف داخل جدول، يشق طريقه صوب نهر الايقاع، وباتحاده في ايقاع النهر، بدأت أنفصل عن الخارج، وأندمغ بالمجهول في داخلي، وعزفت بجسدي كله، و لم تكن هناك نقطة في كينونتي عزلاء، كنت كما لو ألملم أقنعتي عبر انعطافات حياتي، وفجأة اتضحت لي الصورة، كنت طائر بجع، في النصف الآخر من الكرة الأرضية، وأقلعت مع السرب، منخرطا في السفر الأوديسي، بحيرة بحيرة، ونهرا نهرا، وغابة غابة، وبحرا بحرا، وفصلا فصلا، وغيمة غيمة، ورصاصة رصاصة وعاصفة

عاصفة، وزوبعة زوبعة وقيظا قيظا، وصقيعا صقيعا، ووووو.

كان ترحالا شاقا، يختزل ترحال عمري، في دورة البجع تلك، وقفت على دورة سنواتي، وصولا إلى هذه اللحظة بالذات، لحظة السهرة الصارخة داخل القارب مع الشقراء العاتية: فيرجينيا.

ألقيت بالساكسفون كما لو كان نارا حارقة، وسقطت خائر القوى، بينما كانت فيرجينا متسمرة في مكانها كما لو تحجرت، وفجأة هتفت:

- أووووو، كيف أصدق هذا الزلزال يا إلهي.

ثم استسمحتني عذرا وانحنت بوضعية ذئبة وطفقت تعوي. وفي الحين جاءها الصدى من الجبل، كان عواء حقيقيا لذئاب الأطلس، ووثبت من جديد وعانقتني مذعورة ثم ضحكت وقالت:

- لم أرقص في حياتي كما رقصت الليلة، لقد كان عزفك مثل فؤوس بلورية تحفر جليد داخلي.

لم أصدق أن العزف استغرق نصف ساعة وأكثر، ولم أدرك رقص فيرجينيا، لأنني كنت سجين إغماضة غائرة.

رشفت فيرجينيا من كأسي ورشفت من كأسها، ثم رسمت قبلة صامتة وحارقة على شفتي وهمست لي:

- ما رأيك بهذا العنوان لعزفك أو لحنك الصاعق: أوديسا بجع الشمال.

أثارني العنوان فقبلتها بوحشية كرد إعجاب شرس على اقتراحها البلوري، وانفلتت من قبضتي وقامت، وبدأت تنضو عنها ثوبها، قطعة قطعة، حتى كشفت عن جسدها عاريا يشعّ بمعدن البياض الأول، وانتصب نهدها مثل حجل على أهبة الجموح، ولاحت سرتها كملاذ منامات النجوم، وبدا عشب حوضها الخجول كحسون يحرس منجم السماوات السبع المطوية في منجمها المخضب بورد الخليقة البكر.

أطلقت شعرها المنسكب كنهر أفعوانات حمر، وأوقدت المصابيح الزرق في عينيها الفوسفوريتين وانحنت عليّ بباكورة أنوثتها الشعواء و...

12

على تخوم الفجر، جدفنا بالقارب صوب الضفة، قبلتني فيرجينيا وعانقتني هامسة:

– من يصدق أن اللؤلؤة السوداء التي أتت بي إلى هنا، ستهديني هذه الليلة البيضاء.

شق علينا الانفصال عن لحمة اللبلاب في عناقنا الكلي وافترقنا على قارعة الصباح وصار كل منا إلى وكره، بعد ليلة جنون كاملة الأوصاف.

لذت بخيمتي وأنا أشيعها بيدي فيما البجع يتطاير مبتهجا بندى الصحوة، وغابت في عربتها المنزلية على شمال الضفة.

نمت مخدرا بصخب الليلة البيضاء، و لم أستيقظ إلا ظهيرة.

هذا هو اليوم الخامس في البحيرة والصديقة المغربية لم يظهر لها أثر بعد. حاولت تخطيط لحن البارحة في مذكرتي (أوديسا بجع الشمال) وانتابني فضول للاطلاع على مذكرة فتى العشرين، وقاومت ذلك الفضول غير الخليق بصدقي ونبلي، ونهضت بصعوبة أمرن جسدي وأزاول حركات قد تعيد إليه بعض الألق، وتزامن ذلك مع مروق الصياد الأشقر قريبا من الخيمة، ورفع قبعته هاجسا بتحية ورددت التحية مرحبا به كي يصعد إلي.

– ظننتك نائما، صديقي.

قال والسيجارة لا تنفصل عن فمه الداكن وقلت:

– صحوت من قليل وكنت أفكر في شاي الخيمة البدوية.

ابتسم جالسا على عتبة الخيمة ونبس:

– ما من عاشقين تربعا على عرش البحيرة مثلكما.

كان من تحصيل الحاصل أن يعرف بشأن ليلتنا الصاعقة، فهو حارس البحيرة الأمثل، وابتسمت وقلت له:

– عرشها على عاتق الامبراطور، الزنجور المرقط.

رسم ابتسامة حادة وقال:

– أظن أن ساعات الإمبراطور باتت معدودة يا صاح.

رشف من سيجارته، ورفع نظرته إلى السماء، ثم انعطف نحو مياه البحيرة وقال:

– منذ زمن لم تسترجع البحيرة لونها الطبيعي.

ندت منه أنفاس كأنها رثاء وقلت له وأنا أرنو بدوري إلى المويجات المتراسلة كمزاج هادئ:

– تعني أن البحيرة ملوثة؟

– بل أعني أن سحنتها تتغول وتتشيطن، وهي تبدل جلدها أكثر من مرة في اليوم، لو أمعنت النظر، ستراها على طول فراسخ النهار، بألوان متحولة، حمراء وصفراء وكستنائية ووووو... ثم سوداء.

لم تعد تلك التفاصيل تجعلني مستغربا، فقد تأكد لي منذ وطئت المكان أن الفصل بين الحلم والحقيقة لا وجود له، ما من فرق بين الخيال والواقع، إنما ثنائية المعقول واللامعقول كتلة واحدة، ترقص رقصتها المبتهجة هنا، ولا سبيل إلى الحيرة واستنزاف المنطق، فدع الوقائع المريبة تجري كما أريد لها أن تكون واستمتع باقامتك المجازفة بتلك المنطقة العزلاء ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وبعدها لك أن ترى وجهك في المرآة، إن كان يحتفظ بملامحه الاعتيادية.

همست لنفسي، ثم قلت للصياد الأشقر:

– وبماذا تفسر هذا الأمر يا صديقي؟

بعج عقب سيجارته في العشب وصوب نظرة حادة إلى صرود الغابة وقال:

– منذ سقطت أشياء غريبة في هذه البحيرة، تعكر مزاجها، وصارت على هذه الحال من الإضطراب والتشوش اللوني.

– أشياء غريبة؟

– أجل، فيحكى يا صاح أن البحيرة كانت بلون كريستالي، زجاجي، شفيف، يمكن رؤية مملكة قعرها كما لو تنظر إلى صندوق أكواريوم، الحادثة الأولى محض قول شفوي تناقلته الألسن، يرجع لسنة 1910 حين شاهد أفراد من القبيلتين وقوع شيء ثقيل في البحيرة، ماجت له وهاجت وبدلت لونها الذي صار شبيها بالدم والصديد، والحادثة الثانية، وقعت بتاريخ 1955، كما حكاها لي أبي وشهدها نفسه، وهي تشبه الأولى، سقوط جسم غريب، في البحيرة، ماجت وهاجت له، وصار لونها بين الصفرة والبني، ثم الحادثة التي لا يمكن أن أكذبها، وقد شاهدتها أنا نفسي، ذات ظهيرة، من شهر فقط، حين سقط شكل غريب في البحيرة، وماجت بصورة مرعبة وهاجت بصوت هادر، ورسمت دوائر كبيرة، حلزونية، وصار لونها بين الأسود والرصاص.

فحصت جيب سترتي، وأخرجت سيجارة، أشعلتها وقلت بذهول :

– وما كان ذلك الجسم الغريب باعتقادك؟

- بالتأكيد ليس كائنا فضائيا كما يحاول الأجانب تفسير ذلك، كما ليس صحنا طائرا، ولكنه جسم غريب لامع، لا أستطيع أن أزعم تسميته، وللآن أحاول فهم تلك الظاهرة، فربما وراء الأمر خدعة ما.

قالها وأشعل سيجارة جديدة، ثم أردف:

- في كل الأحوال لا أصدق خرافة انهمار الأشياء من الشق الصخري كما يروج لذلك الناس، فليس للجبل حتى شكل بركان لو أردنا أن نعطي الأمر تفسيرا علميا.

رشفت من سيجارتي وقلت له:

- هل مصادفة أن يكون رقم ثلاثة هذا وراء الأشياء الملغزة للبحيرة يا صديقي: ثلاث فتيات تقول أسطورة البحيرة سقطن في بئر وفاضت ماؤها، ثلاث دوائر يرسمها الغراب كل يوم في سماء المشهد، ثلاث حوادث لسقوط أشكال غريبة في البحيرة.

رسم الصياد الأشقر ابتسامة لعينة وقال:

- وثلاثة أوغاد يمسحون البحيرة الآن بشكل يدعو إلى الارتياب.

لفظها وهو ينظر إلى هيوز وصديقيه وسط البحيرة، وسرعان ما عاد بالحديث إلى أوله ونبس:

- كنت أود أن أقول لك، بأن البحيرة تسترد لونها الطبيعي لحظة عزفك على السكسفون.

ثم نهض ورمى بسيجارته بعيدا دون أن يكمل رشفها وقال مشيعا:

– سنبدأ الصيد، عندما ترحل طيور البجع هذا المساء.

لم أكد أصحو من لعنة الجملة الأولى حول المياه التي تستعيد لونها بفضل عزفي، حتى رطمني بجملة أخرى تتعلق برحيل البجع، وتساءلت كيف يعرف بأمر رحيلها هذا المساء، هل هي نبوءة أو حدس أو حكم تجربة متمرسة؟!؟

II

حكايات البحيرة السبع

13

حل المساء، وقصدت الفندق عندما رأيت هيوز وصديقيه على العتبة، وقد كنت أنوي الذهاب إلى العربة المنزلية كي أطمئن على الساحرة الشقراء، فيرجينيا. لا بأس من أن أسأل هيوز عنها قلت، ومشيت محدقا بالشفق الذي يضرج الأفق، ودخلت النزل الصغير، ووجدت الغواصين يلتهمون عشاءهم على الطاولة، وسلمت من بعيد وارتكنت الطاولة قرب المدفأة. أجلت السؤال عن الصديقة الشقراء، إلى حين انتهائهم من الأكل، غير أن هيوز بادرني قائلا:

– سألت عنك صديقتك الشاعرة، وقد نزلت إلى المدينة من ساعة.

هذه أول مرة ينطق بكلمة صديقة ومشفوعة بشاعرة، وكان يعني

فيرجينيا. ترددت قبل أن أقول له:

- حسنا، أرجو لها عودة سالمة.

خمنت أنها نزلت بسبب طارئ ما، ربما لتقضي حاجة ملحة، كأن ترسل رسالة ما أو تسحب مبلغا ماليا وما إليه من أغراض تقتضي ذلك.

و لم أستطع انكار افتقادي لها بذلك المساء الرصاصي الموحش. انغمس هيوز في حديث هامس مع صديقيه، وبدا عليهم حماس غريب. كان واضحا من حركاتهم وملامحهم أنهم سيقضون الليلة في البحيرة، أعني في قعرها، وجعلني هذا أتساءل وأنا أتذكر ارتياب الصياد الأشقر:

- هل وصل بهم حب الغوص حد المكوث ليلا في قاع البحيرة.

طلبت عشائي، ولاحظت غياب الفتى العشريني، فسألت صاحب النزل وقال:

- هل سمعت بأحد ذهب وراء الجبل السحري وعاد.

اعتقدته يمزح في البداية، غير أنه استفاض يقول لي موضحا:

- وجوه كثيرة فقدناها، غامرت بالذهاب إلى تلك المنطقة الملغومة وانقطع أثرها.

قلبت أصابعي، وتصلب وجهي وسألته:

- ماذا تعني بمنطقة ملغومة؟

– أعني بها، منطقة غامضة، مسحورة، فوراء الجبل مباشرة تنتصب غابة متوحشة، تشبه متاهة من الأدغال، وهي ما تزال تحتفظ بحيواناتها المتوحشة، من أسود وفهود ونمور وضباع وذئاب. ومحظور على الناس ارتيادها، وليس من باب التهور أن يقصدها المرء وفقط، بل هو الانتحار بعينه.

وضع طاجينا بلحم أرنب بري، وقال:

– شهية طيبة يا سيدي، وعلى الفتى المعلون السلام.

لم أقتنع بحكاية فقدان الفتى العشريني إلى الأبد، كما لم أصدق أسطورة الغابة السحرية هذه، ووجدت الأمر جاذبيا بالنسبة لخلقتي العنيدة، وانتابتني رغبة اكتشاف هذا العالم المريب وراء الجبل السحري.

كنت أود لو أنني تقاسمت العشاء مع فيرجينيا، وتساءلت لماذا لم تخبرني بأمر سفرها إلى المدينة، أكثر من ذلك، خمنت لماذا لم تقترح علي مرافقتها.

بدا المساء أشد وحشة لغيابها، وعالجت التفكير فيها بالالتفات إلى معرض الصور، واستقرت نظرتي على صورة المرأة الأمازيغية، فتاة البحيرة كما قال لي الفتى العشريني، وعندها سمعت صاحب النزل يصيح بآيات اعجاب، وخرجت والغواصين الثلاثة إلى العتبة وشاهدنا جميعا أسراب طيور البجع تحلق وتتطاير في موكب رهيب، مغادرة البحيرة صوب الشرق. مهرجان من الريش، دثر المساء ببياض يندر رؤيته حتى في عز أحلام الطفولة.

تذكرت رنين عنوان فيرجينيا: أوديسا بجع الشمال.

وغمرني الأسف لعدم حضورها، لأن بهجتها ستسمق أكثر لمشاهدة هذا الحدث الجليل، كما أنها ستستأنف ألبوم صورها الفريدة.

- ها قد صدقت حسابات الصياد الأشقر.

قلت لنفسي، فازداد اعجابي بشخصيته ذات الأطوار الغريبة، كما ازدانت رؤيتي إليه بالمزيد من اللبس المثير. بالتأكيد لن يفوت اللحظة المجيدة، ولا بد أنه يرصدها من زاوية سرية يعرفها وحده. رجعت إلى شعوري السابق باحساسي القوي الذي لا أجد له تفسيرا، وهو، شعوري بشخص شبح يراقبني من بعيد، ويرصد تحركاتي وكل ما يجري على مسرح البحيرة. فكرت بالضرورة في الشخص المجهول الذي اكترى غرف الفندق الثلاث لأسبوع. ثم سطعت صورة فتى العشرين من جديد في ذهني. وتذكرت مفكرته الصغيرة التي تركها لي صباح البارحة، وانتابني الفضول لاكتشاف مذكرته، ووجدت في غيابه الغامض سببا لذلك، ولم أكمل عشائي لشهيتي المفقودة، واكتفيت بشرب كأس شاي، مع تدخين سيجارة، وغادرت النزل بنصف ساعة بعيد مغادرة الغواصين الأوغاد كما يسميهم الصياد الأشقر.

في خيمتي الصغيرة، أوقدت مصباح البطارية الأزرق، وتلقفت مفكرة فتى الفندق ولفتني وجود ورقة صغيرة مطوية داخل حنايا المذكرة وبسطتها واكتشفت أنها رسالة صغيرة لي:

(عازف الساكسفون الجميل

تحية عاطرة وبعد

قررت أن أترك لك مفكرتي الصغيرة، وبها ما يشبه خربشات مقتضبة عن حكايات الصور. أعني مشروع الكتاب الذي كنت أحلم بانجازه والمتعلق بتلك الوجوه العاشقة التي بصمت وجود هذه البحيرة الغريبة. هي وجوه ظلت تؤرق مناماتي و لم أقاوم لحظة فكرة تدوين حكايات حوادثها الغامضة التي شهدها مسرح هذه البحيرة العجيبة.

أضعها الآن كوديعة بيديك في حالة عدم رجوعي واختفائي، وعندي اليقين بأنك ستحسن التصرف بها .

كل ما في الأمر يا صديقي أن حلما داهمني منذ أيام، وكان شبيها برؤيا، رأيت فيها فتاتي التي اختفت من شهر ولأسباب مجهولة يطول شرحها، تناديني وتطلب نجدتي وراء هذا الجبل المخيف.

وقد عزمت على كسر طوق الخوف والذهاب إليها، فما رأيته كان ضوءا لايمكن انكار صدقه، وحقيقته الخالصة.

شطرني نداؤها يا صاح، وأثقل كاهلي، ودونما تردد، سأخوض هذه المغامرة اللابد منها، ولن أخسر شيئا.

فيبدو أن الفقدان هو القدر الساخر والمبهم لهذه البحيرة اللعينة.

خالص الود.)

أشعلت سيجارة، وكدت أصرخ من صهد المفاجأة وقيظها، ضحكت ثم لذت بصمت ثقيل، ودون تردد قلبت الصفحات وبدأت بقراءة خربشات الحكايات:

(في حكاية أبي عن جدي عن أبيه عن القبيلة عن المكان، تنتصب البحيرة كمصدر للألفة ومركز للحب وملاذا انسانيا أكثر منه موقعا جغرافيا باذخ الجمال وغامض التأثير...

البحيرة مفخرة القبيلة والمنطقة، كانت وما تزال تراثا طبيعيا تترنم به مخيلة الأفراد وتحبك أسطورته مفكرة الجماعة.

لم تقتصر رمزية البحيرة على ابتكار نسق تخييلي في حدود محلية، وتخطى طرز ذلك الأفق الصارخ نحو تشكيل العالم.

فالبحيرة في اعتقاد ناسها، مرآة للسماوات السبع، تستضمر ما يعتمل في الأعالي، وهي تبدو وفق ذلك مرجعا سماويا أو مستودعا أزليا لأسرار الخلق وألغاز الكون.

هذه المرآة الخرافية، كانت في زمن قديم، بمنتهى النقاء، كريستالية وشفيفة، تفصح عن كائناتها وتشعبات نباتها وغرابة عالمها المبهم. ما من مخلوق في بحار العالم وأنهاره إلا وتوجد نسخته الأصل في البحيرة. بل إن مياه بحار وأنهار العالم رهينة بمياه هذه البحيرة واستمرارها.

كيف ذلك؟

هناك علاقة غامضة بين البحيرة كخزان طبيعي مهول للمياه ومياه الكوكب، مثل تلك العلاقة الغريبة بين البحيرة وتحولات القمر وحركاته على مدار الشهر.

وعليه تمتد البحيرة كميزان خفي، تكشف أحوالها أو تنذر بتشكل الظواهر الطبيعية، عواصف وصواعق وزلازل وبراكين إلخ.

كل هذا يمكن استنباطه من ملامح وجه البحيرة، وتغيراته الشكلية.

ووفق الحكاية دائما، فقد تشيطنت البحيرة وتغولت، منذ شهدت أول سقوط حجر فيها من السماء، بسنة 1910، وأعقب ذلك تساقط غريب لذات الأحجار في مناسبات متفرقة، وكلما حصل ذلك، ماج قعرها، وصدر من عمقها صوت هدير وأزيز وكشرت عن سحنة جحيمية، كأنما تتوعد الزوار بموت ماحق، كأنما لوثيان فاحش يطالب بقرابين.

هل كانت تلك الأحجار بمثابة طقس رجم، رجم ماذا؟

لماذا استأثرت البحيرة بتساقط هذه الأحجار على مدار سنوات، وهل كانت هذه الأحجار السبب في موت وحوش البحيرة التي برعت مخيلة القبيلة في رسم أشكالها المرعبة؟

سؤال عالق، يضفي غموضا سحريا على المكان وغرابته.

وعن تاريخ الحكاية دائما، فمنذ سقوط أول حجر، ظهرت كائنات جديدة غريبة، وهي أسماك طائرة. أسماك لها أجنحة تحلق بين الحين

والحين من البحيرة صوب الغابة التي تنتصب خلف الجبل المسحور، ولا ترجع، تختفي إلى الأبد.

لايمكن لزائر البحيرة أن يهنأ بعلاقة طبيعية وعابرة معها، فلا تني تتحول زيارته إلى عشق مدنف يؤول حبا لعينا ومجنونا وقاتلا.

لا يمكن للمستحم في البحيرة إلا أن يصير شيئا آخر غير الذي كانه، فما أن تغتسل بمائها تتحول إلى ذات ثانية غير الأولى ويستعصي عليك الرجوع إلى كميائك الأصل.

وضحايا عشق البحيرة ومجانينها وقتلاها كثر...

منــذ سن مبكــرة، وجدتنــي أقتفــي أثر هــذه الحكايــات، حكايات الشخوصــ الذين أدمنوا البحــيرة، وعلقوا بحب المكان حد الوله وكانت مصائرهم مأساوية.

ولم أتمكن من تدوين كل الحكايات، طبعا، كما لم أتمكن من الحصول على صورهم جميعا.

هي محض رؤوس أفكار وخربشات، أعدها لمشروع مؤجل، لم يختمر بعد، ولم تسنح لي فرصة إنجازه، ربما بانتظار أن أكتسب مهارات لازمة لذلك وربما حتى تنضج مقدراتي لكي أباشر ذلك.

وهذه سبع حكايات صغيرة من أصل مئة، لشخوص مريبة دمغت ذاكرة البحيرة بوشومها الغائرة:

حكاية الرّسام الإيطالي

حلّ الرساه الانطباعي، أبوليوس نيكوس، في البحيرة سنة 1949، وشرع في تخطيط لوحاته بالشاطئ على طول ثلاثة أيام. في اليوم الرابع بدأ بانجاز لوحته الشهيرة حول بحيرة "أكلمام أزكزا" وأنهاها في ثلاثة أيام متعاقبة.

بعدها رسم غراب البحيرة على غصن شجرة أرز، ونمر الغابة المتربص يلحس قدم رجل نائم والفندق الصغير، وأجّل مغادرته المكان، حتى ينجز لوحة أخيرة عن فتاة كانت تغسل الصوف على حجر الضفة.

اقتفى أثر الفتاة في المساء حتى عرف بسكناها، على هضبة غربية وسط الغابة، حيث يمارس أهلها نمط الرعي الغجري.

وهناك استضافوه وأكرموه، وفجأة قرر الزواج من فتاة الغسيل.

غير أنهم رفضوا زواجه، لعدم معرفتهم بلغته وديانته.

علق قلب الرسام بهذه الفتاة البدوية، وحاول أن يفوض راعيًا أمر الوساطة بينه وبين تلك الأسرة الغجرية، وبرغم وساطة هذا الأخير، جاءه الرفض من جديد بالمطلق.

أبدع الرسام أيما إبداع في تصوير وجه الفتاة وتخطيطه بدقة رهيبة، وحاول أن يطلعها على ذلك ذات عصر وأهداها إياها بينما كانت تغسل ثوب الأسرة على ضفة البحيرة.

تلك اللوحة جعلتها تتعاطف مع الرجل، وتتعلق به، وبدأت تلتقيه سرا، وتواعده في الليالي.

غابت عنه الفتاة لأيام وظل متوترا، وعندما امتنع عليه أن يتحمل، مضى إلى حيث تسكن على الهضبة وسط الغابة، ووجد المكان فارغا، فالأسرة غجرية، وقد رحلوا إلى وجهة غير معلومة، عندها جن جنون الرجل.

حاول أن يلحق بها في كل الجهات، و لم يجد لها أي أثر.

عاقر الرجل الخمرة وهو يتوسط لوحاته وأفرط في الشرب حتى غاب عن وعيه.

في غيبوبته، حلم الرسام بلوحة الغراب على شجرة الأرز وقد طرأ عليها تغيير بتحول الغراب من السواد إلى البياض.

وحلم بلوحة البحيرة وقد صارت صفحتها بوجه فتاة الغسيل،

وحلم بالفندق في لوحته وقد انشق من أعلى لأسفل،

كما حلم بأن الرجل النائم الذي يشمه النمر هو نفسه وليس شخصا آخر.

مع بزوغ الفجر على الضفة، أطل الفندقي من النافذة واقشعر لما رأى نمر الغابة يشم الرسام الإيطالي وهو ثمل، يستلقي نائما على عشب الضفة، فسارع هو وشرذمة رعاة باتجاهه فتبرم النمر عن الرسام وركض صاعدا الهضبة، واستيقظ الرسام الايطالي مرعوبا وأخبروه بما حصل وشاهد النمر يلتفت إليه قبل أن يختفي في الغابة.

تلمس الرسام لوحاته، وفاجأه ما رآه في حلمه.

فغراب لوحته صار أبيض بالفعل. تناهى إليه نعيق، وشاهد مع الفندقي وشرذمة الرعاة غرابا أبيض يشحج قريبا منهم على شجرة أرز. تلقف لوحة البحيرة ووجد صفحتها قد أمست وجها لفتاة الغسيل، فالتفت صوب البحيرة وأصابه الذهول وهو يكتشف ما رآه في لوحته، أي صفحة البحيرة وقد آلت إلى وجه فتاة الغسيل.

تلقف اللوحة الأخرى وتلمس الشق الرفيع الذي ينزل من قرميد النزل حتى بوابته. ثم نظر صوب الفندق، ولاح له ذات الشق في النزل عن بعد.

لملم لوحاته، وركض باتجاه الطريق دون أن ينبس بكلمة وغاب وراء الهضبة المعشوشبة.

حكاية المخرج السويدي

حل المخرج السويدي ستيف نورمان شتاء 1970، لكي يصور المشهد الأخير من فيلمه: البحيرة.

وكان المشهد يقتضي، وجود ثلوج كاسحة، يغطي بياضها المكان المحيط بالبحيرة. وانتظر أسبوعا لتنزل الثلوج ولم يخذله ذلك، إذ استمر انهمار العواصف الثلجية لأيام.

في المشهد الأخير للسيناريو، امرأة تنزل من جبل غابوي راكضة، يطاردها جنود، تتقدم بخطى متعبة ووجه أزرق نحو الأسفل، يتردد إلى مسامعها نعيق غربان وهي تواصل العدو مفزوعة وفي الأسفل تصطدم بوجود بحيرة، وبدل أن تستسلم تقرر أن تلقي بنفسها في البحيرة وتنتحر غرقا. وحين يصل الجنود يجدون جثتها طافية على المياه، يتراجعون من

حيث أتوا ويظهر ذئب على ضفة البحيرة، يسترعيه وجود جسم آدمي طاف على المياه، فيغطس في البحيرة ويسبح باتجاه المرأة ويسحبها إلى الخارج، على الضفة في الخارج يلحس الذئب وجهها فتنفتح عينيها الزرقاوين.

مشهد مثل هذا يمكن أن يصوره المخرج السويدي في أي بحيرة بأوروبا، شبيهة بوضعية بحيرة أكلمام أزكزا، فأين يكمن السر في اختياره للبحيرة الأطلسية ويتكبد مصاريف تنقل باهضة الثمن، وفوق ذلك يتجشم عناء انتظار سقوط الثلج الخ.

سؤال طرحه المهتمون والنقاد والصحافة وأرجأوا الأمر لجنون المخرج الخاص، الذي عودهم على مثل هذه الاختيارات المغامرة والمتطرفة.

الذي كان يمتلك الجواب هو الممثلة نفسها التي تؤدي دور البطولة، وإسمها: ألما ويلسون.

فقد اشترطت هذه البحيرة لمشهد الفيلم الأخير، دون غيرها من بحيرات العالم، وفق ما سرده كاتب سيرة المخرج الذاتية.

والسبب في نظره راجع لشيء واحد لا غير.

فألما ويلسون أولا كانت حبيبة المخرج الجديدة، ولم يكن ليرفض لها طلبا، خاصة إن كان طلبا مجنونا كهذا، جنون مغامر هو اللحظة الحاسمة في نجاح الفيلم من عدمه، وهذا الشيء الوحيد الذي شكل سرا ثمينا، أفصح عنه كاتب السيرة: كريستيان وولف، أخيرا، بقوله:

ألما ويلسون، لم يسبق لها زيارة المغرب ونفس الشيء بالنسبة للمخرج ستيف نورمان. اختيارها للبحيرة الأطلسية له حكاية غريبة، ترجع لسنوات طفولتها، فأمها كانت شاعرة فاشلة وبوهيمية مولعة بالسفر، وقد حطت الرحال في جبل طارق عندما صحبها أحد غجر إسبانيا إلى المغرب مغريا إياها بفردوس الماريخوانا، وقد جالا معا مناطق عديدة، قبل أن يستقرا على ضفة هذه البحيرة الأطلسية. وحدث ذات يوم أن نشب خصام بينها وبين الاسباني وكان المكان شاغرا تماما إلا من نعيق الغربان المفزع، وحاول قتلها بأن طعنها بسكين، وألقى بها إلى البحيرة ولاذ بالفرار. لم تكن أم ألما تجيد السباحة، وظلت تعارك المياه مفجوعة تضرجها دماء الطعنة الغادرة، وبتلك الهنيهة المريبة، هرع ذئب أعزل في الظهيرة القائظة وغطس في المياه، وحاول سحبها صوب الضفة، لعق جرحها لزمن وهي ترقبه في ذهول، ثم صعد الجبل واختفى.

كما يحدث في حلم، ذئب أطسلي، ينقذ امرأة سويدية من الغرق في البحيرة. تلك كانت اللحظة الصارخة التي قلبت حياة المرأة جذريا. فظلت طوال حياتها مدينة للذئاب، تكتب عنها الأشعار وتراكمها في دفاتر ومخطوطات تعد بعشرات المجلدات.

وظلت تزور البحيرة الأطلسية في كل سنة بتاريخ ذلك اليوم الذي أنقذها الذئب الأطلسي، إلى أن ماتت المسكينة في السبعين من عمرها.

حكاية الصياد الياباني

حل الصياد الياباني "ياسوناري ميشيما"، صيف 1976، بضفة البحيرة، ونصب خيمته على الهضبة، وشرع في صيد سمك الزنجور، منذ يومه الأول.

لم يكن يتعب من إلقاء صنارته في المياه وجرب كل مهاراته على مر ثلاثة أيام من كل الزوايا والضفاف.

نادرا ما كان يشاهد بدون صنارة، كما لو كانت جزءا من جسده، يده الثالثة على سبيل التوصيف.

وبالوقت النادر هذا الذي كان يستقل عن صنارته، كان يزاول رياضة غريبة بحركات مركبة وتنقلات متشعبة، وكان بارعا يلفت النظر إلى تمارينه الرشيقة والسحرية.

حدث ذات صباح وهو يلقي بالصنارة كعادته في الجزء الجنوبي من البحيرة أن انتشل شيئا صلبا، وكان عبارة عن سلسلة حديدية لصيقة بصندوق صغير.

انتفض في مكانه، وحدس ربما يكون كنزا ما.

فك السلسلة عن الصندوق وحاول فتحه في الحين، تمتم بصلاة ما ثم هشم القفل ورفع الغطاء فوجد حذاءا نسائيا أحمر بديعا، وداخله ورقة صغيرة مخطوط فيها باللغة الفرنسية:

"أنا جوناتان فرونسوا، 1835، وهذه فردة حذاء ثمين جدا لإمرأة شهيرة، الفردة الثانية مدفونة في صندوق مماثل تحت أقدم شجرة أرز وارفة بالبحيرة، وهناك تجد كل التفاصيل."

فحص الصياد الياباني الحذاء، وأعجب بشكله الرصين. أعاد قراءة الرسالة مرات، وانطلق يبحث عن شجرة الأرز السامقة والعتيقة، ولم يجد مشقة كبيرة في العثور عليها، فقد دله عليها صائد مغربي من رواد المكان.

أرجأ الحفر تحت الشجرة حتى منتصف الليلة، وهذا ما شرع فيه مع أوان الموعد، وظل ينبش ويحفر، تحت ضوء قمر كامل الأوصاف إلى أن عثر بالفعل على صندوق صغير، وهرب به إلى خيمته، وهناك تمتم صلاة سرية وفتحه دون تردد، ووجد فردة الحذاء الثانية ومعها رسالة صغيرة مكتوب فيها باللغة الفرنسية دائما:

"معك جوناثان فرنسوا دائما أيها المحظوظ، فهذه فردة حذاء لا يقدر بثمن، حصلت عليه شخصيا من وصيفة بالقصر الامبراطوري في فرنسا، أجل، الحذاء هو لزوجة نابوليون: جوزفين."

قفز الصياد الياباني في مكانه، وابتهجت ملامحه، غير مصدق ما عثر عليه، وهو يتمتم: شكرا لبحيرة أكلمام أزكزا، شكرا للأطلس المتوسط.

وغادر المكان مع الفجر، والبلاد وسافر باتجاه باريس.

وافتقدت أخباره للآن.

حكاية زوجة الجنرال البريطاني

اكتشفت المرأة البريطانية "كاترين صاند" بحيرة "أكلمام أزكزا"، ذات عطلة صيف بسنة 1907، بدعوة من صديقتها الفرنسية "جيرالدين"، جاءتها المرأة البريطانية شبه يائسة، لتمضي فيها فترة نقاهة، فقد كانت تعاني من مرض غريب، عجز الأطباء عن تشخيصه. الأمر العجيب الذي حدث بالأسبوع الأول من نزول "كاترين صاند" ولم تصدقه أبدا، هو تماثلها للشفاء، حين قامت في اليوم الثالث بصحة جيدة وهي ترقص وتركض وتصرخ مما أثار استغراب صديقتها وزوار البحيرة، ولم تسع الغابة فرحتها الصاعقة.

انتابت الحيرة الأطباء الذين فحصوها، حين علموا بتماثلها لشفاء نهائي، وأرجعوا الأمر لحادثة استثنائية. فربما كان ما تشكو منه سببه نفسي لا غير. كيف يكون نفسيا وقد كانت تلك الأعراض شبيهة بمرض السل.

ظل يتساءل أحدهم دون أن يستقر إلى جواب مقنع.

منذ تلك المعجزة، صارت "كاترين صاند" تتردد على البحيرة مرات ومرات، وكان زوجها الجنرال بذلك الوقت، مسؤولا على مستعمرة خليجية بدبي، الامارات.

وقد كان يأتيها بهدايا في كل زيارة من المشرق، وأروع تلك الهدايا على الاطلاق، كان لؤلوة سوداء، يقال هي أول لؤلؤة سوداء تم اكتشافها في ساحل دبي بسنة 1910.

لقد حاول كثيرون اقتناءها من الجنرال بأي ثمن، وشرح له المختصون والخبراء بأنها شيء لا يقدر بثمن، حتى أن بعض الفلكيين وقراء المستقبل وأصحاب علم التنجيم، سخروا كل جهودهم للحصول عليها، وفشلوا في ذلك. فهي عندهم كرة صغيرة تعادل كرة الأرض وتختزل كيمياء الكوكب. وعبرها يمكن التكهن بكل شيء.

ولعلم الجنرال بمدى أهمية اللؤلؤة السوداء، زاد الحاحا وتمسكا بها، وقرر أن تمتلكها زوجته، لأنه كان يعشقها حد العبادة.

ظلت اللؤلؤة الخليجية في ملكية المرأة "كاترين صاند"، إلى أن وافتها المنية بسنة 1935، وقد كتبت في وصيتها أن تحرق جثتها ويدفن رمادها مع اللؤلؤة السوداء في صندوق ذهبي، ويلقى بالصندوق إلى قعر بحيرة "أكلمام أزكزا".

وهذا ما فعله زوجها الجنرال، في آخر الأسبوع الذي لفظت أنفاسها

فيه، وظل يزور البحيرة أيضا ليترحم على روح زوجته لفترات متباعدة إلى أن مات بدوره بسنة 1945.

حكاية الشاعر الروسي

حل الشاعر الروسي "ديمتري لابروف"، ذات ظهيرة بضفة البحيرة بتاريخ 3 يناير 1973، وقد جاءها مصادفة لا غير، ونزل في الفندق الصغير، لأيام معدودة.

كان قد أحيا أمسية شعرية بالعاصمة الرباط بتنسيق من السفارة الروسية وطلب بعدها أياما بمكان غابوي قريبا من بحيرة ليختلي بذاته قليلا. وفي داخله كان يعي تماما أن طلب تلك الخلوة ليجرب كتابة آخر نص في حياته التي صارت معدودة بالساعات، عندما أخبره طبيبه الخاص بأن السرطان قد تمكن من جسده واستشرى في كل النواحي.

ظل ديمتري لابروف يدخن رغم ذلك، وهو يصارع الزمن من أجل كتابة نصه المرغوب فيه بقوة، وكلما حاول ذلك شعر بالعجز الشديد،

لأن الضغط كان يبدد تركيزه، فيجد نفسه مفسخ البال ودون مقدرة لانجاز الأمر، لأن مسألة تدارك الأشياء لم تكن أبدا معركته.

في خلوته العصيبة بالبحيرة الأطلسية، كان يكتفي بالنظر من النافذة وهو يرصد غراب البحيرة، إذ يأتي من منطقة مجهولة من أعالي الغابة ويرسم دوائره الثلاث في سماء البحيرة، ثم يغادرها مقفلا من حيث أتى.

استرعى انتباه الشاعر الروسي هذا المشهد الفاتن، وطفق يمعن فيه الرؤية ويرصده كل يوم، ولاحظ أن الغراب يفعلها مرة واحدة من كل يوم، كما لو يزاول طقسا ما أو صلاة بالأحرى.

وجد هذا الشاعر في يومه السادس مغمى عليه في الغرفة وقد حمل على وجه السرعة إلى مستشفى أقرب مدينة، ومن مستشفى المدينة أُخذوه إلى مستشفى العاصمة ومن هناك سافروا به إلى موسكو.

بتاريخ 3 فبراير 1973، لفظ ديمتري لابروف أنفاسه داخل مستشفى بالعاصمة الروسية، بعد أن استمر في غيبوبته منذ وجد مغمى عليه في فندق البحيرة الأطلسية.

في جيب معطفه عثرت زوجته "كاردينا" على ورقة مطوية، كتب فيها آخر كلماته، ما يشبه قصيدة صغيرة، تلقفتها الجرائد الروسية ونشرتها على مدار ذلك الأسبوع الحزين، وصار كل معجبيه يحفظونها كآية مقدسة ويرددونها عن ظهر قلب كلما ذكروا إسمه والقصيدة كانت بعنوان:

رسالة الغراب الأخيرة.

في الظهيرة الشائنة الحب

يلوح الغراب في سماء الأغنية

راسما دوائر الحياة الثلاث

دائرة الحلم

دائرة الجنون

دائرة المنفى

ثم يمضي مقفلا إلى صمته الأبدي

حكاية عازف الكمان الألماني

حل عازف الكمان الألماني، على ضفة البحيرة، في خريف 1960، واستغرق مكوثه في المكان ثلاثة أيام بالتمام والكمال.

استقر في عربة منزلية، ولم ينم إلا ساعة حين داهمه حلم، فاستيقظ وشرع في البحث عن شيء محدد.

الشيء الذي كان يبحث عنه العازف هيرمان، كان نوعا من الحلزونات تدلق صمغا كثيفا.

لف حول البحيرة، وبعد وقت وجيز، وجد حلزونا تحت حشيشة الكلاب وذهب به إلى عربته المنزلية، وهناك جعله يتمشى على دفة كتاب تحت عنوان: الكلاب البرية.

واندلق الصمغ من مؤخرة الحلزون فتلقفه ودهن به قوس كمانه، ثم

حمل الحلزون إلى الخارج، ونصبه على طريق عشبية وقال له:

- شكرا أيها الحلزون المهاجر على صمغ البطء المظفر.

عند الظهيرة تحديدا، جرب عزف كمانه على الهضبة، فاجتمعت كلاب الأصقاع حوله فجأة وهي ترفع أذنابها في مشهد احتفالي بهيج.

اندهش الرعاة والزوار لفعل الموسيقى الغريبة التي أثارت إعجاب الكلاب ودجنتها. العازف هيرمان نفسه، لم يتوقع ذلك.

أمسك عن العزف بتلك الليلة مخافة أن تلتحق به الكلاب من جديد مهملة حراسة البيوت المبعثرة في الجهات البعيدة.

و أنفق وقته بصباح اليوم الموالي، يلف حول البحيرة من جديد وهو يبحث عن شيء ما.

الشيء الذي كان يبحث عنه العازف، هو نوع من الخنافس المرقطة، حلم بها ليلا. تلك الخنافس لها سائل صمغي غريب فكر في أن يدهن به خيوط القوس ويجرب عزفه على كمانه.

تحت صخرة معشوشبة، وجد واحدة من تلك الخنافس العجيبة لصيقة بحشيشة التيوس والتقطها، ثم ذهب بها إلى خيمته وجعلها تتمشى على دفة كتاب تحت عنوان:

- رقصة التيوس.

ومن مؤخرتها كان السائل الصمغي يندلق، فجعله في ضمادة وطفق يمسح بها خيوط القوس.

حمل الخنفساء خارج الخيمة، ووضعها على العشب في طريق آمنة وقال لها:

- شكرا أيتها الخنفساء الذهبية على صمغ الخلاء الأبدي .

ثم بدأ يعزف على الكمان، وراقه النغم الشرير المندلع من الأوتار الحادة، وسرعان ما انخرط يحفر في داخله، مجترحا طريقا بربرية، وبعد هنيهة، التحقت به التيوس وتحلقت حوله، فيما يشبه مهرجانا غفيرا من الماعز.

لم يفهم ما حصل، ووقف مشدوها وقد جاءه الرعاة من كل حدب كي يستردوا تيوسهم، وأصابه حرج من ذلك.

في صباح اليوم الثالث، استيقظ ولف حول البحيرة، وهو يبحث عن شيء ما.

الشيء الذي كان يبحث عنه العازف هرمان، هو نوع من الجراد الكبير، حلم به ليلة البارحة.

عثر عليه يلتهم ورقة نبات بري أشبه بحشيشة السباع، وأخذه صوب العربة المنزلية، ووضعه على دفة كتاب تحت عنوان:

- ابتسامة الأسد.

ومن مؤخرة الجرادة اندلق صمغ، تلقفه العازف ودهن به قوس كمانه، ثم وضع الجرادة على العشب، وقال:

- شكرا عزيزتي الجرادة على صمغ القفزة المريية.

وعند الظهيرة جرب العزف على كمانه، وأبهره النغم المهول المتفجر عن أوتاره الحادة واستغرق عزفه زمنا وهو مغمض العينين، عندما فتحهما، اقشعر وأصابه الهلع عندما رأى أسدا يقف مسرنما قبالته وهو يرسم ابتسامة مرعبة.

بانصراف الأسد مع انتهاء هيرمان من العزف، سارع وقفز قفزة مريية إلى مقود السيارة وأدار المفتاح وأقلع توا، بسرعة خارقة، وغاب في دقائق معدودة عن الأنظار.

حكاية فتاة البحيرة

فتاة البحيرة، غجرية لم تفد إلى البحيرة من مكان أجنبي كما شخوص الحكايات السابقة، بل ولدت على ضفة البحيرة، على عشب بنهار قائظ، ونمت مثل نبتة ساحرة حتى بلغ عمرها الثلاث عشرة سنة، وغادرت البحيرة مع أبيها وأخيها بعد وفاة أمها التي قضت نحبها في مخاض ولادة أخ لها ثان.

كان لفتاة البحيرة صوت خرافي، جربت الغناء به مرة واحدة عندما كانت تغسل ملابس الأسرة على حجر الضفة ذات صباح، واكتشفت أن البحيرة تؤول إلى جليد.

أفزعها الأمر، وكاشفت أمها، فطلبت منها أمها ألا تخبر أحدا أبدا، كما أمرتها ألا تفتح فمها بالغناء أبدا مهما كان.

ومنذ تلك الحادثة وهي ممسكة عن الغناء.

بسفرها مع أسرتها ذات موسم ترحال شتائي إلى "أزغار"، افتقدت أخبارها.

سترجع فتاة البحيرة بعد عشرين سنة إلى البحيرة، لتزور قبر أمها، وتحل نزيلة في الفندق الصغير لأيام مع أخيها الذي صار عازف كمان شهير.

فتاة البحيرة هذه، تحولت إلى الغناء مع أخيها في مجموعته، مكتفية بإلقاء المواويل، وكانت تغني بنصف حنجرتها فقط، مدخرة قوة صوتها لزمن آت، أو ربما خشية حدوث شيء مفزع، فهي ما تزال تتذكر حادثة الصغر وتتذكر وصية أمها.

ستلتقي فتاة البحيرة فنانا أجنبيا ذات مهرجان متوسطي بمدينة ساحلية، وستثيره حدة صوتها وندرته، فيقترح عليها مشروع ألبوم مشترك.

لم يمض على مشروعهما إلا شهور حتى نشأ بينهما غرام وتزوجا في وقت وجيز.

ذات ظهيرة على البحيرة الأطلسية، كانت تتجول وزوجها الأجنبي وهي تعرّفه على مكان ولادتها الأول. سيجلسان على صخرة، وتصدح بموال فجأة، فيرعبها تحول البحيرة إلى جليد.

توقفت عن دلق الموال ونظرت إلى زوجها، فأفزعها أنها وجدته متسمرا في مكانه، وهو شبه متجمد، صفعته على خده، فاستفاق في حينه، وقال لها:

- غريب، كما لو كنت خارج الزمان والمكان.

نظرت إلى البحيرة وقد عادت إلى سابق حالها الطبيعي، وتذكرت وصية أمها من جديد، أمها التي صارت تأتيها في مناماتها وتصيح بها أن تتوقف عن الغناء.

وهكذا قررت التوقف عن الغناء، حتى دون أن تخبر زوجها عن السبب، وحده أخوها عازف الكمان من كان يعرف بهذا الأمر، وقد أسرَّت له بذلك في اليوم الذي قررت أن تهاجر وزوجها إلى أوروبا وتعيش معه هناك بمدينة صغيرة.

ستموت المسكينة كما حصل مع أمها، في مخاض ولادة ابنها، وسيجيء زوجها الأجنبي بتابوتها ذات مساء، وتدفن في المقبرة الصغيرة على الهضبة بشمال البحيرة.

لقد كان الغناء لعنة متوارثة في سلالة هذه الأسرة الغجرية، فأم فتاة البحيرة التي ماتت أثناء المخاض لم تعمل بوصية أمها أيضا، لأنها كانت تمتلك نفس الصوت الخرافي، وكان يحدث معها أشياء غريبة كلما غنت، مثل تجمد الأشياء، وهذا ما لم تلتزم به فتاة البحيرة أيضا، وخرقته عندما غنت مع أخيها ومع زوجها.

فكان حادث الموت أثناء الولادة يشبه ثمنا أو عقابا ما، وفق ما تردده ألسن الغجر، وذاكرة القبيلة المبددة.

...)

14

بقراءة الحكايات السبع، للمصائر الكارثية والغامضة، برقت في دمي رغبة العزف، حاولت مساوفة الرغبة وأجلتها ما استطعت إلى ذلك احتيالا مخمنا بضراوة متمتما:

ما الذي يجعلني مشدودا بتوتر إلى حكاية فتاة البحيرة؟!؟ هل لأن احتمالا زمرديا ظل يلوح لي بيده من بعيد في مسرح الارتياب، هو احتمال أن تكون لحكاية فتاة البحيرة علاقة غامضة بشكل من الأشكال بحكاية أمي المغربية. شيء غريب يحول بيني وبين التفكير بصدق الفرضية، مؤجلا الأمر إلى حين حضور صديقتي الأطلسية، معللا المسألة باستدلالين منطقيين هما: أولا أن أمي تدعى شامة، وليس فتاة البحيرة.

ثانيا أنّ أبي التقى أمي شامة على ضفة بحيرة كما اعترف لي ذات هذيان، وليس بمهرجان غنائي متوسطي.

هل يعقل أن يكون لأمي اسم ثان؟ تداركت ثم هجست.. "لم يسبق لأبي أن أخبرني بوجود أخ لأمي يعزف على الكمان، كما لم يخبرني أصلا بمشروع الألبوم المشترك بينهما، ولا أُخبرني بأن أمي غنت بيوم من الأيام في مهرجان أو مارست الغناء بشكل رسمي. أي نعم هو اعترف لي بأنها كانت تمتلك صوتا غنائيا نادرا، لكنه لم يتجاوز المكاشفة بحقيقة غنائها المنزلي إلى شيء آخر.

لماذا أصرّ الولد الملعون الذي دوّن الحكاية، على أن لا يُفصِحَ عن هوية الفنان الذي تزوج من فتاة البحيرة واكتفى بنعته بالأجنبي؟

غالبت جموح شكوكي إلى حين، وتلقفت الساكسفون. ثقلت شفتي التي فقدت الإحساس بها كما لو كانت مثلجة، ونفخت بتوجس، نويت عزف لحن الجاذبية للساكسفوني "كيني جي"، ثم وجدتني أرتجل لحنا غجريا آخر، تطوف بي صور الوجوه، وتطاردني على هضاب إغماضتي، وتتوعدني بمصير مريب...

(وحدها كانت المغنية الأمازيغية في غيبوبتي، تصدح بموال يعشوشب له جنوب كينونتي، كان مرط فستانها طويلا، أمسك به وأنا أركض خلفها، وهي تركض أمامي، وتقف على حافة، وكلما أمسكت بمرط فستانها تناسل واستطال أكثر من اللازم، وبدأت بسحب الفستان بمشقة،

وكلما سحبت استطال، واستغرق الوقت ساعات وأنا أحاول الوصول إليها مجهدا ألهث، بينما زوبعة ضارية تحول بيني وبين استئناف المسار، وبرغم سطوة الزوبعة أحكمت الإمساك بذيل الفستان وعاركت الرياح العاتية ووصلت أخيرا إلى المرأة "فتاة البحيرة"، وبمجرد أن لمست ساقها سقطت من الحافة...)

عندها تحجرت أصابعي على مكابس الساكسفون، وسقطت ألهث، منهك القوى، وغشاني النوم لساعات.

استفقت بعدها على تخوم الفجر وجملة يلثغ بها لساني، حاولت ترتيبها كما ينبغي، ثم رددتها مرات إلى أن استقرت على هذه الحال: – حكايات البحيرة السبع.

كان هذا عنوان اللحن الرابع، سارعت إلى تدوينه، ونهضت مغتبطا بندواة الصحوة البكر.

استرعى انتباهي نعيق الغراب بتلك الساعات، وهرعت إلى عتبة الخيمة وشاهدته يتقدم صوب سماء البحيرة يوقع دوراته الملحمية الثلاث، ويغادر المشهد بسطوة الملوك، وحيث كنت ألتفت للرجوع إلى بطن الخيمة، لمحت جسما منبطحا على الضفة برأس البحيرة جنوبا، وارتديت حذائي الرياضي وهرعت مخافة أن تكون جثة، وهناك صدمني اكتشاف هوية الجسد الملقى على الساحل، كان الصياد الأشقر، ووضعت يدي على قلبه واستشعرت نبضه، وقمت بحمله وسارعت إلى خيمتي الصغيرة، وقدمت

له بعض الإسعافات، وجعلته يسترخي في فراشي، وحين بدأ يسترجع أنفاسه، همس:

- الأوغاد، كادوا يزهقون روحي.

طلبت منه أن يصمت حتى يستعيد عافيته بالكامل، وغليت له بعض الحليب وقدمته له مع بعض السكريات.

شرب الكأس واستفاق، ثم نهض في الحين يثب وهو يقول:

- كانت ضربة غادرة على خلفية رأسي.

وضع يده على خلفية رأسه وجس انتفاخا مع دم متجمد هناك وقال لي:

- عليّ أن أسارع إلى المدينة وأسجل محضرا.

- مهلا.

قلت له، وأنا أستفسره عما حدث.

عندها قال:

- لابأس، الحكاية، هي أنني كنت أرصد الأوغاد الثلاثة ليلة البارحة، بعد أن لاحظت حركة غير عادية، وبدا لي أنهم يدبرون لشيء غريب، واتضح لي هذا بعد قدوم شاحنة صوب الشاطئ الجنوبي للبحيرة، ولحظتها تقدم الزورق نحو الشاحنة وأفرغ حمولة ما، سارعت بالنزول

إلى المكان، ودنوت من صخرة وبدأت أتلصص على ما يفعلون، رجع الزورق من جديد إلى وسط البحيرة واستغرق الأمر نصف ساعة، وعاود التقدم إلى الشاحنة على الساحل، كانوا يحملون حجرا ثقيلا لامعا في حدود وزن 150 كيلوغرام، وما أن أفرغوا الحمولة من جديد، حتى سارعوا بالزورق إلى منطقة شمالية في البحيرة واستغرق الوقت ما بين 20 دقيقة و30 من جديد، ثم عاد الزورق إلى الشاحنة، وفيه قطعة حجر لامعة بوزن 100 كيلوغرام وانطلق الزورق كرة ثالثة و لم يستغرق وقتا طويلا وأقفلوا راجعين يحملون حجرا آخر بحجم 50 كيلوغرام. عندها تأكد لي ما كنت أحاول أن أفهمه منذ جاء هؤلاء الأوغاد إلى البحيرة، فالجسم الغريب الذي تساقط من السماء، كان حجرا ثمينا، من المرجح أن يكون قطعا متساقطة من كوكب المريخ كما قرأت بجريدة علمية، ترصد سقوط هذا الحجر في بقاع العالم وما قرأته كان حول سقوط حجر بالأطلس المتوسط دون تحديد المكان بالضبط.

هرولت إليهم لحظتها وأنا أسدد إليهم حزمة ضوء بطاريتي، وأنا أقول:

– انكشف أمركم أيها الأوغاد.

أشهرت سكيني وأنا أصرخ فيهم بالتراجع إلى الخلف، و لم أشعر بواحد منهم تسلل من الظلمة وقفز علي راطما إياي على الأرض ثم ضربني عندها بهراوته الشبيهة بعصا بيسبول وفقدت وعيي.

صفّرت بشفتي وأشعلت السيجارة ثم قلت:

– من كان يتوقع هذا الأمر، حجر من المريخ يسقط ببحيرة أكلمام أزكزا، أوغاد.

رشفت من السيجارة وأردفت:

– أنت محظوظ لأنهم لم يلقوا بك في المياه، وإلا كنت الآن في عداد الموتى.

امتدت يده إلى سيجارتي وتلقفها، ثم رشف منها نفسا عميقا وقال:

– سأسارع بتسجيل المحضر عند الشرطة في المدينة وإن كنت أؤمن بلاجدوى ذلك.

– جيد، لتفعل ذلك بأسرع ما يكون.

انطلق الصياد الأشقر في الحين، وشيعته بنظرتي حتى غاب عن الرؤية.

بعدها بدقائق معدودة، قصدت عربة فيرجينيا المنزلية، ووجدتها مقفلة، ناديتها مرات، واتضح لي أنها غائبة، فماج رأسي بارتياب ماجن وتساءلت وأنا أخطو في طريقي صوب الخيمة البدوية على الهضبة:

أيعقل أن تكون فيرجينيا متواطئة مع هيوز وعصابته؟ أتكون اللؤلؤة السوداء مجرد حكاية رومانسية، ذريعة، أو مسرحية ساخرة كنت أول ضحاياها؟، أليس رمز اللؤلؤة هو حجر المريخ عمليا؟ أأكون ساذجا إلى

هذا الحد الذي انطلت علي كذبتها الطريفة؟ أيكون غيابها الطارئ خطة مدبرة، ممهدة لليلة سرقة الحجر المريخي وتهريبه؟

ثم وجدتني أهتف مسحورا: إن كانت حكاية هذا الحجر المريخي صحيحة، فهل من المصادفة أيضا أن يسقط هذا الحجر في هذه البحيرة بالذات؟ ما تفسير تكرار سقوطه مرات في البحيرة بالأحرى؟

على الطاولة الخشبية بمحاذاة الخيمة البدوية، أشعلت سيجارة ثالثة، وأنا منهوب البال، تتناسل مني أسئلة الشك اللايقين لها، وبرغم كل موجة الارتياب، كان هناك إحساس ثقة ما يقبع خلف كل التفاصيل الجارفة، إحساس ببراءة فيرجينيا، والخوف على غيابها الطارئ واللاّمفهوم.

إنه اليوم السادس لي في البحيرة، ذكرت نفسي، وقد نسيت وطء مدار الزمن تماما. جاء الكلب المبقّع بالأصفر والأبيض والأسود وجلس قبالتي، وسددت إليه نظراتي المثخنة، ورأيت في عينيه المفجوعتين:

(رأيت الرجل العجوز زوج جارتي، سيدة الكلب الأبيض، كان يمشي على رجليه معافى تماما، وهو يسقي ورود حديقتي، والكلب الأبيض يركض مرحا ويلف قريبا منه، فيما نوافذ المنزل مفتوحة تدخلها الرياح، وتضيئها الشمس، وعلى السطح القرميدي يجلس غراب يرصد المكان ملتزما بالصمت، وبعد أن ينتهي من سقي الورود يتوجه صوب البوابة ويلج المنزل، ويجلس إلى بيانو أبي ويشرع في العزف، كان يردد المقطع الأول من مؤلفي الموسيقي الذي ارتجلته في البداية: دورات الغراب

الثلاث. وبدأت قرميدة في السطح بالتقلب وتلتها أخرى وتماوجت جميعها بالتتابع وقفز الغراب في مكانه، ثم حلق ورسم ثلاث دورات في سماء البلدة "رانس" وحلق بعيدا مندلعا بشحاج مفزع، وبمغادرة الغراب رجع السكون إلى قرميد السطح، وفجأة احمرت ورود الحديقة واصفرت واستفحل نموها وتفاقم وازمخر وصار تناسلها إلى أعلى مثل سور عال، بعد انتهائه من المقطع الأول، خرج إلى الحديقة، وشرع في سقي شجرة البرتقال التي لم تثمر منذ توفي زارعها: جدي عازف الكمان. ورجع العجوز إلى البيانو وعاود العزف، وكان يعزف المقطع الثاني من مؤلفي الموسيقي: ساحل اللؤلؤة السوداء. ثم خرج وتأمل السماء ورجع إلى البيانو وعزف المقطع الثالث: أوديسا بجع الشمال. وعندها كانت أسراب البجع تتطاير في سماء البلدة وتدثرها بياضا، وفجأة أزهرت شجرة البرتقال وأثمرت وسرعان ما تضخم حجمها وتفاقم ارتفاعها إلى أن صارت عملاقة. أنهى العجوز العزف وخرج إلى الحديقة وبدأ بسقي حوض الطماطم الصغير، ثم عاود الرجوع إلى البهو وشرع في العزف كرة أخرى، وكان يعزف المقطع الرابع من مؤلفي الموسيقي: حكايات البحيرة السبع. واندلقت مدخنة المنزل بدخان يشبه سخام قطار من الفحم الحجري، وكان ما تدلقه المدخنة دوائر، وفي كل دائرة يلوح وجه من وجوه معرض الفندق، وفجأة أثمر حوض الطماطم، واحمرت أكثر من اللازم، وطفقت تنتفخ وتكبر ويتفاقم شكلها إلى أن صارت مثل ألغام ضخمة في حقل مريب. انتهى العجوز من العزف والتفت فوجد جمهرة من الناس تتحلق حول

البيت وفي الحديقة وهم يصفقون لعزفه الساحر الذي سمعته كل البلدة الصغيرة.

حينما انتبه وجد أن كل شيء أصبح عملاقا: الورد والبرتقال والطماطم، والمنزل نفسه وبيته وكل منازل وأشجار البلدة، فيما بدا هو والكلب الأبيض والجمهرة المتحلقة حوله كأقزام ضئيلة داخل تلك الغابة السحرية.)

أيقظني صوت الصبية ذات الثلاث عشرة سنة وهي تصرف الكلب قائلة:

- مشي، مشي.

قفزت في مكاني، وتوتر جسدي، ثم طفقت أفرك عيني وأنا أسترجع الرؤيا السريالية للحلم داخل عيني الكلب الغريب.

- أي كلب مسحور هذا؟

تساءلت، وهل يعقل ما بت أراه في عينيه الشيطانيتين.

جاءتني الصبية بالشاي، وشكرت لها حفاوة الفعل.

صحت بها:

- ألا توجد مدرسة هنا؟

ضحكت وقالت:

– أقرب مدرسة في المنطقة تبعد بمئة كلمتر.

دون أن أستفسرها، تألمت لجريمة عدم تمكنها من التعلم، وبدا لي واضحا مأساتها كطفلة تنحدر من سلالة غجرية، اختاروا عيش الجبال المنسية والأمكنة المعزولة عن العالم.

سألتها:

– ماذا تحلمين أن تصيري بالمستقبل لو تعلمت؟

ابتسمت وشاعت الزرقة اللؤلؤية من عينيها وهي تقول:

– طبيبة للنساء.

أثارني حلمها الجميل، ونبست:

– وماذا سيصير أخوك لو تعلم؟

– أخي يود أن يصير عازف كمنجة، لأن حلمه بأن يصير معلما لا يمكن أن يتحقق، أعني فات أوانه.

– ولماذا لا يمكن أن يتحقق؟

– وأينها المدرسة يا سيدي حتى يتحقق، وحتى لو كانت المدرسة مكان ذلك الفندق، فنحن لم نخلق لها، خلقنا للرعي والشقاء الأبدي لا غير.

لفظت الكلام بحزن غائر وهي تتحدث كما لو كانت امرأة في

الأربعين، ولاحت أمها من خلف الخيمة زاجرة إياها بعدم ازعاج الزوار وطلبت منها بأن تسعفها بسطل الماء.

رقصة اللوثيان

15

حل المساء الرصاصي، وكانت له رائحة احتراق الزعتر، لم يظهر أثر لفيرجينيا، وظل غيابها لغزا عالقا في ذهني، وقد عزز من حدة الريبة والهلع فقدان الفتى العشريني.

عرج عليّ الصياد الأشقر مع انسدال الليل، وجلسنا على الصخرة نرشف من زجاجة نبيذ جلبها من المدينة وقال:

- كنت أعرف أن لاجدوى من تسجيل المحضر.

لفظها بيأس.

- كيف لا جدوى وقد قمت بما يجب عليك كمواطن نبيل.

- مواطن!

نبسها بسخرية وقال:

- مواطن مغبون بوطنية وطنه.

أشعلت سيجارة وسألته:

- ماذا تعني بذلك؟

أشعل سيجارة هو الآخر، ورشف بمرارة من كأسه وقال:

- لقد غاب عن سذاجتي، أن السلطة متواطئة مع الأوغاد.

- وكيف عرفت بذلك؟

قلت له وأنا أنفث الدخان بصوت وثير.

- من طريقة تسجيل المحضر ونبرة السخرية التي شملوني بعنايتها.

أجاب وهو يصب لي كأسا ثانية.

قلت له:

- طيب، هناك أشكال أخرى لإثارة الموضوع وفضحه ولايمكن أن يقتصر الأمر على تسجيل محضر عند الشرطة.

دخن وشرب وقال:

- مثل ماذا؟

- أن تكتب مقالا وتنشره في جريدة كأقل شيء.

- فكرة ممتازة، وإن كان لاجدوى منها أيضا.

- كيف؟

- جرائدنا تشبه محضر الشرطة أيضا.

- في كل الأحوال لك أن تجرب.

- سأفعل حال الانتهاء من الظفر بامبراطور الغياهب.

قالها كما لو يغمز أنها الليلة المبتغاة لذلك، إلا أنني رجعت للموضوع بحدة وسألته:

- هل تظن أن فيرجينيا متواطئة مع الأوغاد؟

رشف من سيجارته وضحك ثم رد قائلا:

- إن ظل غيابها أبديا ومعلقا، فهي متواطئة مئة بالمئة، وإن ظهرت فجأة، فعندها يمكن الاعتقاد بنسبة ضئيلة جدا من براءتها.

فكرت بكلامه وارتجف داخلي وسألته:

- هل تظن بأنها ستظهر فجأة؟

- عندي أمل بحصول ذلك.

تردد صدى جوابه الأخير في ذهني طويلا، وشعرت به كما لو قال ذلك من أجل أن يجبر خاطري أو يرضيني لا غير.

انتهينا من الزجاجة، وجنح خيالي صوب فيرجينيا، بينما جنح خيال الصياد الأشقر صوب الزنجور المرقط.

- هيّء صنارتك أيها الساموراي الأشقر.

قلت له.

التفت دون أن يصدق وقال:

- تمزح!

وبيقين بهيج قلت له:

- بل أقول لك ما يجب أن تفعل والآن.

وسارعت إلى الخيمة وما أن تلقفت الساكسفون حتى هزني برق وكهربني، وتوردت شفتي كما لو كنت سأقبل شفاه فيرجينيا، وبدأت في النفخ على الساكسفون مقفلا إلى حيث يلقي الصياد الأشقر بخيط صنارته وقد أثبت طعما من صنف سمك "الغاردون" gardon. انتابتني رغبة عزف "تمثال الساكسفون" لـ"أسوني رولينز" وألفيتني أنخرط في عزف مرتجل تماما، وأنا أغطس في إغماضتي، وأحفر في صخر داخلي:

(أول ما رأيت - على سبيل التخييل - عند كبسي على المفتاح الأول، فراشة تحلق من بين يدي الصبية ذات الثلاث عشرة سنة، وتتطاير إلى أن

تحط على بطن أمها المنفوخة ويندلع من بطن الأم صراخ ولد حاد، ثم تحلق من جديد وتتطاير إلى أن ترسو على كمنجة الطفل صاحب العشر سنوات ويندلع من الكمنجة نغم فواح وإن كان صريرا مزعجا، ولا تلبث تحلق كرة أخرى وتتطاير وتحط على الفندق الصغير، ويتحول الفندق الصغير بقدرة قادر إلى مدرسة يمرح فيها أطفال الغجر، وتحلق متطايرة صوب عربة فيرجينيا المنزلية وتحط فوقها، وتتحول العربة إلى حصان مرقط، ويصدر عن الحصان صهيل صارخ ويقلع راكضا باتجاه البحيرة، ويغطس في البحيرة ويغيب، وتتحول البحيرة إلى جليد، أو تتحجر بالأحرى. وعندها تنقشع شمس بيضاء، وتضيء المكان بشكل حليبيّ، وتتطاير الفراشة صوب الجبل الساحر، وتلج الشق الصخري المريب، وبمجرد أن تغيب في جوف الصخرة المشقوقة، تندلع الغربان، غفيرة، تحلق وهي تشجح وتندلع بنعيق صاعق، يملأ المشهد زعيقا ويصمّ آذان الأبدية، حجافل غربان، تتناسل وتتفاقم وتستفحل وتغطي المشهد كله: البحيرة والجبل والغابة والوجود.)

غبت طويلا في رؤيا عزفي للمقطع الجديد من مؤلّفي الموسيقي، و لم أستيقظ إلا على صفعات الصياد الأشقر على خدي:

- فعلتها أيها الساحر.

كان مغمى عليّ، واستيقظت من غيابتي، وأنا مستلق على ظهري فوق الصخرة وفي يدي ما أزال أمسك بالسكسفون، وأول ما فتحت عليه

عيني، مشهد الزنجور المرقط، وهو يحتضر ما يزال على الضفة، و لم أصدق ما أراه.

سمكة وحشية بوزن 150 كيلوغرام، وطول يقدر بمتر و90 سنتيمتر، بوجه بهلواني، يرسم ضحكة مريبة، وبلون مرقّط يشبه الفهد تماما، بين الأصفر والأبيض والأسود مع زعانف برتقالية وبطن شبه حمراء.

زنجور خرافي بل هو اللوثيان نفسه، لوثيان لم يخطر حتى على هذيان أحلامي، وطفق الصياد يقفز في مكانه وهو يقبل رأسي ويقول بابتهاج طفولي صاعق:

– ما كنت لأفعل، لولا عزفك الذي روضه بشراسة وجعله يسقط في الفخ.

مصعوقا ما أزال كنت أتمتم:

– رقصة اللوثيان.

وكان بدون شك عنوانا للمقطع الخامس المرتّجل والنهائي من مؤلفي الموسيقي الذي اخترت له عنوان: موسم صيد الزنجور.

نهضت بصعوبة منهك القوى والفجر على الأبواب، ووجدت الصياد الأشقر قد جنّ جنونه وهو يركض صوب خيمته على الضفة الأخرى، ومن خيمته خرج راكضا دون أن يلتفت إليّ وهو يعدو نحو الجبل السحري ويتسلقه ثم يغيب في سواد غابته الداكنة.

عندها فكرت في إرجاع الزنجور إلى المياه، وحاولت دفعه باتجاه المياه، وكان ما يزال في عز الاحتضار، دفعته بقوة ومشقة وتطلّب مني الأمر دقائق عصيبة وتمكنت من زحزحته صوب مملكته، فانتفض ما أن لامسته المياه، وقفز كما لو يرقص، وغطس ثم غاب في غياهب القعر. لم أحتمل المشهد وندّت عيني بدموع، ثم أرعبني ما لمحته بعدئذ عند الضفة الشمالية، كانت عربة فيرجينيا المنزلية طافية على المياه وهي تغرق، وركضت بكل ما أوتيت من يقظة وقوة، ووصلت بعد فوات الأوان، لأن العربة غرقت بالكامل، وبالرغم من ذلك غطست في المياه، ونزلت إلى حيث استقرت في القعر، وامتنع علي الدخول إلى العربة، لأن جهة الباب والنافذة كانت أسفل، وقد ارتكنت العربة على تلك الناحية بالذات، وصعدت إلى فوق وأنا أصرخ، والتحق الفندقي والصياد الأسمر والآخر القصير، وغطسوا بدورهم، وخرجوا يلهثون قائلين: فات الأوان.

III

16

عند العاشرة صباحا، حضر رجال الدرك، ومعهم فريق وشاحنة لانتشال العربة من المياه، واستغرق الأمر ساعة. تمّ استخراج العربة المنزلية بواسطة رافعة، وكانت جمهرة قليلة من البدو تتحلق بفضول مفزع حول الضفة، وبفتح باب العربة، وجودها فارغة إلا من أثاثها، وهذا ما أذكى الغرابة والارتياب، لم تكن شقرائي هناك، وهذا ما جعل قلبي يرجف بصلاة شبه بهيجة، ولكي ينتهوا من تسجيل المحضر الأولي، أمر "لاجودان" الفريق بالغوص حيث سقطت العربة، وغطس ثلاثة رجال ومسحوا قعر الضفة وخرجوا، مؤكدين عدم وجود أي جثة بالأسفل. انتهيت من تسجيل شهادتي وأقوالي وانزويت منشطرا أفكر في لغز الحادثة. كيف تحركت العربة ومن دفعها باتجاه المياه؟ هل يعقل أن تكون فيرجينيا وراء الفعل؟

من هو الشخص الذي فعلها حتى يثير المزيد من الانتباه، ويضفي الهلع والرعب على مناخ المكان؟ ثم غياب فيرجينيا الطارئ هذا والغامض، هل يعقل أن يكون بتدبير منها أم هي ضحية كمين؟

كل تلك الحوادث المبهمة، جعلتني متخما بأسبوع غرائبي، وفي الحين، انتابني شعور حقيق بمغادرة المكان، وإن كانت هناك نغمة مفقودة تشدني إليه. ربما يكون تأخر صديقتي المغربية أيضا لغزا فكرت. وربما ألّمت بها لعنة ما، واختفت كما اختفى كل هؤلاء.

رتبت الأشياء في ذهني وامتنع علي ذلك، قلت بشكل هامس:

هل من معنى لوجودي هنا بعد صيد الزنجور المرقط والظفر بمؤلف موسيقي باذخ لم أضرب معه موعدا مسبقا؟

ربما يجدر بي أن أختفي أيضا كما اختفى فتى العشرين وفيرجينيا والصياد الأشقر.

في طريقي إلى خيمتي الصغيرة اعترضني صاحب النزل وقال لي بنبرة مريبة:

– عندي لك وديعة، فانتظرني دقيقة فقط.

قالها وسارع إلى الفندق ثم عاود الرجوع في الحين، كنت قد أشعلت سيجارة ورأسي يزهر بطنين غير محتمل.

مدني بمظروف كبير وقال لي:

– لم أشأ أن أعترف للدرك بأن فيرجينيا كانت ليلة البارحة هنا، وقد منحتني هذا المظروف وطلبت مني أن أسلمه لك.

صعقني ما قاله الفندقي لي وأمسكت بالمظروف كما لو أمسك بكتلة جمر، وهتفت له:

– شكرا.

وانطلقت صوب خيمتي الصغيرة.

فيرجينيا كانت هنا ليلة البارحة و لم تسأل عني؟ هل هذا دليل على أنها من دفع عربتها لتتخلص من آخر شيء عالق لها في المكان؟ ما جدوى أن تفعل ذلك أصلا؟ ولماذا لم تصحب معها عربتها الجميلة؟

اندلعت بهذه الأسئلة المؤرقة، وتحامتني الشكوك من كل جهة. دخنت سيجارتي بتوتر، وفتحت المظروف، ووجدت مخطوطا.

مع أوراق المخطوط، كانت هناك رسالة في ورقة وردية منعزلة، تلقفتها وقرأت:

(حبيبي

عازف الساكسفون الخرافي

ماذا عساي أخبرك بعد تلك الليلة الشهرزادية في قلب البحيرة العجيبة. يشبه الأمر بلوغ سدرة المنتهى عند المتصوف، ولذلك ما عدت أنا أنا. كأنني استنزفت ذاتي و لم يبق إلا ظلي أو شبحي. هكذا شعرتني عند تخوم

الفجر. وتمنيت لو كنت رياحا. لم أختر أن أغيب بهذه الطريقة الغريبة. كما لم يكن في نيتي خلق هذا التوتر الغامض عندك. كل ما في الأمر أنني نمت على طول اليوم بذلك النهار الذي أعقب ليلتنا الأسطورية. وقد كان منامي مزدهرا بشتى أصناف الأحلام والكوابيس، وأطرفها على الاطلاق: رأيت في منامي مجموعة قردة تدفع العربة المنزلية - وأنا بداخلها- نحو البحيرة فأغرق معها وتتحد كينونتي بعمق البحيرة الأبدي، وتلبس روح اللؤلؤة السوداء.

نداء هذه الأخيرة، كان يدبر لي هذه اللحظة القاتلة، أن أتربع عرش البحيرة على متن قارب سكران، مع طروادي مثلك، ويكون دليلنا العاتي، موسيقى تفتح الشعاب اللامرئية صوب أزليتنا المبهمة.

جنون ما بعده جنون، أن آتي إلى البحيرة، من أجل فكرة رومانسية، وأحاول تحقيق استحالتها. العثور على اللؤلؤة السوداء، حلم يعادل معنى حياتي. ويعادل الملاذ الجميل لكتابتي الشعرية. ربما هذا خيط من متاهة دبرها لي أبي في وثائقه اللعينة. وربما هذا قدر ساخر، دبرته لي رياح الخليج. تلك الرياح التي خلخلت أجراس أبي ومسّتني أيضا بلوثة هذيانها العتيق. ما أن تمازجت ورياح هذا الأطلس الشامخ، حتى أثمرت هذه الغرابة المذهلة.

وهنا بمجاورة اللؤلؤة اللعينة، قدر لي أخيرا أن أنجز شيئا غير الذي كنت عازما على انجازه، أعني كان أملي هو كتابة المادة الأولية للسيناريو، لنقل مشروع سيناريو حول اللؤلؤة السوداء وحكاية فارسة الخليج وإذا

بي وجدتني أنجز ما يشبه رواية قصيرة حول بحيرة متخيلة، وحول صيد الزنجور بالذات، لا أعلم كيف حصل الأمر، وكيف انزاحت كتابة سيناريو فيلم حول موضوع واضح إلى كتابة نقيضة لرواية حول موضوع مبهم. أتركها لك كوديعة، شرط أن تحرقها بعد قراءتك لها.

أعلم أنك ستستغرب للأمر، فأنا لا أكلفك بإخراجها، ولا التصرف فيها، بل أهديك إياها، لأنها تعنيك وحدك، ولا تعني شخصا آخر غيرك.

أقدم على هذا الأمر يا حبيبي، لأنني استشعرت نهايتي المبهمة، وخاصة بعد أن خدعني الغواص المأجور "هيوز "، الذي ضحك على براءتي، فقد جاء إلى المكان وفق سيناريو آخر، ولم يكن يمسح قعر البحيرة من أجل اللؤلؤة السوداء كما أوهمني، بل كان ينقب عن حجر سقط من المريخ، ويبدو أنه وجده مع عصابته وقد هربوه من البحيرة بالفعل.

لا علاقة لي بهذه الجريمة، ولم أختر هذا الغياب الذي يتربص بي. فلا تؤرق ذهنك باختفائي، سواء كنت ميتة أو مفقودة وراء الجبل السحري أو ضحية اختطاف ملتبس أو ربما منتحرة.

قلتها ذات مرة على سبيل المشاكسة:

من منا ستعزز صورته معرض الوجوه التي اختطفها الموت الغامض بمسرح البحيرة.

هي صورتي إذن يا صاح،

وأوديسا بجع الشمال، مفتاح حكايتي المبهمة.

فاذكرني أو العنّي بالأحرى كلما هسهست رياح بقربك

فثمة أنا.

أحبك.

فيرجينيا.)

انتهيت من قراءة الرسالة وعاودت تلاوتها بصوت عال مرات ومرات، ثم تلقفت أوراق المخطوطة، مخطوطة الرواية القصيرة، وصعقني كهرباء عنوانها، لقد كان هو نفسه عنوان مخطوطة رواية صديقة مراهقتي، الفرنسية المنتحرة، أي: (البيانو بيت الزنجور الأثير).

تلمست الأوراق بيد مرتعشة وشرعت ألتهمها بتلك الساعة الفاسقة، علني أعثر على مفتاح للمتاهة الشعواء في مرايا وجه فيرجينيا وأقترب من حقيقتها المدوية، حقيقة ما يجري من غموض لعين...

البيانو بيت الزنجور الأثير

الأحد

أي نعم هو صياد. ويهوى صيد البحيرات بالذات. لكن مجيئه هذه المرة إلى تلك البحيرة لم يكن لغاية الصيد وحدها. مجيئه لشيء مبتهج وشاهق. هو لقاء امرأة. ليس أي امرأة طبعا. امرأة استثنائية.

قليلون جدا هم الذين يعرفون بولعه الدامغ للصيد. ليس صيد أي سمك طبعا. إنه سمك استثنائي.

لم يشأ أن ينزل في الفندق العتيق، البيت التاريخي المنتصب على الضفة، وإن كانت تلك المرأة التي تواعد معها، ستقيم فيه. وفضل أن يشيد خيمته على الضفة المقابلة، حتى ينعم باستقلالية حميمة، وحرية أكيدة.

لا يعرف لماذا تأخرت المرأة. المرأة الاستثنائية طبعا. فقد حل صباحا عند العاشرة، وشيد خيمته ورتب أشياءه في ظرف ساعة، وظل يترقب ظهورها حتى ما بعد الظهيرة.

حتما ستأتي، ولن يستعجل الأمر.

فكر في أن يهدر الوقت بمحاولة صيد. وأجّل الأمر. فهناك ما يحول بينه وبين تلك الرغبة. للمزاج دخل بالضرورة. لكن الأمر أعمق من ذلك، ويتجاوز المسألة بكثير، أجل، الأمر يتعلق بطبيعة اليوم نفسه: الأحد.

الأحد ليس يوما جديرا بالصيد.

تلك حقيقة صغيرة لازمت شعوره على طول حياته فيما يتعلق بهذا اليوم، الأحد الذي ينفرد بطعم حزين وغريب وملتبس غير طعم الأيام الأخرى.

فمنذ صغره كان يهيمن عليه هذا الإحساس المريب.

الأحد: عطالة الفكر ومرتع الجنون.

ليس الحزن وحده ما يزدهر به لون هذا اليوم، بل إنه يستضمر الغبطة أيضا، غير أنها غبطة محكوم عليها منذ البداية بالتعكر، والتغضن. ولذلك، فالأحد، يوم شبيه بشاطئ للتناقضات، حيث الملتقى والمفترق في الآن ذاته.

لم يختر هذا اليوم لسفره، و لم يفطن لذلك، إلا بعد أن حل في المكان، ومهما يكن من أمر، فلا يحتاج الوضع إلى انطباع استياء، أو إبداء سوء طالع. بالعكس، فالأحد كان دائما بمثابة جزيرة معزولة في تقويم الزمن.

لم يسبق له أن زار المكان، وتلك معرفته الأولى به، وقد أتى إليه بمحض دعوة من المرأة.

المرأة أيضا، لم يسبق لها أن زارت المكان، وقد اقترحت البحيرة للقاء، كمحض فكرة مغرية، اقترحتها عليها صديقة لها، سبق لها أن زارت المكان، لأول مرة، حيث التقت رجلا مولعا بصيد البحيرات أيضا.

استرعى انتباهه طائر زمّج الماء الأعزل في سماء البحيرة، الذي حلق مرات فيما يشبه دوائر وغادر باتجاه الغابة القرمزية. غابة مضرجة بالكستناء، تكشف عن جبل شامخ يطل على المكان بريبة مدهشة.

يسمونه جبل السنونوات. والسنونوات لا تظهر إلا كنذير لحدوث شيء مفزع. كما قال له رجل أسود، دخن معه سيجارة على الضفة ظهيرة، وكان بصدد ركوب قارب كي يجدف إلى التخوم. الرجل الذي قدم نفسه كصائد فاشل، لأن وجوده في تلك المنطقة المنسية، هو لغرض الرسم لا غير.

الرسام، يوغل في البحيرة بقاربه الخشبي، والرجل يقفل راجعا إلى خيمته، محتفظا بهويته لنفسه.

كان قد اتفق مع المرأة على قضاء ثلاثة أيام على الأكثر. لذلك لم يحضر عتاده كله. أحضر صنارة بالتأكيد، و لم ينس كل عدة المخيم، لكنه، قرر هذه المرة ألا يحمل معه أي كتاب، واكتفى باصطحاب مذكرة صغيرة فقط.

مذكرة لتدوين الأشياء الطارئة التي يجد صعوبة في الاحتفاظ بها في ذاكرته. وإن كانت ذاكرته مشوشة، فقد حضره في الحين مع أول وطء للمكان، تلك الرواية القصيرة، التي قرأها من زمن، لشخص مريب يشبهه، حل على ضفة بحيرة من أجل صيد سمك الزنجور، وإن كان لا يحترف الصيد هو الآخر، فالأمر حدث بفضل مصادفة وتلك حكاية أخرى... الخ

حاول أن يتذكر كل التفاصيل، وبدا عليه أنه نساها، وترك أمرها جانبا.

في الضفة الأخرى، على شمال الفندق العتيق، تنتصب ثلاث عربات. الأولى لامرأة سمراء مع رجل أبيض قد يكون زوجها. والثانية لرجل أشقر يهوى الغوص. والثالثة لرجل قصير بنظارة سميكة، يكتب في دفتر على طول الوقت – ربما يكون باحثا، ينجز دراسة استطلاعية للمكان –.

الرسام الأسود الذي استعار القارب الخشبي من الرجل الأشقر أي الغواص، يستأجر غرفة بالفندق العتيق ولا يظهر إلا ظهيرة وما فوق.

في مطعم الفندق، تناول وجبة غذاء (سمك ترويت).

و قد أثارته لوحات الشخصيات الشهيرة التي زارت البحيرة وأقامت في الفندق. بعض هذه الشخصيات يعرفها تماما بشكل شخصي، ومنها ممثلة لعبت دور بطولة لفيلم هو كاتب قصته مع السيناريو. أجل، فالرجل كاتب سيناريو، ومجيئه إلى البحيرة، سببه الدامغ، أو غرضه بالأحرى، هو

لقاء امرأة. امرأة استثنائية، تمارس التمثيل أيضا أي ممثلة جديدة.

عند انتهائه من الوجبة، وقف على طاولته شاب في الأربعين، بعينين زرقاوين، شاحبتين، وقدم له نفسه:

- مرحبا بك، في نزل "الخالدون".

أثاره اسم النزل ورسم ابتسامة وهو ينبس:

- تشرفنا.

بدا له أن الشاب هو صاحب الفندق، هذا الذي أردف:

- أرجو أن يكون الأكل قد نال اعجابك.

- بلى، وجبة طيبة.

- ما من زائر يأكل في فندق "الخالدون" إلا وسينعم بيوم مدهش.

لم يعرف ما كان قصده، ونهض في الحين وقال:

- شكرا في كل الأحوال سيدي.

وعندما شرع في مغادرة الصالة، رشقه الشاب بجملة:

- أعتقد أننا نعرف بعضنا البعض، أليس كذلك؟

التفت الرجل عند العتبة وقال متفاجئا:

- لا أذكر أنني أعرفك، لكن من يدري.

وضع قدمه خارج النزل الذي بدا له أعتق مما ظنه، فهناك شق رفيع في الوسط يمتد من أعلى وينتهي عند البوابة. كان العصر قد صبغ المشهد بصفرته الفاقعة الشبيهة بزهرة عباد الشمس. ولاحظ أن مياه البحيرة قد صارت بلون أحمر. وسارع باتجاه الضفة، ودخن سيجارة وهو يمشي باتزان كي يلف حول البحيرة. رفع نظرته إلى السماء، ووجد أن غيومها قد ضرجت اللحظة، وانزاح لون الاصفرار، واستشرى لون الرماد واستأسد المكان.

سحنة الغابة ما عادت كستنائية، ولا قرمزية، بدت صديدا مستفحلا. وخيل له أن الصنوبرات تتمايل في مقدمة الغابة ويصدر عنها ما يشبه الهلوسة. ضحك لذلك. وواصل دورته، وتسلق بعض الصخور المترامية على الضفة كما لو كانت خرفانا متحجرة. خمن لو كان نحاتا لصنع منها قطيع ذئاب. في تلك الهنيهة شاهد الرجل الأشقر على القارب وسط البحيرة وهو يتأهب للغوص في المياه الثقيلة. على الهضبة لاحت له المرأة السمراء وهي تلتقط صورا بكاميرا لزمّج ماء أعزل، هو نفسه الزمّج الذي استرعى انتباهه ظهيرة، وفي آخر البحيرة غربا، كان الرجل القصير، صاحب النظارة السميكة يدخن على مقعد، وهو يكتب بشكل دافق...

قريبا من الرجل القصير، ألقى تحية، وسمع صدى غمغمة كإجابة، و لم يشأ أن يزعجه فاستأنف مشيه. غير أن الرجل القصير قال له:

– هل لون البحيرة أحمر، أم يخيل لي يا سيدي؟

عندها التفت إلى الرجل القصير وقال:

– بلى، حمراء، وهذا غريب.

– هنا، لا أنصحك بإبداء أي استغراب يا سيدي.

ابتسم وقال:

– تقصد أن هذا الأمر عادي في المكان.

– عليك تقبل الأمر كما هو، هنا. فالأشياء لا تحتمل غريب أو عادي هذه، هنا كل شيء هو هو وفقط.

بدت له سخرية ما في جوابه، واستأنف سيره وهو يقول له:

– حسنا، شكرا.

ولفّ تماما حول البحيرة إلى أن وصل خيمته مع غروب شفقي، يشبه جرحا مهولا في جسد امرأة جميلة للغاية.

فكر في زمج الماء الأعزل الذي حلق مرات في سماء البحيرة، ثم انطلق صوب الفندق بسرعة فائقة، وارتطم بزجاج نافذة في الغرفة العلوية للسطح وتكسرت النافذة وسمع لتشظي الزجاج صدى في تجاويف المكان.

– لماذا استهدف زمج الماء تلك الغرفة؟ من يسكن بتلك الغرفة المنعزلة؟

تساءل وهو يداعب مذكرته، وانتابته رغبة في الكتابة، فالنزل العتيق

المنتصب برية على الضفة، بإمكانه أن يتحول إلى فيلم رعب. ترك المذكرة جانبا، وقاوم فكرة السيناريو، ودخن،... ليتصدى لرغبة الذهاب إلى الفندق مجددا، أمسك بالمذكرة مرة أخرى، وطرد عن ذهنه كلام الرجل القصير، صاحب النظارة السميكة، كما بدد هاجس التفكير في صديقته الممثلة (الجديدة) التي لم تلتزم بالمجيء بذلك النهار. وطفق يخطط في المفكرة وهو يدخن، واستغرق تخطيطه وقتا طويلا ونام دون أن يشعر بذلك.

الإثنين

استيقظ على حفيف سنونوات غفيرة، تتطاير خفيضة فوق البحيرة وتكاد تحجب الرؤية.

تذكر الشيء المريب الذي يمكن أن يحدث، لظهورها المفزع. أوقد سيجارة، وتلقف المفكرة التي كان يخطط فيها ليلة البارحة، وفاجأه ما رآه، فقد رسم فتاة تعزف على بيانو بغرفة مكدسة بجماجم بشرية.

يبدو أن الرعب الخفي الذي يضمره المكان، وراء ما خططه في المذكرة، حسنا، أيتها الكوابيس اللذيذة. قال، ونهض يتأمل رقصة السنونوات المتوترة وانتابته غبطة للمشهد المريع. استمر تحليقها للحظات، ثم بدأت تنسحب مقفلة إلى جبلها الشاهق. وعندها لاح له شيء لا يصدق، فقد تحولت صفحة البحيرة إلى نيلوفر، نيلوفر يغطي كل مساحتها، وبدت

مثل قطعة مسحورة من فردوس عجيب، حيث زهرات بلون الأحمر والأسود والأبيض تستشري في كل بقاعها. على الضفة الأخرى، شاهد المرأة السمراء تركض، وهي تلتقط الصور في ذهول، بينما اكتفى مرافقها بتأمل المشهد من بعيد، قريبا من شجرة صنوبر.

غادر الخيمة، واتجه صوب الفندق، كي يسأل عن صديقته الممثلة الجديدة "سارة"، ورسم صاحب النزل علامة استغراب قبل أن يجيبه بالنفي.

أفطر الرجل في ركن الصالة، متحاشيا نظرة صاحب النزل، وشيعه هذا الأخير قائلا:

– البحيرة غاضبة من صياديها.

– مهلا، كيف غاضبة؟

سأله و لم يرشف من قهوته بعد.

– عندما تلبس البحيرة قبعتها، فتلك علامة على تبرمها من صيادي سمكها.

رشف من فنجانه وقال:

– تقصد أن العشب الذي يغلق البحيرة الآن ممكن أن يزول في أي لحظة؟

– سيزول عندما يروق مزاجها عزيزي.

قالها وصعد أدراج السلَّم صوب الطابق الأول.

تناول فطوره بسرعة، وجاءته نادلة عجوز، أنقدها ثمن الفطور وحاول أن يشكرها عندما قالت له:

– أرجو أن تروقك كوابيس البحيرة.

ابتسم ابتسامة غير كاملة وقال:

– لما تقولين عنها ذلك؟

– عفوا، ظننتك تعرف بأسطورة البحيرة.

– أسطوره!

– أنصحك بمغادرة المكان، وبأسرع ما يكون.

قالت له منذرة واختفت في قبو المطبخ.

طوى نصيحة المرأة العجوز بداخله كما تطوى ورقة مهملة، وفكر. هل عليه أن يطلع الرجل الأسود على تخطيط رسمه بالمفكرة؟ ثم سرعان ما نسي ذلك، وإن استغرب للأمر، فهو لم يرسم منذ زمن بعيد، وحتى هواية الرسم تلك ليست بهوايته.. فكيف حصل ذلك؟ ترك الأمر جانبا ولم يُولِه أيٍ أهمية. ربما سيحرق ذلك التخطيط ما إن يرجع للخيمة. أكثر من ذلكَ، فكر في أن يغادر المكان مساء، ليس امتثالا لنذير العجوز، بل لأن المرأة الاستثنائية (سارة) لم يظهر لها أثر، فهل تكون قد نقضت مواعدتها؟ هذا يستبعده تماما، سيقضي الليلة أيضا وينتظر للغد، قرر فجأة.

في طريقه إلى الضفة، صادف الرجل القصير صاعدا إلى الفندق.

- أغلقت البحيرة مرآتها. محظوظ هو من يعلم بما يحدث الآن في قيعانها.

قال له، دون أن يلقي تحية.

- ومن تظنه يستطيع استكناه قيعانها، العرافون أم الأنبياء؟

- تقصد الشعراء؟ الشعراء يا عزيزي.. الشعراء.

نبسها بشكل ثلاثي واستأنف مسيره صوب الفندق.

بدا له الرجل القصير مخبولا، ربما يكون شاعرا، فالأوراق لاتفارق يده، ونادرا ما يُرى وهو لا يكتب.

يبدو فكرة مغرية أيضا لمشروع سيناريو، فكر الرجل، لولا أنه في البحيرة من أجل امرأة. امرأة استثنائية. خمن وتابع سيره كيفما اتفق.

كانت الظهيرة قد حلت، وشمسها تلعب الغميضة بين المزنات الجامحة.

بادرته المرأة السمراء وهو يجلس على الصخرة:

- هلا سمحت لي بصورة أيها الشاعر الكبير؟

التفت متفاجئا بحضورها أولا، وبتهمة الشاعر الكبير ثانيا، وقال لها مبتسما:

– مهلا سيدتي، ربما شبهت لك بشخص.

– بلى، لم تشبه لي بشخص، أنت الشاعر الفلاني الكبير وهذه مناسبة عظيمة بالنسبة لي، هلا سمحت لي أن ألتقط لك صورة قريبا من هذه البحيرة العجيبة، بالتأكيد ستكون صورة لغلاف مجلتي وستكون سبقا صحافيا...

– عفوا، لست بشاعر سيدتي.

– آخ، منكم أيها الشعراء، تعدون لنا الطعم في أجمل الصنارات، ونأكله بغواية، ثم حين نسقط في فخكم، تتنكرون لهوسنا بكم.

– لا أعرف عما تتكلمين سيدتي، لكن صدقيني، الأمر ليس لعبة تنكر، ولا قناعا أنزعه عن وجهي، أنا لست بشاعر عزيزتي.

عندها تدنو منه، وتوقد سيجارة وتقول:

– لنفترض أنك لست شاعرا، حسنا، هل تسمح لي بالجلوس.

– تفضلي.

ترشف من سيجارتها وتقول:

– لم أصدق أول وهلة أنك هو، أنت تشبهه تماما، ومرافقي وصاحب النزل من أكدا لي أنك هو هو. لذلك تجرأت وجازفت بأن أقتحم عزلتك.

يضحك، يشعل سيجارة بدوره، ويقول:

– غريب، كيف لهما أن يؤكدا لك أمرا كهذا، إما أنهما يمزحان، أو أنهما واهمان.

بحركة من كتفيها، تهزهما وتخفضهما، دون أن تتكلم، ثم بعد صمت قصير تقول له:

– آسفة إن أزعجتك سيدي، كنت أود حقا لو أنك هو، ليس لصفقة مجلتي طبعا، بل لأنني سأسعد بذلك أولا.

رشف من سيجارته وتمتم:

– لا بأس سيدتي، حصل خير.

– لكن هل تعرف بشأن هذا الشاعر، أقصد هل سبق أن قرأت له.

– لم يسبق لي أن عرفت حتى باسمه.

– رأيتك البارحة تحمل مذكرة، قلت حتما، لن تكون إلا صانع أشعار.

– وهل من يحمل مذكرة، يكون بالضرورة صانع قصائد؟

– طبعا ليس بالضرورة، لكن هناك حدس قوي يقول ذلك. لنقل أن حدسي خاب بشأن ذلك.

– ربما لم يخب بشكل كامل صديقتي.

– أتود أن تقول بأنك...؟

– لا طبعا. أود أن أقول بأنني صديق للشعر بشكل من الأشكال، لأنني كاتب أيضا.

– كاتب؟ تكتب ماذا؟

– كاتب سيناريو.

– حقا؟ مدهش، وهل سبق لك أن كتبت سيناريو فيلم؟

– بلى، كتبت سيناريو فيلم طويل.

– هل لي أن أعرف عنوان هذا الفيلم؟

– طبعا، هو فيلم: صهيل الحصان المرقط.

– واو، يبدو العنوان مذهلا، لكن لم يسبق لي أن سمعت بالفيلم ولا شاهدته.

رشفت آخر سيجارتها، وقالت:

– يبدو أن حدسي لم يخب.

– كيف عزيزتي؟

– لا بد أن عندك بعض مفاتيح حكايتي.

رشف آخر سيجارته وبعجها تحت حذائه وقال:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد حكايتي مع الحصان المرقط.

يضحك، ويضم ركبتيه بقبضة يديه ويقول:

- حكاية؟

توقد السمراء سيجارة، وتتكئ على مرفقها الأيسر، ثم تنظر بعيدا إلى وسط البحيرة وتقول:

- أجل، حكاية ستبدو لك رومانسية، وستقول عني مجنونة، لكنها الحقيقة الصغيرة المجيدة، التي أتت بي إلى هنا.

- ظننتك، فوتوغرافية مولعة بالطيور والبحيرات.

قال لها، وابتسمت وردت في الحين:

- تلك ذريعة لوجودي هنا، فقط.

- كلنا هنا بمحض ذرائع.

- وما ذريعتك؟

- صيد الزنجور.

- جيد أننا نعترف لبعض بذلك ومن أول وهلة.

قالت وهي تغادر سفح الصخرة بعد أن لوح إليها الرجل الذي يرافقها،

وقال لهَا:

– حسنا، متى سأعرف بحكاية حصانك المرقط؟

– عندما أعرف بحكاية فيلمك أولا: صهيل الحصان المرقط.

– وهل هذا شرط؟

– ليس شرطا، كل شيء في أوانه صديقي.

قالتها مبتسمة، وهي تنسحب بخطى ثملة.

انسحب بدوره باتجاه خيمته، وعلى سفحها صادف الرجل الأسود، الرسام، وقال له هذا:

– لا بد أن مجزرة تقع الآن في الأسفل.

استغرب الرجل لقول الرسام وتساءل:

– مجزرة؟

– أجل، لابد أن يكون الزنجور المجنح قد أتى على نصف سمك البحيرة، بعد أن عمّدها النيلوفر.

– الزنجور المجنح؟

– أجل، ألم تسمع بحكاية الزنجور الضخم، الذي يعيث فسادا في البحيرة.

– لا لم أسمع بذلك أنا زائر جديد ولا علم لي بأي شيء حول المكان.

أخرج الرسام سيجارة، وأوقدها، ومنح الرجل واحدة وأوقدها له ثم جلس على عتبة خيمته وقال:

– لم يسبق لي أن رأيته، وعموما هذا ما يحكونه عنه، زنجور لا لون له، بمعنى أنه حربائي، يتشكل بلون النبات والحالة التي يكون عليها لون اللحظة، ويقال أن القمر عندما يتخذ وضعية التوازن مع أي كوكب يطوف في فلكه، يتشيطن هذا السمك، يصير لوثيانا وتنغلق البحيرة كما وضعها الآن، ويعبث هو بالسمك تنكيلا وقتلا، ولا يشفي غليله هذا، إذ ما إن تنفتح البحيرة من جديد، يتحول إلى طائر، أي يحلق من البحيرة صوب جهة غير معلومة.

يبتسم الرجل، ويقول للرسام:

– أسطورة جميلة.

– ليست أسطورة عزيزي، فالبحيرة مسرح للأشياء الغريبة، وسترى بأم عينيك ماذا سيحصل أمامك وحولك.

– لا أصدق مثل هذه الحكايات، وإن كانت جميلة، فانتاستيك...

– لست مطالبا بتصديقها بالتأكيد.

– ستتربص بانفتاح البحيرة لتشاهد طيران سمك الزنجور؟

– منذ أيام أتربص به، لأرسمه ومسرح البحيرة صديقي.

بعد أن يرشف ما تبقى من سيجارته يقول:

- متى سنجازف بصيده؟

ضحك الرجل وأطفأ سيجارته وقال للرسام الأسود:

- ومن أخبرك بأنني هنا من أجل صيد الزنجور؟

- عدّة صيدك؟

- لست بالصائد المعول عليه يا صديقي.

- لا بأس، سنحاول، ولنجرب.

قالها ونهض يمشي صوب الصخرة، وهناك نصب أعمدة رفيعة، وبدأ في تخطيط لوحة.

توسد كاتب السيناريو مفكرته، ونام.

استيقظ على إيقاع انكسار زجاجي، مع لحظة العصر، كان طائر زمج ماء ثان، يرتطم بنافذة غرفة سفلية بالفندق العتيق. تساءل لماذا تختار طيور الزمج هذه النوافذ بالذات كنقطة هدف انتحاريّ، هل يتعلق الأمر بانتحار حقيقة، أم أن هناك تفسير مغاير للحادثة، هل يعقل أن تتبدى لها لمعة الزجاج كصفحة مياه؟

بالتأكيد سيرجحون تفسير وجود لعنة ويؤسطرون الحكاية.

انطلق صوب الفندق، كي يأخذ وجبة غذائه المؤجلة، وهناك وجد صاحب النزل يأمر خادما بإصلاح النافذة، وهو يحمل الزمج في كيس، عندما شاهده، دنا وقال هامسا بدماثة:

– أرجو ألا يكون المشهد مزعجا لك، مرحبا بك في الداخل أيها الزائر الأثير.

– لا أبدا.

قال له كاتب السيناريو وهو يدلف إلى الداخل.

اختفى صاحب النزل، وجاءه النادل الشاب (صاحب العشرين سنة):

– ترويت سيدي؟

– أفضل، سمك "البيرش" perche إن كان متوفرا.

– متوفر، سيدي، حالا، قال وانصرف في الحين.

حضر بعد فترة وجيزة، وأثث مائدته بإكسسوارات الوجبة، وتمتم:

– حسنا فعلت إذ اخترت هذه الطاولة بالمقابل مع هذه اللوحة.

– تعني هذه الممثلة الجميلة.

– تماما، أعني هذه الأيقونة، أفضل ممثلة عندي على الإطلاق.

– حسنا، كيف تعرف هذه الممثلة، فعلى حد علمي لم تشخص إلا دور بطولة في فيلم واحد.

– أجل، فيلم صهيل الحصان المرقط، أعرفه، فيلم جيد وممتع.

ابتسم النادل الشاب وأردف في الحين:

– في الواقع، أذكر الممثلة فقط إسمها (هاجر) وعنوان الفيلم أي صهيل الحصان المرقط، ولا أتذكر مخرجه أو كاتب السيناريو.

لم يتوقع أن يعرف الولد بأمر الفيلم الذي كتب سيناريو قصته، و لم يصدق أنه معجب بالممثلة الراحلة (هاجر) التي لعبت دور البطولة. عندها طلب من الولد أن يجلس على الطاولة، وامتنع هذا قائلا:

– ليس من اللباقة أن أزعجك وأنت تتناول غذاءك، سأرجع عندما تنتهي، وندخن سيجارة معا.

قالها وانسحب بخفة، بينما علقت نظرته هو بوجه الممثلة "هاجر"

التي عشقها حد الوله، الممثلة التي أبدعت بشكل مثير في تشخيص دور فتاة الحصان المرقط، وقد كان على أهبة أن يكاشفها بحبه، بل كان من المفترض أن تجمعهما علاقة غرامية، لولا أن حالت حادثة موتها المؤسفة دون وقوع ذلك. لا أحد أراد أن يصدق، بأن الممثلة البديعة "هاجر" ماتت بتلك الطريقة المؤلمة. ماتت في حريق اندلع في بيتها الخشبي، والأسباب مجهولة. كثيرون شككوا في نهايتها، واعتبروها جريمة قتل مدبرة، والملف ما يزال غامضا بشأن ذلك.

كيف زارت البحيرة؟ مع من زارت البحيرة؟ في أي غرفة أقامت؟ كم قضت من أيام؟.. إلخ

أسئلة كثيرة اندلعت في رأسه، واحتفظ برباطة الجأش، متذكرا جملة المرأة السمراء:

– كل شيء في أوانه.

رجع صاحب النزل، وقال:

– شهية طيبة.

أوقد سيجارة وجلس على طاولة مجاورة وأردف:

– ها ظاهرة طيور زمّج الماء المسعورة، تعاود الظهور من جديد.

اكتفى بابتسامة، ورجع بكرسيه إلى الخلف، وقد مسح ثغره. بينما استمر صاحب النزل قائلا:

– اختفت الظاهرة من سنوات، وهاهي ذي تتكرر بداية من البارحة.

شعر به كما لو كان سيقول، بأن الظاهرة تكررت بمجيئه، ومد يده إلى كأس ماء وشربه بالكامل، ثم بحث في قميصه عن علبة سجائره، وأوقد واحدة، السيجارة بعد الأكل لها طعم فاكهة محرمة وقال لصاحب النزل مشاكسا:

– ستطبخ لحم زمج الماء؟

ابتسم صاحب النزل وقال:

– سأحنطه.

أثاره جوابه و لم يتيقن ما إذا كانت مزحة أم جدية وقال:

– مزحة؟

– بل حقيقة. لدي ورشة لها في القبو، ما يناهز العشرين زمّجا.

– هل يعني هذا انتقاما منها؟

– بل هو تشريف لها، ما من شيء يعبر وجود هذا النزل العتيد، إلا ويجب تخليده، فإسم "الخالدون" ليس مجرد شعار، أو يافطة إشهارية .

استحسن كاتب السيناريو غرابة صاحب النزل، وأثارته إجاباته الماكرة والمستفزة، ورشف من سيجارته وقال:

– لماذا تختار هذه الطيور الخرقاء، نزلك العتيق نقطة لانتحارها؟

ابتسم الفندقي ومج نفسا من سيجارته وقال:

– يختارون نزلي كما لو كان مطْهرا، يقدمون فيه أرواحهم قربانا للبحيرة عزيزي.

فاجأه الجواب، فرشف طويلا من سيجارته وبعجها في المنفضة وقال:

– لا أنكر اعجابي بنزلك هذا يا سيدي، فأقل ما يمكن القول عنه أنه تراث انساني.

انقشع بعض الحماس في وجه صاحب النزل وانطلق صوب خزانة، وأخرج زجاجة نبيذ أحمر، صب لنفسه كأسا، وصب لكاتب السيناريو واحدة قائلا:

– جيدة للهضم.

وأردف:

– بالتأكيد هو تحفة تاريخية، وسيكون هذا آخر موسم لاستئجار غرفه، سيكف على أن يبقى فندقا، وسأحوله إلى معلمة للزيارة بيوم الأحد فقط.

رشف كأسه بالكامل ونظر باتجاه البوابة حيث كانت العجوز واقفة وهي تشير له بالإقتراب، فتحرك باتجاهها، وطفقا يوشوشان، ثم التفت صاحب النزل وقال مشيعا:

– استمتع بوقتك، سأنجز أمرا، أراك فيما بعد.

بمغادرة صاحب النزل، دنت العجوز من كاتب السيناريو وقالت له:

– نصحتك أن تبتعد.

رشف من كأسه وقال:

– ما الخطب؟

– خطر يحدق بك.

قالت له هامسة. وقال:

– أي خطر؟

– خطر آنسة البحيرة.

قالتها هذه المرة محتكة بكتفه وهي تغادر الصالة، وبعدها لاح الولد.

بادر الولد قائلا:

– هل تفضل أن ندخن على المصطبة الخارجية.

– فكرة جيدة. قال كاتب السيناريو.

خرجا معا واقتعدا كرسيين على إفريز النزل وانتبه كاتب السيناريو إلى شيء طارئ جعله مندهشا وقال للولد:

– غريب، أين ذهب نيلوفر البحيرة.

ابتسم الولد وقال:

– تقصد أن البحيرة راق مزاجها أخيرا.

أوقد كاتب السيناريو سيجارة ورشف ما تبقى من كأسه وقال:

– وهل حلق سمك الكراكي المجنح؟

ضحك الولد واستطالت قهقهته ثم قال:

– منذ زمن لم يحلق الكراكي، فهذا يتوقف على عملية فلكية معقدة.

– أي عملية؟

– عملية تناسق القمر وكوكب الزهرة وأكبر صنوبرة معمرة مطلة على البحيرة، أي يتحدون في خط واحد، ضمن حساب فلكي يحدث مرات قليلة.

لم يتوقع كاتب السيناريو الجواب، وبدا مذهولا ومستثارا تماما. كل ما حدث حتى الآن يصلح لقصة فيلم مدهش، احتار وهو يفكر في تلك الوقائع الصغيرة والمفاجئة، خمن هل عليه أن يشكر صديقته "سارة" التي لم تظهر بعد على اقتراحها، أم يلعنها. فبقدر ما هي الأشياء مغرية ومثيرة بقدر ما هي لعينة وتنذر بتطورات غير محمودة العواقب.

تذكر لوحة الممثلة "هاجر"، ممثلة فيلمه الوحيد: صهيل الحصان المرقط. وسأل الولد:

– هل يمكن أن أعرف متى زارت الممثلة "هاجر" هذا الفندق؟

– وإن لم أكن ساعتئذ أشتغل في هذا النزل العتيق بشكل رسمي، فأذكر أنها زارته من ثلاث سنوات، ذات صيف، وقضت فيه ثلاثة أيام بالتمام والكمال. جاءته وحيدة، ويقال أنها كانت على موعد مع مخرج، هو من اقترح عليها عنوان المكان، وكان يعد لها مفاجأة، فيلم حول البحيرة. تأخر المخرج أكثر من اللازم عنها، و لم يكن ليفعل، فهي لم تعلم بموته في حادثة سير، داخل سيارته وهو في طريقه إلى البحيرة إلا بعد ثلاثة أيام. وزائر حل بالفندق هو من حمل الخبر الحزين والصادم معه، فجمعت حقيبتها توا وغادرت النزل.

– المخرج "آدم" الذي قضى نحبه في سيارة وهو خارج من أقرب مدينة، تلك التي تبعد عن البحيرة بـ 100 كلمتر، تقصد قضى نحبه وهو قادم إلى موعد الممثلة.

– أجل، تلك هي الحقيقة.

– وبعدها بثلاثة شهور ماتت الممثلة في حريق بمنزلها.

– تماما، المسكينة، كانت تستحق نهاية أجمل.

– أي مصادفات لعينة هذه؟!؟

ضرب الولد بيده على درابزين المصطبة وقال:

– نهاية لقيطة حرمتنا من فيلم ثان لهذه الأيقونة.

أوقد كاتب السيناريو سيجارة وقال للولد بحماس:

– في أي غرفة نزلت الممثلة هاجر؟

– الغرفة رقم 3 بالطابق الأول.

– هل بامكاني استئجار هذه الغرفة؟

– للأسف هي محفوظة لامرأة لم تأت بعد.

دخن كاتب السيناريو وانسحب قائلا:

– سعدت بلقائك، أراك لاحقا.

– حسنا سيدي، أراك لاحقا بخير، سأزورك من أجل شيء مهم.

– حسنا، مرحبا.

بمجرد أن انزاح النيلوفر عن صفحة البحيرة، نزل الصيادون العشرة، لمواصلة مسابقة صيد الزنجور، واصطفوا متفرقين على الضفاف يلقون بخيوط المناسفة صوب العمق، وكان أمامهم وقت وجيز لنهاية شوط اليوم وهو غروب الشمس.

ارتكن هو ظل شجرة صنوبر، وأخذ يتأمل المشهد بعين هائمة. خمن أنها الليلة الأخيرة له على ضفة البحيرة، واحتار في أمر صديقته الممثلة "سارة" التي لم تأت بعد.

المنطقة معزولة تماما عن العالم، ولا ينفع فيها لا هاتف ولا أي شكل

من أشكال التواصل مع الخارج. لذلك منّ النفس على أن تكون صديقته بخير، فبصيص من أمل يرتعش كذيل عظاية بداخله، ما يزال يعول على مجيئها.

مهلا... فكر وقال لنفسه، كيف سأرحل غدا وأنا لم تبتل صنارتي حتى في مياه البحيرة؟ كل تلك الرحلة الشاقة وسيترك المكان دون أن يظفر بصيد الزنجور؟

أي نعم، ليس بصائد محترف، وهو يزاول الصيد كهواية لا غير، لكن سيكون من العار أن يسافر دون أن ينازل وحش البحيرة: الزنجور المجنح.

ربما سينضم إلى فريق المسابقة غدا، وربما سيؤجل الأمر إلى يوم آخر، في كل الأحوال، فالمسابقة ستمتد لأسبوع، وإن كان مضطرم الشغف، ومحتدم اللهفة، فليس بمرء عجول، طبعا، فكل شيء في أوانه، كما تقول حكمة المرأة السمراء.

كان على وشك استوقاد سيجارة، عندما سمع ضجة، ورفع نظرته ولاح له تجمهر الصيادين فجأة، حول فرد منهم، يغرق في البحيرة ويختفي.

هرع صوب الجمهرة ورصدهم يسبحون خلفه، دون أن يعثروا له على أثر.

أحدهم أخبره عما حصل، فالرجل أصابت شوكة صنارته سمكا

ضخما، لابد أن يكون زنجورا أكيدا، وحين كان يسحب الخيط حدث ما لم يتوقعونه جميعا، إذ انطلق السمك المتوحش بسرعة خارقة، وجر معه الصياد إلى الداخل، المسكين كان مرتبكا، حاول ترك صنارته، لكن بكارتها علقت بثوبه، وأخذ يطفو على المياه كما لو يتزلج ثم اختفى بعدئذ وسط البحيرة.

ظل رفاقه يغوصون ويغطسون منقبين عنه حتى حدود ساعة متأخرة من الليل، والنتيجة هباء.

بتلك الليلة زاره ولد الفندق في خيمته على الضفة، وتقاسم معه زجاجة نبيذ.

ران حزن فقدان الصائد على السمر، ولهج لسان الولد بتفاصيل تعزز مشاهد الغرابة الملازمة للبحيرة.

– برأيك مالذي يكون وراء الحادثة؟ أعني أي سمك هذا؟

رشف الولد من سيجارته وتمتم:

– هنا يؤمنون بوجود وحش في البحيرة، وهناك أسر تقدم له قرابين، خرفان أو دجاج أو حتى بقر تصور. لا أظن أن هناك بحيرة في العالم، لا يغلف مناخها مثل هذا الجو الخرافي، أعني لكل بحيرة أسطورة، وغالبا تتوحد هذه الأساطير في وجود وحش، أو روح شريرة.

هذه هي الحادثة الثالثة التي أشاهدها في حياتي، وراء الأمر سمك

ضخم أؤكد لك، نوع من سمك الزنجور نفسه، من فصيلة الكراكيات ذات المناقير المنشارية، ويمكن أن يبلغ وزنه 150 كيلوغرام وأكثر.

رشف كاتب السيناريو كأسه ودخن وقال:

– يثيرني أنك تسبغ على الأمر فهما أقرب إلى المنطق، ولا تنجر وراء حكاية ميتافيزيقية.

ابتسم الولد وقال:

– ما أقوله يصعب أن يتقبله حتى المنطق، لكن هذا ما عاينته حتى الآن، و لم أجد له تفسيرا غير هذا.

– وماذا عن النيلوفر الذي يظهر فجأة ويغطي صفحة البحيرة.

نفث الولد دخان السيجارة وتمتم:

– تلك ظواهر طبيعية، تحتاج إلى دراسة علمية، المنطقة معزولة ومنسية، وحوادثها الغريبة لم يكتب عنها بعد حتى تلفت الأنظار.

دخن كاتب السيناريو وقال مشاكسا:

– واضح أن النزل محظوظ بهذه الحوادث الغامضة.

ابتسم الولد وقال:

– النزل نفسه مسيج بهذه الخرافات ومؤسطر.

– تعني أنه مسحور؟

– في البداية كنت أظن أن صاحب الفندق هو من يختلق هذه السيناريوهات حتى يروج لمشروعه ويستقطب الزبائن، واتضح لي فيما بعد أن أشياء تحدث في مسرح الفندق، غريبة بالفعل، ولا دخل للفندقي بها.

– أشياء مثل ماذا؟

– أشياء مثل، اللبلاب الذي يظهر فجأة وهو يلبس البناية، ثم يختفي في لحظات أخرى، أشياء مثل طيور زمج الماء التي ترتطم بنوافذه بين فترة وأخرى، أشياء مثل الرجة التي تسمع فيه ليلا، ويتمايل حتى تشعر بأنه سيسقط، أشياء مثل صفير الرياح التي تعربد في تجاويف بعض غرفه...

– مهلا، مهلا، كل هذا الجنون يزيّن هذا الفندق.

يبتسم الولد ويقول:

– الجنون، ها أنتذا نطقتها ووفرت علي مشقة الخطاب، أظن أن مس الجنون، هو ما يدخره النزل لبعض وجوهه وزواره بل وحتى مالكيه.

– ماذا تقصد بمالكيه؟

– أقصد أخت صاحب النزل، عازفة البيانو، التي لا تغادر الغرفة العلوية.

– تقصد أنها مجنونة؟

– تعاني من نوبات عصابية، مفزعة.

– وما سبب نوباتها؟

– أخوها يقول ورثت روح البيت الشريرة.

– رجعنا إلى الأرواح الشريرة؟

– أجل، للبناية العتيقة حكاية تاريخية، فالمنزل مشيد في القرن 17، وكان في عهده الأول سجنا للنساء الخائنات، الزانيات، فحاكم المنطقة هو من أمر ببنائه وكانت زوجته أول المعاقبات فيه، تلك التي يقال، خانته مع عبد له، وبعدئذ، صارت تزج النساء فيه من كل الأصقاع، يتم تجويعهن، حتى الموت. ويحرمن من الدفن، ويلقى بجثثهن إلى قعر البحيرة، في أكياس يوضع معهن حجر لكي يترسبن. بقدوم حاكم جديد، تم تطهير المكان، ورمم ليكون لائقا بنزهات أسرة الحاكم، التي اتخذته مقرا في أيام بعينها للصيد في الغابة، وبمجيء الاستعمار، تحول إلى مركز إقامة كبار الجنود، الذين خططوا للسيطرة على المنطقة. ثم امتلكته أسرة مقاومة بعد طرد الاستعمار، وأخذت تتوارثه، إلى أن صار في ملكية صاحب النزل الآن، وبهذا الشكل.

وهكذا، فأرواح النساء، اللواتي اعتقلن فيه، ما تزال تسكنه كما هو رائج عند من يعرف بحكايته التاريخية.

– وهل تصدق هذا الأمر؟

- ما الذي يمنع تصديق ذلك، إن كان هذا هو تاريخه الحقيقي. أصدق الأمر فعلا على سبيل المجاز.

ابتسم كاتب السيناريو، وقد راقته كلمة مجاز هذه، ورسم علامة اعجاب بثقافة الولد الملفتة، ثم قال:

- وماذا عن عازفة البيانو؟

- أخت صاحب النزل، تعزف البيانو بشكل خارق منذ كانت طفلة، فهي درست الموسيقى في بلد شرق أوروبي، وجاءت لتقيم مع أخيها بسن العشرين، وكان حدثا كبيرا أن أهداها آلة بيانو أغرتها بالمكوث معه. كل الأمور بدأت عادية، إلى أن تغيرت أحوالها، وصارت ترى أشباحا، وتصرخ ليلا، وتلم بها حمى، وأمست تخرج ليلا وهي مسرنمة، ووو...

توقف الولد لحظة، صب كأسا ورشف ثم واصل:

- لفتاة البيانو قصة عشق مثيرة مع زائر للبحيرة من سنوات، هذا الزائر كان عازفا ماهرا على القيثارة، أعجبت به منذ حل بالمكان. بدأت حكايتهما ذات مساء عندما أنقذ طفلة من الغرق، وكانت الطفلة وحيدة زوجة دبلوماسي مقيمة بالنزل العتيق، وقد أعدوا له عشاء بتلك الليلة كرد جميل، وكانت سهرة لبعثة من رجال الأعمال، عزفت فيها أخت صاحب النزل لشوبان وشومان وباخ.

لم يصدق عازف القيثارة مهارتها الموسيقية، وحدث أن كان يعزف هو الآخر ذات ليلة في خيمته، عندما فاجأته بحضورها، وأطرت على طريقة

غنائه وعزفه، فقد كان مولعا بأغاني الكونتري، ونشأت بينهما علاقة مجنونة، أقلقت صاحب النزل الذي تصدى لها مرات وكرات، وبرغم كل مضايقاته لها، استمرت في علاقتها به، إلى أن وجد ذات صباح ميتا، وجثته طافية في البحيرة. كيف يغرق وقد كان أمهر سباح على الضفة؟

أسئلة كثيرة تبخرت دون جواب، كما أن الشبهة ظلت لصيقة بصاحب النزل، الذي لم تستطع الشرطة إثبات شيء ضده. جن جنون الفتاة وأضربت عن كل شيء، بما في ذلك العزف على البيانو.

وظلت صامتة لزمن، وهي معتكفة بغرفتها العلوية مثل شبح. ثم حدث أن خرجت عن صمتها بعدئذ، وصارت تعزف على البيانو بشكل فوق عادي، وصار نغمها يندلع من النزل ويرتد صداه المتماوج في البحيرة والغابة وماوراء الجبل.

عزفها هذا، وإن كان شيئا خارقا ودامغ الجمال، صار مزعجا لصاحب النزل، ليس لأنها ملتزمة بالعزف على طول الوقت، فيما يشبه حالة مرضية، بل لأن عزفها تغول وصار شيطانيا، فقد أزهر شق في النزل من أعلى وبدأ بالامتداد صوب البوابة، وكلما عزفت تعمق ذلك، وبرغم ترميمه، ظل كما هو، يرجع لوضعه كلما باشرت عزفها، أكثر من ذلك، صارت طيور الغابة، تحلق بشكل غفير وهي تهجم على النزل كلما تراقصت أناملها على البيانو، وربما هذا هو السبب الذي يقف وراء ظهور طيور زمج الماء حتى الآن مرتطمة بنوافذ الفندق بين الحين والحين، لعله صدى عزف تلك السنوات ما يزال يتردد في فجوات المكان. تفاقمت الأشياء، وما إن تعزف

على البيانو إلا وتحدث كارثة: حريق في الغابة، موت جماعي للسمك، عواصف ببروق وبرد ماحقة، هياج غريب للموج في البحيرة...الخ.

فما كان لصاحب النزل إلا أن منعها من العزف بل وسلب منها البيانو وأخفاه في مكان مجهول، أظنه رماه ذات ليلة إلى قعر البحيرة وهذا مجرد تخمين، وهنا بدأت النوبات العصبية تعصف بها، وحاول جلب أطباء لها، وفشلوا جميعا في تشخيص مرضها.

رشف كاتب السيناريو حثالة كأسه، ودخن، كان قد تذكر رسم عازفة البيانو في مفكرته، وتساءل إن كان ما خططه نبوءة ما أو حدسا بحقيقة مجاورة له.

نهض الولد عندها مودعا، ورمى بمذكرة صغيرة لكاتب السيناريو، قائلا:

– هل يمكن أن تحتفظ لي بهذه الوديعة حتى أرجع.

أمسكها كاتب السيناريو وتلمسها قائلا:

– ممكن طبعا، لكن، هل تعني أنك مسافر؟

– سأغيب ليومين فقط، ولا أريد تركها في النزل لأمر شخصي.

– لك ذلك، حظا موفقا.

شيعه الولد بنظرة بقيت عالقة بذهنه، فارتمى في فراشه، مصدوعا

بالتفاصيل اللاهبة التي أهرقها لسان الولد، ورسم ابتسامة وهمس متماثلا للنوم متثائبا:

- أي مكان ملعون هذا!

الثلاثاء

لم يستيقظ بصحوة باكرة هذه المرة، واستمر منامه حتى حدود العاشرة صباحا على غير عادته، صخب الصيادين كان وراء استقاقته المتأخرة.

كانوا عشرة، وها قد صاروا تسعة، وبرغم فقدانهم لواحد، واصلوا أشواط تنافسهم، بينما فريق من الغواصين يمشط الأعماق بحثا عن ضحية البارحة. وما من خبر.

أجلاف، قال هامسا، وهو يشجب جشعهم، وأوقد سيجارة محاولا أن يطرد عنه أصداء كل ما سمعه من الولد وأثقل كاهل ذاكرته. قرر أن يفطر في خيمته، وتحاشى الذهاب صوب النزل بذلك الصباح. أعد قهوة، ووقف على العتبة يتأمل المشهد بعيون يعتورها ضباب التعب.

قريبا منه مرّ الرسام الأسود، وبادره قائلا:

– ألن نتشرف بانضمامك إلى الصيد عزيزي.

تثاءب وقال نافثا دخان سيجارته:

– المسألة مزاجية.

– على مهل مزاجك سيدي.

قالها ضاحكا، وانضم إلى رهط الصيادين، وملأ فراغ عاشرهم.

لاح له الرجل القصير، على صخرة بالهضبة، في الزاوية الشمالية للبحيرة، وهو منهمك في الكتابة.

مسح بنظرته إحداثيات المكان، ولم تظهر له المرأة السمراء، فمرافقها يدلو بدلوه مع المتنافسين أيضا، وأما الغواص، فيدعم بحث فريق المنقبين عن جثة الصياد العاشر.

أجّل رغبة الصيد، وخطرت له فكرة دورة حول البحيرة، وهكذا انطلق ومذكرته في يده، وتساءل عن الشيء الذي يشده إلى المكان. فما من مبرر يجعله يمدد في إقامته، في كل الأحوال سيمهل صديقته الممثلة "سارة" تلك الساعات المتبقية لليوم. حاول أن يتدارك تناقضه، وتساءل من جديد، لماذا رحب بمذكرة ولد الفندق، ليومين.

عندما مر قريبا من عربة السمراء، جاءه صوتها مبتهجا:

– جئت في الموعد، كنت سآتي إليك.

صعد التلة المعشوشبة، ووجدها خارج العربة المنزلية تحتفي بقدومه.

- هل تشرب شيئا؟

- شكرا، شربت قهوة من قليل.

- جئت لتوي من الغابة، وقد كنت محظوظة بطيور الشقراق.

ابتسم، واستثمن جرأتها وقوة شخصيتها، فأن تشرد في الغابة فجرا، لوحدها، لابد أنها تمتلك قلب لبوءة.

جلسا معا على كرسيين وقالت له:

- حمقى، لقد فاتهم أنني ظفرت به، وعبثا يصيدون الوهم.

قالتها وهي تشعل سيجارة بينما تشملهم بنظرة وارفة، تشبه رفيف سرب يمام.

- ظفرت بالزنجور تعنين.

قال لها باستغراب.

- بلى، ظفرت بزنجور.

ظنها تتحدث مجازا وقال:

- ربما ظفرت به في حلم؟

ضحكت وتفرقع صدى ضحكتها الماجن وقالت:

- بل ظفرت به حقيقة.

اكتفى برسم ابتسامة، ونزلت هي على ركبتيها، ومشت حتى التقصت به ورفعت كاميرتها وكشفت له عن صورة، فامتقعت ملامح وجهه وقال:

- غير معقول.

كانت صورة للزنجور على ضفة البحيرة وهو يطل بوجهه البهلواني من المياه، كما لو كان دلفينا.

- كيف حصلت عليها؟

سأل بارتباك وقالت له:

- فعلتها فجرا قبل صعودي إلى الغابة، وقد جربت طريقة غريبة لذلك؟

- أي طريقة؟

- غنيت له.

ضحك، وأوقد سيجارة وقال:

- تظنينني سأصدق هذا الجنون.

ابتسمت، ونهضت صوب ثلاجة صغيرة في العربة، أخرجت جعة وألقت بها إليه، وسحبت ثانية وأقفلت راجعة، فتحتها وشربت جرعة

ثم قالت:

– أنت الوحيد، المفترض، الذي سيصدقني.

– لماذا الوحيد؟

– لأنني الطروادية المنذورة للحصان المرقط.

– ما دخل الحصان المرقط بالموضوع؟

– مفتاح اللغز في كل ما يحصل هنا هو الحصان المرقط.

فتح جعته وشرب، دخن وقال:

– لم أفهم ما تعنينه.

– ما أعنيه، هو أن الزنجور لم يكن مدرجا في حساباتي، كل ما في الأمر أنني كنت أغني لحصان، حصان مرقط أراه منذ طفولتي في مناماتي، وأطرب لصهيله الجميل.

ليلة البارحة، رأيته من جديد في رؤيا، وكنت أغني على الضفة، حينما ظهر فجأة وضمختني أنفاسه، لمسته بيدي هاتين وامتطيته وركض بي صوب جهة غير معلومة، عندما استفقت فجرا، جربت أن أفعلها على الضفة، وغنيت بالشكل الذي رأيته في منامي، وفاجأني وجه السمك الضخم كما لو يبتسم لي من المياه، ودنوت منه دونما خوف أو تردد، وظل ينظر إلي بعينيه البراقتين طويلا، و لم أنس أن ألتقط له صورة. ما إن فعلت،

غادر الضفة واختفى. أنت الوحيد الذي أريته الصورة، وحتى مرافقي المعتوه لم أخبره بالأمر.

رسم وجهه علامة استغراب قصوى، ودخن وشرب، ثم تجاهل موضوع الكراكي وسألها:

– لماذا تقولين عنه معتوه؟

– معتوه لأنه أفسد علي رحلتي.

– كيف؟

– تعارك مع الغواص الذي جلبته من أجل حلمي.

– غواص؟

– أجل، ستقول عني مجنونة، وربما في أحسن الأحوال ستتهمني بالرومانسية، فأنا هنا من أجل حكاية شبه خرافية وعندي يقين بنجاحها.

– آه من الحكايات اللعينة التي لا تنتهي.

ضحكت عندما ندت منه هذه الجملة، ورشفت نصف زجاجتها وقالت:

– في قعر هذه البحيرة، يجثم شيء لا يقدر بثمن بالنسبة لي، هو رمز عائلتي التاريخي، إنه بالضبط آلة موسيقية، آلة بيانو، صنعها أحد الحدادين

من سلالة أمي بأواخر القرن 19، وقُدِّر لأمي أن ترث هذا الكنز الذي صنع به الحداد أروع المعزوفات، ومنها معزوفة الحصان المرقط. للأسف الموسيقى كانت محرمة في العائلة المحافظة، وكانت تتطير منها، وجدي عن أمي الذي ورث البيانو عن جده الحداد كان يعزفها خفية، ومع حدوث أشياء غريبة، أوعزها الأهل للبيانو اللعين، حاولوا منعه من العزف، وعندما رفض، نبذوه، وعاش بعيدا عنهم، إلى أن مات. أبي كان نجارا، و لم تكن له علاقة بتاتا بالموسيقى حينما تزوج من أمي، وقد كان رأسمال أمي هو بيانو أبيها الذي يحتفظ بذكراه ورائحته، وبعد ثلاث سنوات من الزواج، حدث أن كان أبي يلمع البيانو قريبا من النافذة كي يضعه في خزانة من خشب العرعار صنعها بنفسه، وتزامن ذلك مع اندلاع عاصفة مرعدة، أصاب برقها الأب في ظروف غامضة، ثم استفاق بعد غيبوبة دامت عشر دقائق، ومنذ تلك اللحظة الرهيبة وشيء مريب يشده إلى البيانو، لم تصدق أمي ذات صباح، عندما وجدته يحاول العزف عليه. كيف حصل ذلك وهو لا علاقة له بالموسيقى أصلا؟ وتحولت المحاولة إلى هوس استمر شهور قليلة، تخلى فيها عن حرفته كنجار وانصرف للعزف كليا، والمدهش أنه أمسى عازفا بارعا يعرفه القاصي والداني، و لم تستمر نعمة عزفه طويلا. بفقدان أمي لأخي الكبير، مات في مخاضه، وبعدئذ بدأ يفقد أصدقاءه في حوادث عجيبة، ثم فقدت أمي بصرها، وعندما حبلت بي، طلبت منه ألا يعزف على البيانو، ويتركه جانبا، ويرجع إلى حرفته، وصدقت سيناريو اللعنة الذي حاكه الأهل حول الآلة، الآلة العجيبة التي عاش من أجلها صانعها الجد الحداد أصمَّ، وعاش من أجلها جدي عن أمي أعمى منبوذا

ووحيدا، وعندما رفض أبي ذلك، لهوسه المطلق بالعزف، انتهزت أمي فرصة نومه ذات ليلة ومنحته لأخ زوجها الذي زارها مصادفة بذلك اليوم وطلبت منه أن يتخلص منه، شرط أن يرميه في قعر نهر أو بحيرة، عمي هذا كان يعمل حينها في منشرة خشب بإقليم بعيد، وكانت المنشرة في غابة تطل على بحيرة، فألقاه بتلك البحيرة ذات صباح. جن جنون أبي، الذي لم يرجع لحرفته كنجار، وأضرب عن الأكل والكلام، وتوفي في وقت وجيز، قبل أن أولد حتى.

ولدت بعدها بثلاثة شهور، وعشت يتيمة، و لم تكاشفني أمي وتخبرني بحكاية أبي حتى سن العشرين، حين كانت طريحة الفراش في أسبوع احتضارها الأخير.

تقصيت المعلومات فيما بعد من عمّي، وأخبرني عن مكان البحيرة، وأجلت حلم زيارتها مرات ومرات، إلى أن تحقق لي الأمر هذا الموسم، أعني الآن، حيث أنا.

حلمي المجنون هو أن أستعيد هذا البيانو يا صديقي، لذلك جلبت معي غواصا محترفا، وقد أفسد علي المعتوه ذلك. أنا الآن بصدد انتظار واحد جديد، ولن أكلَّ أو أملّ، ولن أغادر البحيرة حتى أظفر به، أي البيانو اللعين.

ظل كاتب السيناريو يدخن ويشرب من زجاجته، مسحورا بما يسمعه دون أن يتلفظ بكلمة وأردفت هي:

- أرأيت، كيف أن معزوفة الحداد، صانع البيانو الخرافي كان عنوانها هو صهيل الحصان المرقط، الحصان الذي كان يصهل في مناماتي وأنا صغيرة، وكلما أخبرت أمي بذلك، قالت: أضغاث أحلام، إلى أن باحت لي بحكاية الآلة والمعزوفة معا. صحيح أنني لم أشاهد فيلمك: صهيل الحصان المرقط، لكن هناك شعور غريب يقول لي بأن فيلمك هذا له علاقة بمعزوفة الحداد الأصم والجد الأعمى، بحكاية أبي، لنقل حكايتي أنا، بشكل من الأشكال.

ألقى كاتب السيناريو بعقب سيجارته، ونهض فجأة قائلا:

- شكرا على الجعة، استمتعت بحكاياتك، أراك لاحقا.

وقفت، وابتسمت ثم قالت:

- كأنك هارب الآن.

ابتسم وقال ملوحا بيده:

- لا، ليس كذلك، نحكي فيما بعد عزيزتي، شكرا.

قالها بتشوش، وأقفل راجعا إلى خيمته، دون أن يكمل دورته حول البحيرة.

ارتمى في جوف الخيمة، منهكا، وضاع في رطانة أصداء جعلت ذهنه مصدوعا.

هل من قبيل المصادفة اللعينة، أن يكون حصان أحلام الفتاة السمراء، شبيها بحصان فيلمه المرقط؟

تساءل، وخمن، هل من المعقول أن تكون هذه السمراء قد شاهدت فيلمه، وتزعم غير ذلك، وإلا كيف تكون فكرة فيلمه المركزية المتعلقة بصوت امرأة يروض حصانا بربريا مرقطا، هي نفسها فكرة حلم السمراء؟

الحصان المرقط في الفيلم، كان آخر الخيول المتوحشة، الذي جعل قبيلة بكاملها تتربص به، وتطارده من أجل تدجينه، و لم يتأت ذلك لأعتى فرسانها، وحاولوا قتله فوق ذلك، وبرغم الخطر المحدق به، كان الحصان المرقط مصرا على الظهور قريبا من مضارب خيام القبيلة، وينهل من نهر متاخم لها. وحدث ذات ظهيرة أن كانت فتاة منمشة من القبيلة تغسل شعرها في النهر، عندما دنا ليشرب بالقرب منها، وكانت تدندن بأغنية، لم يكن في الحقيقة نازلا إلى النهر من أجل الشرب كما ستكتشف الفتاة المنمشة، فقد استشعرت أنفاسا وراءها، فذعرت وقفزت في مكانها خشية أن يكون ذئبا، و لم تصدق نفسها عندما رأت الحصان المرقط، ولامسته، ورأت في عينيه الواسعتين عالمها الأثير، وعلقت بجماله الباذخ، ولما انطلقت رصاصة بالقرب منهما، هرع الحصان في الوادي واختفى بين الأحراش مخلفا صهيلا وثيرا...

عندها استغربت القبيلة أن يكون الحصان العنيد قد أذعن للفتاة الممنوعة من الغناء. وهكذا راقبوها وترصدوها، حتى إذا عاود الرجوع

إليها حاولوا أن ينالوا منه، وظل طيف الحصان عالقا بحواس الفتاة، وتاقت إلى ملمسه أيما توق، وعشقت أثره حد الوله.

تكرر الأمر معها في مرة ثانية بالغابة، وهي تحتطب مع صديقة لها، وجربت الغناء من جديد بصوت عذب وساحر، فلاحَ الحصان من بين عساليج دغل، ومشى الهوينى باتجاهها إلى أن لامس بوجهه وجهَها، وهذا ما جعل صديقتها مذهولة، فأخبرت القبيلة مساء بما حصل، ونعتوا الفتاة بالمسحورة. تتنامى أحداث الفيلم حين تدخل القبيلة في حرب مع قبيلة غازية، وتسبى الفتاة مع الحريم، فينقدها الفرس مع النساء فيما بعد، وتنعطف الحكاية عندما ترفض الفتاة الزواج من ابن حاكم القبيلة، ويكيل لها هذا الحقد ويدبر لها كمائن، كانت تفلت منها بقدرة قادر، فحشد كل جهوده كي ينال منها بقتل فرسها المرقط، الذي ظل حرا طليقا في البراري، فيختطفها ذات مرة، ويربطها إلى شجرة عند النهر، ويأمرها بالغناء مهددا إياها باغتصاب وقتل أخيها، وتفعل قسرا، فيظهر الفرس على الهضبة، بينما يختفي ابن الحاكم وأعوانه في أجمة، ويدنو الفرس المرقط من الفتاة، بينما تذرف دموعا صامتة، وتنطلق رصاصات الغدر صوبه فينطلق باتجاه الأجمة ويقفزها مصيبا ابن الحاكم ومن معه، وحين يتجاوزهم يخر صريعا في النهر، وتجهش الفتاة بالبكاء.

يفك أحدهم رباطها، ويحاولون إنقاذ ابن الحاكم الذي شُجَّ رأسه، فيما تيار النهر يزحف بالحصان نحو الأدغال، وتقتفي الفتاة أثره، إلى أن تعجز على اللحاق به..

يموت ابن الحاكم، وتدخل الفتاة في حداد طويل لسنوات، رافضة الزواج مدى عمرها، وهي مضربة عن الكلام.

يظهر الحصان بغتة في نهاية الفيلم، بعد عشر سنوات، عند النهر، حيث كانت المرأة، تترنم بأغنية..

لم يكد ينهي استرجاع تفاصيل فيلمه، حتى وقف عليه الرجل القصير، بعينين حمراوين متوقدتين، صائحا به:

– أنهكني كتاب البحيرة.

استفاق كاتب السيناريو ونهض مرحبا بالرجل:

– أهلا بك.

– منذ عشرة أيام وأنا أدونه، كأنها عشرة دهور.

لم يفهم كاتب السيناريو مرام الرجل، واكتفى بإشارة من كتفيه، بينما استأنف الرجل يقول:

– صحيح أنني لا أمتهن الكتابة، لكنه الرهان المجنون.

أوقد كاتب السيناريو سيجارة، وعبثا حاول أن يستوعب ما يقوله الرجل المضحك. جلس هذا الأخير وأشعل سيجارة بدوره وقال:

– لا أعرف ما الذي سيجعلني أخبرك بالأمر، سأترك جانبا الدواعي الغامضة التي تجعلني أقدم على مكاشفتك بالموضوع، فلم أخبر أحدا

غيرك، ربما لأن هذه الأوراق أتعبتني قررت أن أبوح لك، فأنا أستاذ فيزياء ولا علاقة لي بالكتابة الأدبية، كل ما في القصة يا عزيزي، أننا عشرة أساتذة ندرس في مؤسسة واحدة، وبيننا لحمة مجنونة، ما يشبه عصابة، كل منا يقترح رهانا بمجيء عطلة معينة، ورهان هذه المرة كان كتابة رواية حول بحيرة، وتفرقنا عبر عملية لرمية نرد على بحيرات البلاد، وقد لعبت ورقة حظي لصالح هذا المكان، ومنذ مجيئي وأنا أحاول بناء قصة، و لم أستطع للآن أن أنجح في ذلك. بصراحة ضجرت من هذه الكتابة، ولا أعرف كيف سأعود بِرِهاني إلى زمرة الأصدقاء، فهم قرروا أن نمنح مخطوطاتنا للجنة متخصصة، كي تقرر أي الروايات أجدر بالنشر.

تصور، رواية في عشرة أيام. أي جنون هذا؟

أعرف أننا نهين الكتابة بذلك، ربما نحط من قدر الرواية نفسها، لكن من يدري، ربما تلك هي لعبة الأدب من حيث الجوهر.

نفث كاتب السيناريو دخان سيجارته وقال:

– فكرة جيدة وممتعة، أرجو لك حظا موفقا في ذلك.

سحب الرجل القصير نفسا وقال ساخطا:

– لا أظن أنني توفقت في ذلك، هذه أول محاولة كتابة لي في حياتي، وهي الأخيرة بالتأكيد.

– طيب، لم سوء الطالع هذا؟

– الكتابة.. كم هي مضجرة، ولا جدوى منها.

قالها بألم ودخن ثم ابتسم ونبس:

– هل لي أن أطلب منك خدمة؟

– تفضل.

– أود أن تقرأ ما كتبته حتى الآن، سأغيب ليومين من أجل قضاء أمر مستعجل بالمدينة المجاورة، وأرجع بعدها. أرجو ألا يثقل عليك هذا الأمر.

صمت كاتب السيناريو وابتسم قائلا:

– لماذا أنا بالذات؟

ضحك الرجل القصير وقال:

– هذا ما أود معرفته حقا أيضا، لا أعرف لم أنت بالذات!

دخن كاتب السيناريو وتردد ثم قال:

– حسنا. لن أعدك بشيء، يمكنك أن تترك مخطوطك، لكنني لا أضمن أنني سأقرأه.

ندت من الرجل القصير زفرة وقال:

– أقبل بذلك، إليك وديعتي، وأنا على يقين من أنك ستقرؤها.

دفع إليه بالمخطوط، وهب واقفا، ثم قال مغادرا:

– حتما سأعود، شكرا لنبلك.

– لا شكر.

وضع مخطوط الرجل القصير حيث وضع مذكرة ولد الفندق، وأنهى سيجارته ونهض يمشي باتجاه النزل عصرا.

وبَّخَ نفسَهُ على تقبُّلِ المخطوط، لأن إقامته غير مضمونة ليومين زائدين. عند أمتار قليلة من النزل العتيق، خيل له أنه شاهد شبح امرأة على زجاج النافذة بالغرفة العلوية، ربما تكون فتاة البيانو غريبة الأطوار، ولج إلى الفندق، واصطفى الطاولة ذاتها قبالة لوحة الممثلة الأثيرة في فيلمه الملعون "هاجر"، وجاءته العجوز قائلةً:

– ماذا تطلب أيها الزائر العنيد؟

رسم ابتسامة وقال:

– سأكون ممتنا لو جربت السمك الأزرق هذه المرة.

ابتسمت وقالت:

– حاضر يا ولدي.

مشت قليلا ثم التفتت إليه وقالت:

-- سأخبرك بشيء عندما أرجع.

ما إن اختفت في قبو المطبخ، حتى ظهر صاحب النُّزُلِ مرحِّبا:

– أهلا بضيفنا العزيز، شهية طيبة.

– شكرا.

أوقد سيجارة ودنا منه، نظر إلى لوحة الممثلة "هاجر" وقال:

– كانت أجمل من زار المكان، وتركت أثرا لا ينسى فيه.

جلس ودخن ثم نبس:

– كنا سنسمح للمخرج بالتصوير في الفندق من أجلها فقط. للأسف لم يقدَّر للفيلم أن يكون.

التفت كاتب السيناريو وقال:

– كان فيلما حول البحيرة؟

– هي قالت إنه حول آنسة البحيرة.

لم يسمع كاتب السيناريو بخبر هذا الفيلم، واستغرب لهذه الأيام الثلاثة المقتطعة من سيرة الممثلة "هاجر"، فلم يسبقْ أن قرأ عنها في كل التغطيات الإعلامية التي واكبت موتها بحادثة الحريق المريعة.

استيقظت رغبته في قراءة سيناريو ذلك الفيلم، وعقد العزم ما إن يرجع إلى المدينة، على البحث في تفاصيل ذلك.

ظهرت العجوز حاملة طبق السمك الأزرق، وفسح لها المجال لتؤثث مائدته.

– عذرا، فقد غادر الولد الشقي دون إخبارنا بذلك.

قال صاحب النزل، والتزم رجل السيناريو بالصمت.

– لا بد أنه التحق بمنشرة الخشب القديمة وراء الجبل.

قالت العجوز، وعلق صاحب النزل:

– تعنين أنه التحق بنهايته المؤكدة.

– أرجو ألا يصاب بمكروه. قالت العجوز.

– وهل يرجع من يقصد المنشرة أصلا؟ إنه متهور.

لفظ صاحب النزل الجملة، ونهض مغادرا الصالة باتجاه الباب دون أن يودع كاتب السيناريو.

فكر كاتب السيناريو فيما تبادلاه من حوار، واستشعر ريبة كاسحة، ثم تساءل: هل هذا يعني أن الولد قرر نهايته؟ كيف أخبرني بأنه عائد بعد يومين؟ ولماذا اصطفاني وترك المفكرة عندي بالذات؟

يشبه الأمر لعبة لعينة.

– تفضلي.

قال للعجوز، وابتسمت ثم قالت:

- شهية طيبة يا بني.

شرع كاتب السيناريو في أكل وجبته، وانصرفت العجوز، ثم ما لبثت أن رجعت وقد أكمل غذاءه.

لملمت الصحون وقالت له:

- هناك من استرعيت انتباهه، ويسأل عنك بلهفة.

رجع بكرسيه إلى الخلف، وقال للعجوز:

- لم أفهم.

- لم يسبق لي أن خشيت على زائر مثلك يا بني.

مسح بيده على شعره وبدا مندهشا، وقالت له:

- آنسة البحيرة، سألتني عنك.

- من آنسة البحيرة؟

- أخت صاحبة النزل، المسجونة في الغرفة العلوية.

- وماذا تريد مني برأيك؟

- ربما شُبهت لها بفتى كانت عالقة به حد الجنون، فتىً توفي غرقا في البحيرة للأسف.

قالتها بنبرة حزن، وانسحبت دون أن تودعه واختفت في قبو المطبخ.

أخرج سيجارة وأشعلها ثم تساءل:

آنسة البحيرة؟ أليس هذا هو عنوان الفيلم الذي أخبرني عنه صاحب النزل؟ هل للفيلم الذي سيصور في البحيرة علاقة بحكاية أخته؟ أم هي مجرد مصادفة؟

ترنم بلفظ اسم آنسة البحيرة، مرات، ترك نقود الوجبة على الطاولة وغادر النزل العتيق.

الأربعاء

استطال مجيء الممثلة "سارة"، صديقة كاتب السيناريو، وقطع كل أمل في ظهورها، لكنه فضل استزادة بعض الأيام، حتى يظفر بسمك الزنجور.

طرد كل ريش الحكايات العالق بذهنه، وقرر أن ينبري للصيد ذلك اليوم لا غير.

جهز عدته، واختار له مكانا مقابلا لشرذمة الصيادين المتحلقين حول الضفة، استعمل سمكة حيّة من نوع "الباربو" اصطادها بصنارة صغيرة، وسدد الصنارة الكبيرة باتجاه وسط البحيرة، واطمأن لنزولها السلس.

أشعل سيجارة، ونصب القصبة حتى يستوفي تدخين تبغه المفضل.

– صباح الخير.

جاءه الصوت غريبا من الخلف، واستدار فوجد الغواص واقفا وهو يردف:

– أستميحك عذرا على الإزعاج.

– لا بأس. قال له كاتب السيناريو.

– هل تسمح بتدخين سيجارة معك؟

قال الغواص، وبلباقة أجابه رجل السيناريو:

– تفضل.

نزل الرجل إلى الضفة واقتعد صخرة بيضاء إلى جانبه وقال:

– لا أستخف بمهارتك في الصيد، لكنني أقترح أن تتريث.

كان لجملته وقع صفعة. نبس رجل السيناريو:

– أتريث؟

أشعل سيجارة وأردف:

– أجل حتى يحين الوقت المرتجى لصيد الزنجور.

ابتسم رجل السيناريو وكان على أهبة أن ينطق وأردف الغواص:

– كل بحيرات العالم شيء، وهذه البحيرة شيء آخر.

– يعني؟

– كل سمك الزنجور في العالم شيء، وزنجور هذه البحيرة شيء مختلف تماما.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن مزاج الزنجور هنا خاص جدا.

في الوقت الذي كان يتشدق الغواص بمعرفته المتغطرسة بالبحيرة، اهتز خيط الصنارة واشتد، فسارع كاتب السيناريو إلى فحص الأمر، وقال:

– تبا.

ابتسم الغواص وقال:

– علقت بالعشب الداغل.

– لا بأس.

قال رجل السيناريو، وأردف:

– تعودت على هكذا مماحكات.

دخن الغواص، وقال:

– عشرة أيام وأنا أمسح قاع البحيرة الغربية، و لم أظفر برؤيته إلا في لحظة مارقة.

سمعه باهتمام، وهو يسحب الخيط المقطوع إليه، ثم شرع في تركيب خيط جديد لشص ثان، وألفى الغواص يقول:

– كان رهيبا في عرينه، يرمق محيطه بعينين جاحظتين ويبدو عليه وقار إمبراطور. أرعبني مشهده، آمنت بنهايتي الوشيكة، فلم يسبق لي أن شاهدت زنجورا ضخما بهذا الحجم، بين 130 و150 كيلوغرام، وأما منقاره فرفيع وطويل، ويصلح لاحتطاب هذه الغابة بأكملها، جربت الصلاة بتلك اللحظة، وتحاشيت النظر إلى عينيه، ولم أستوعب للآن كيف. استدار وتحاشاني واختفى وسط النبات المزمخر.

ألقى رجل السيناريو بالشص من جديد مع طُعم "سمكة باربو" دائما، وكانت رمية سديدة انبهر لها الغواص، ثم قال:

– لا بأس من المحاولة، رغم أنك تقول بأنه يوم غير مرتجىً للصيد.

– لست بمرتبة الناصح يا صديقي إن كنت سأطلعك على شيء مهم بهذا الصدد.

– أي شيء تعني؟

– إن عولت على ضربة النرد، فلن تصيب موقع الزنجور ولو مكثت على الضفة لسنة. هناك يوم استثنائي وافر الحظ فقط للظفر به أكثر من أي يوم آخر، وأعني اليوم الذي لا يكون فيه لابثا في مكانه، وهو يوم له علاقة بطبيعة الغيوم، وحركة الرياح، وإشارتُه البارزةُ هي تحليق السنونوات، بهذه اللحظة فقط، يجن جنون الزناجير في البحيرة، وتراهم يمشطون القيغان بكل اتجاه، وفي هياجهم هذا، يمكن الفوز بأحدهم.

– غريب ما تقوله، لكنه مثير.

- هذه حصيلة تجربة لي بالمكان عزيزي.

- شكرا على المعلومة الثمينة، عزيزي.

- حسنا سأتركك يا صاح، لا تنسَ لحظة تحليق السنونوات.

قالها بنبرة باسمة وانصرف.

واصل رجل السيناريو الصيد في تلك اليومية، برغم نصيحة الغواص، وجرب رمي الخيط بأكثر من مكان، وأثناء انتظاره خامرته الغبطة، ورتب أفكارا وشيد لها معمارا، ثم ردمها، واستأثر بذهنه غيابُ ولد الفندق، هذا الذي حاول أن يقاوم فكرة فحص مذكرته، كما تصدى لإغراء أوراق الرجل القصير. ولم يشعر بوطء الوقت حتى مالت الشمس نحو غروب شفقي، وتذكر أنه لم يأكل حتى، ولم يسفر يومه عن غنيمة يعتز بها، وحيث كان يسحب خيط الصنارة، شاهد زمجا مائيا يجمح باتجاه النزل العتيق، وتتبع مسار ارتطامه بزجاج نافذة بالطابق الثاني، وتألم لذلك.

- زمج ماء جديد يعزز معرض الطيور المحنطة.

قال في سريرته، وطوى صنارته مغادرا الضفة.

التزم بعدم الذهاب إلى النزل بتلك الليلة، وقرر أن يأكل شيئا معلبا حينما يشتد جوعه، ثم استلقى تشطره رغبة اكتشاف مفكرة ولد الفندق، وقراءة أوراق الرجل القصير. احتار بين الإغرائين، وأشكل عليه بأيهما سيبدأ.

لحظتئذ، شاهد نور بطارية تتقدم إليه من الضفة الأخرى عبر زورق، ظنه في البداية للغواص، وإذا بها المرأة السمراء، نادت عليه ما إن وصلت إلى ضفته، وطلبت منه الالتحاق بها، وهذا ما لم يجد مبررا لرفضه، وصعد إليها، وطلبت منه أن يجدف بها إلى منتصف البحيرة، وهناك أشعلت شمعة، وناولته جعةً، وفتحت واحدة وقالت له بنبرة احتفالية:

– نخب عيد ميلادي.

ابتهجت ملامحه، وقال صائحا بغبطة:

– شرف عظيم أن أشاطرك ليلة عيد ميلادك المجيد.

– وشرف لي أن أتسامر مع غريب مثلك.

شربا معا، ورقصا على القارب دون موسيقى، رقصا على إيقاع المويجات، وابتعدت عنه فجأة وقالت:

– شيء لا يصدق، لم أتوقع لحظة ميلاد كهذه بحياتي.

– هنيئا لك عزيزتي.

– شكرا للبيانو المسحور على كل حال.

قالت وأمسكت بيده وأردفت:

– ألن تهديني شيئا؟

ابتسم وصمت للحظة ثم هتف:

يجدف القارب في ليلة المحو

ثملا تتعقبه نجمة القطب

تهذي بملمس أزيزه الضفاف

وتسكر لإيقاع هسيسه الزناجير

يمضي مثقلا بفاكهة الموسيقى

يشق طريق اللهب في عتم الفجاءة

كأنه يكتب سيرة الموج

كأنه يتلصص على آثام الحديقة

بل هو كدمة القمر على صفحة المياه

يزهر الآن في قيظ الحلم

يغنم حياة العشب

يظفر بساعة القيامة

هنا بحيرة "ناراسيس" دوامة

هنا ميلاد الزنبقة يعلن برهة الأبدية..

مغمضةَ العينين احتست كلماته، وقفزت تعانقه، وقبلته بشكل غائر وهتفت:

- لم يخذلني حدسي، وإن لم تكن الشاعر نفسه، فأنت الآن أميرهم عندي.

و جلسا معا، واحتفلا بإطفائها للشمعة بمنتصف الليلة، ثم استندت إلى دفة القارب وقالت:

- إليك هديتي الآن.

وشرعت بالغناء، كان صوتها الأوبري مفتولا من قنب الدهشة، جعل شعرات جسده تهتاج تشعريرة، وفجأة حصل ما لم يكن يتخيله حتى في عز تهيؤاته، إذ تحلقت زناجير البحيرة ذات المناقير الحادة حول ضفاف القارب، وهي تصدر أنينا حادا، كما لو هي تعرب عن طربها الكلي بصوت السمراء.

وما إن انتهت من الأغنية، حتى انفضت الزناجير عن القارب وانتشرت بشتى الاتجاهات، وضحكت السمراء لمرأى كاتب السيناريو مذهولا شبه متحجر كتمثال بمكانه، ثم قبلته، وتعانقا بوحشية فانخرطا معا في هياج اشتط بهما بعيدا في غمرة مضاجعات حرّى.

و لم يفترقا إلا على تخوم الفجر.

الخميس

استغرق نومه نصف النهار، واستفاق على تخوم الظهيرة، مثقلا بفواكه السهرة الماضية، وظل عاكفا بخيمته. صنع لنفسه قهوة، ثم دخن، ومسح المشهد أمامه بنظرة عاشقة، ورمق الصيادين المنتظمين على الضفة، وبدا له أن مهمتهم عبثية أشبه بانتشال إبرة في صحراء من القش. نهض ومدد جسده ذات اليمين وذات الشمال، ثم قام بحركات رياضية يحفظها من زمن قديم، حين كان يمارس رياضة تايلاندية بصغره، وهاجسه صوت مفكرة الولد، بل واحتدمت رغبته في قراءة أوراق الرجل القصير أيضا.

كان من اللباقة بمكان، أن يبدأ بمفكرة الولد، الذي لم يظهر له أثر، وهكذا تلقفها وفحصها بإغواء، ووجد ما يشبه ورقة صغيرة جدا، عبارة عن رسالة صغيرة له وقرأ:

سيدي كاتب السيناريو العزيز

سلام البدء والختام

لم يساورني شك في أنك كاتب سيناريو فيلم "صهيل الحصان المرقط"، لم أقرأ اسمك في جينيرك الفيلم، لكن كل العلامات الدامغة تقول أنك هو، وقد أثارني وفاؤك بالجلوس قريبا من لوحة الممثلة "هاجر" بالنزل العتيق، تلك الشخصية الإستثنائية التي صنعتها لنا، وفطرت قلوبنا بجمالها الآسر. قلبي على الأقل.

لكم كانت سعادتي شاهقة عندما اختارت "هاجر" هذا النزل لتمكث به ثلاثة أيام، وظلت هذه الثلاثة أيام مصدر غواية بالنسبة لي، فحاولت رصدها عبر تلك الساعات الضئيلة ودونت حركاتها ما استطعت إلى ذلك سبيلا، كمعجب بها من جهة أولى، وكهدية لكل عاشق لشخصيتها المريبة من جهة ثانية.

لطالما حلمت بتحويل هذه الخربشة إلى رواية، رواية محبوكة حول ثلاثة أيام قضتها الممثلة "هاجر" بالبحيرة، ولأنني لا أمتلك تلك القدرة الجبارة على صنع تخييلها، اكتفيت بتوثيق هذه المادة، وها أنتذا تحل بالمكان ذاته، وبقدرة قادر، وكأن هذه المادة مكتوبة لك أنت وحدك، وأنت الوحيد الذي بإمكانه نسج مادة أدبية حول الموضوع، أعرف أن الفكرة ستنال اعجابك، وستغويك.

عذرا، لأنني لم ألتزم بالمجيء بعد يومين كما زعمت، وغيابي الطارئ

هو لتعقب عصابة، تفكر في جريمة إسقاط أكبر شجرة معمرة بالغابة، سأفعل ما أستطيع لأحول بينهم وبين هذه المجزرة.

مودتي

قرأت الرسالة مرة واحدة وانتقلت بعدها إلى الصفحات الموالية، ووجدت تخطيطا بالأرقام والتواريخ والتعليقات، هو تدوين ليوميات الممثلة "هاجر"، بالنزل والبحيرة وقرأت:

اليوم الأول:

عند الساعة العاشرة، حلت سيارة من نوع فورد، ونزلت فتاة ثلاثينية، بفستان أحمر، وكان معها مرافق، شاب في العشرين، هو من حمل حقيبتها، وحجز لها الغرفة الثالثة، بالطابق الأول.

غادر مرافقها توا، وبقيت هي في غرفتها.

تمتم صاحب النزل إسمها، وقال: "هاجر" رنين هذا الإسم ليس غريبا عني.

صحت به: كيف لاتعرف بهذا الاسم، أبشر فهذه الممثلة التي لعبت دور بطولة فيلم "صهيل الحصان المرقط".

ابتهجت ملامح صاحب النزل، وقال:

– إن كان صحيحا ما تقول، فعجل بالتقاط صورة لها قبل أن تغادر نزلنا العتيد.

عند الظهيرة طلبت غذاء في غرفتها، وكانت الوجبة سمك الشبوط.

مع لحظة العصر، شربت الشاي في مصطبة الفندق وهي ترصد البحيرة والغابة بنظرة وارفة.

تمشت بعدها حتى حدود الضفة واستدارت تتأمل النزل بعيون ملتهبة، استرعى انتباهها مروق طائر زمج في السماء، والتفتت، لمست مياه البحيرة بيدها، ثم أقفلت راجعة، كنت واقفا عندها على العتبة فسألتني بصوت معسول:

– هل وصل السيد آدم (أي المخرج السينمائي).

– ليس بعد.

قلت مرتبكا ومنتشيا بكلامها معي.

ثم انطلقت صوب غرفتها، وعندها حدث شيء مريب، زمج الماء الذي تركته يحوم بالسماء، استهدف زجاج نافذتها، وارتطم به فتهشم، مخلفا صدى كسر خشن، أرعبها، فنزلت إلى البهو مذعورة.

– عذرا آنستي، لا أريدك أن تخشي مما حدث، فهذا فأل خير، تلك الطيور الوحشية، ترحب بضيوفها لا غير، فتلك تحيتها الأثيرة، هنيئا لك،

لأن طيور البحيرة تحتفل بقدومك.

قالها صاحب النزل بمكر، و لم يرأب الصدع الأزرق المرسوم بوجهها الصبوح.

عندها طلب مني أن نعالج زجاج النافذة بأسرع ما يكون، ولبثت هي بمقعد منكمشة على نفسها، بالبهو.

بعد إصلاح الزجاج، دلجت إلى غرفتها والتزمت بعدم الخروج.

رأيتها على النافذة ليلا وهي تتأمل قمرا برتقالي اللون يجنح صوب عتم الغابة السامقة.

اليوم الثاني:

استفاقت فجرا، وشربت الشاي في النافذة، ثم نزلت مع السادسة صباحا، وطلبت مني أن أصحبها لتقوم بدورة حول البحيرة، لم أصدق دعوتها المجيدة، ومشيت إلى جانبها، فطفقت تسألني بخجل، ونبست:

- هناك شيء غامض يشدني إلى هذه البحيرة.

لقد كان غموض البحيرة من غموض جمالها في الواقع فكرت وقلت لها:

- البحيرة ومن فيها فخور بزيارتك سيدتي.

- من أكون حتى أنعم بهذا الاطراء يا ولد.

قالت بلسان ألثغ.

- أنت أول وأجمل سينمائية تزور المكان على الاطلاق.

- آه آه آه، كيف علمت بأنني ممثلة.

- كيف أنسى تشخيصك البارع لفتاة الحصان المرقط.

- لا أصدق ذلك.

صمتت ثم قالت:

- وأين شاهدت الفيلم أيها الشقي؟

- شاهدته صدفة، مع أخي الكبير عند زيارتي له وهو طالب في المدينة الكبيرة.

- آه، كم أنا محظوظة.

وصلنا ضفة البحيرة وقلت لها:

- دورة حول البحيرة مشيا ستستغرق أكثر من ساعة.

ابتسمت وقالت:

- وليكن أكثر، منذ زمن وأنا أحلم بهذه الدورة.

شرعنا في طوافنا الملحمي، وكانت بغاية الابتهاج، تترنم كما فراشة

برفيف جموحها وتتكلم من خلف صمتها اللذيذ، ثم قالت:

– نزل عتيق كهذا، يصلح أن يكون فيلم رعب.

ضحكت وقلت:

– من يدري قد تجسدين دور بطولته.

ابتسمت وقالت:

– هل تعلم بأنني هنا من أجل تصوير مشهد فيلم جديد.

انتابتني غبطة، وقلت بحماس:

– حقا ما تقولين؟

– أجل، كل هذا يتوقف على وصول المخرج "آدم".

صمتت وقالت:

– أشعر أنك مثل أخ صغير، وسأبوح لك بسر، فلا أجمل من أن أبوح لصبي ملائكي مثلك.

تخضب وجهي خجلا لاطرائها وأصخت السمع لها وهي تقول:

– حلمت البارحة بمشهد رهيب في قعر هذه البحيرة، رأيت صندوقا رفيعا، هشمته سمكة وحشية، وكان داخل الصندوق درع محارب كامل كما لو مصنوع من الذهب، ومعه سيف كبير في غمد منقوش بشكل عجيب.

وقفت لحظة وترددت ثم صاحت بي:

- أحتاج أن أتحرر الآن من داخلي.

وركضت مثل فرس مجنحة، وركضت وراءها، كان مرط فستانها الأبيض يتراقص خلفها مثل مزنة، وكان شعرها يتطاير كسرب من السنونوات، وظلت تركض نصف ساعة، ثم تعثرت وسقطت على العشب، هرعت إليها وبي هلع، ووجدتها مستلقية على ظهرها، مغمضة العينين، تنصت لاهثة لصدى نغمة بعيدة، ثم هبت فجأة وقالت، مهلا، هل تسمع، مشت على ركبتيها إلى المياه وقربت أذنها ثم قالت:

- هل تسمع رنين بيانو في هذا العمق من البحيرة.

وقفت بغتة وصاحت:

- مدهش، هل ترى ما أراه يا صديقي.

هتفت ودنوت منها وحاولت أن أنظر حيث نظرتها مسددة بذهول، و لم أشاهد شيئا، فلون المياه كان رصاصيا بلون السحب الهائمة فوقنا وأردفت:

- هناك، إنني أراه.

- ماذا؟ قلت لها باستغراب.

- هناك، أرى بيانو يعرشه العشب، في قعر البحيرة، وحوله يمرح ما يناهز ثلاثين زنجورا ضخما.

وقفت مصعوقا، أحاول استبيان ما تراه، و لم يلح لي شيء، وتساءلت:

- كيف استطاعت أن تحدس بوجود بيانو، البيانو المسحور الذي أخفاه صاحب النزل ذات ليلة، حين سلبه من أخته العازفة المريبة. بل كيف استطاعت أن تراه هذه الكاهنة الودودة.

عندها اندلقت سنونوات من وراء الجبل، واسترعى انتباهها تحليقها الخفيض والغفير الذي حجب عنا الرؤية. فقلت لها:

- يجب أن نرجع فورا إلى الفندق سيدتي.

وقالت:

- مهلا سنكمل الدورة.

وقلت:

- السنونوات نذير شيء سيء سيحدث.

ضحكت وقالت:

- تمزح طبعا، ربما راقتك فكرة فيلم الرعب التي شاكستك بها.

- بل هو واقع عزيزتي فلنعجل بالعودة.

نهضت على مهل وابتسمت وطفقت ترقص لمهب السنونوات، السنونوات التي ظلت تحلق بشكل غزير ساعة من الزمن.

كنا قد شارفنا على إتمام تلك الدورة الخرافية، حين أخذت السنونوات تنسحب وتختفي إلى أن صفت الرؤية من جديد، وأثارنا مشهد التفاف شرذمة من زوار الفندق بالأسفل، وركضت وهي تتعقبني، وفاجأنا انتحار صائد، بالوقوع من الطابق الثالث، من نافذة الغرفة الثالثة إلى الشمال.

صعدت الممثلة إلى غرفتها، ولبثت هناك طوال اليوم.

سجل رجال الدرك محضر الحادثة واستمعوا لأقوال الزوار وصاحب النزل وحُملت جثة الصائد إلى مستشفى المدينة من أجل التشريح.

لم تنزل الممثلة من غرفتها واكتفت بالنظر ثلاث مرات من النافذة، الأولى ظهيرة والثانية مساء والثالثة عند العاشرة ليلا.

اليوم الثالث:

نزلت صباحا عند السابعة وأفطرت شايا، و لم تنبس بكلمة، خرجت إلى المصطبة وجلست على المقعد الوثير ومسحت المشهد بنظرتها الجليلة.

- هل تسمحين لي سيدتي بطلب عزيز.

- تفضل.

- هل أتشرف بالتقاط صورة لك؟

- سأسمح لك بذلك ردا لجميل الجولة الساحرة.

ركضت وجلبت كاميرا النزل وأخذت لها صورة على ذات الكرسي، وشكرت لها هديتها الفاخرة تلك.

طلبت مني أن أجلس قريبا منها وسألتني:

– أراهن أنك تعرف قصة البيانو تلك، أخبرني هل صاحبته امرأة كما يقول حدسي.

تلعثمت وترددت وقلت:

– أي بيانو؟ وأي امرأة؟

– شقي، البيانو الرابض في قعر البحيرة، واضح أن امرأة جميلة كانت تعزفه بمهارة عالية.

تعثر الكلام في شفتي وحاولت أن أنطق ثم لذت بالصمت وقالت:

– عندي حدس يقول بأن هذه المرأة ما تزال على قيد الحياة، وسأسعد لو كنت دليلي إليها.

عندها لاح صاحب النزل وقال:

– عذرا، نرجو ألا تكوني قد انزعجت لحادثة الأمس. الرجل كان مخبولا، ولم نكن نعلم بذلك.

رمقته بنظرة مريبة دون أن تنبس بكلمة، ثم قالت:

– سأصدق أنها حادثة عادية في نزل غير عادي.

ضحك صاحب النزل وأوقد سيجارة ثم قال:

- شكرا على الإطراء سيدتي.

ابتسمت وهتفت:

- بت متحمسة لفيلم رعب بهذا النزل العتيق، وسأحاول أن أقنع المخرج القادم بذلك.

ضحك صاحب النزل ودخن ثم قال:

- سأقبل بتصوير الفيلم لشرط واحد وأكيد هو أنك من سيلعب فيه.

لم يكد ينه جملته حتى اندفعت سيارة إلى المكان ونزل شخص مع زوجته، ومعهما خادم يحمل الحقائب، وتقدم الشخص مبتسما لمّا شاهد الممثلة " هاجر " على المصطبة وقال بنبرة حزينة:

- أرجو أن تتقبلي عزائي في وفاة المخرج آدم.

- ماذا؟!؟

قالت بصوت مبحوح، وقال لها:

- قرأت الخبر في جريدة اليوم، مات في حادثة سير خارج أقرب مدينة للبحيرة.

نهضت الممثلة، وصعدت السلم وأعدت حقيبتها، وغادرت النزل ممتقعة الوجه في دقائق معدودة.

عند هذا الحد ينتهي تدوين مفكرة الولد.

أوقد كاتب السيناريو سيجارة بعد أن ندّت منه زفرات لائبة، وشدّ على شعره، ثم مرقت صور ما قرأه في ذهنه، وثمن كثيرا ما دونه الولد الشقي، وظل يردد:

– ثلاثون زنجورا حول بيانو في قعر البحيرة! سيف محارب وذرع من ذهب! فيلم رعب...

أي ولد ملعون هذا! هتف، وألقى بالمذكرة جانبا، ثم استلقى على ظهره بعد أن بعج سيجارته وغرق في تهويمات السيناريو الغامض الذي جاء به إلى البحيرة.

وأخذته غفوة ونام حتى حدود المساء.

نهض وتمشى يتأمل الغروب الشفقي، متلمسا أثر الأيام الثلاثة للممثلة المريبة، واستساغ فكرة تحويلها إلى سيناريو فيلم، وهكذا أزهر في ذهنه صداها واستقر بغواية في داخله، وحينها شعر بافتقاده للولد الشقي، فشكر صنيعه، وابتسم وسار بخطى وئيدة حتى رأس الضفة، ولامس بيده المياه، وقريبا منه، مر الصيادون المتنافسون حول سمك الزنجور، وألقوا عليه السلام صاعدين إلى الفندق.

– ثلاثون زنجورا يمرحون حول بيانو.

جرب ترتيب عنوان جيد:

البيانو بيت الزنجور الأثير.

قلّب العنوان في ذهنه وأعجبه رنين الجملة الذهبي.

لم يظهر للسمراء أثر أيضا بعد ليلة عيد الميلاد، وقرر عدم الذهاب إلى النزل بتلك الليلة، وإن كانت غواية رؤية الغرفة التي أقامت فيها ممثلة فيلمه "هاجر" ما تزال متوقدة بداخله.

أقفل راجعا إلى خيمته مع نزول الظلمة وأعد وجبة عشاء طفيفة، التهمها وأمسك بمذكرته هو، حاول أن يدون أشياء سديمية تعصف في ذهنه، ثم تركها جانبا، وتلقف أوراق الرجل القصير، صاحب النظارة السميكة، وبدأ بفحصها.

لاحظ أن ما دونه الرجل القصير، مشطوب عليه بالقلم، وطفق يقلب الأوراق بحثا عن النص، مئة ورقة مكتوبة لكن مشطوب على كل سطورها، وأخيرا وجد صفحة سليمة، مدونة بحبر أسود، وغير مضروب على كلماتها، وتلا العنوان بصوت مسموع، متفاجئا:

البيانو بيت الزنجور الأثير.

ضحك وتفرقعت ضحكته في سماء البحيرة وقال:

– غير معقول، أي فيلم رعب هذا حقا!

ترك الأوراق جانبا، أوقد سيجارة، ثم أمسكها من جديد وقرأ:

البيانو بيت الزنجور الأثير

يحكى أن حدادا فقد سمعه من فرط تردد مطرقته على السندان، و لم يستسغ خسارته لأعز حواسه، فآمن باسترجاع أذنيه، كيف ذلك؟ هذا ما لم يكن يعلمه.

وحدث أن حلم ذات ليلة بصرير مندلع من صندوق عجيب، ما هو بصرير شاحنة، ولا صرير قطار ولا صرير طائرة، لقد كان صرير آلة موسيقية، كانت آلة بيانو.

منذ حلم بتلك الآلة، بل حلم بصوتها، وهو الذي فقد حاسة الصوت وما عاد يتذكر حتى رنينها، قرر أن يصنع واحدة. بحث عن كتب لها، و لم يجد أي مشروع يتناول تصميمها، وجرب أن يرتجل صنعها انطلاقا من صورة لها. وانعزل بورشة له، واستغرق في تصميم وإعداد وصنع البيانو ثلاثة شهور. جرب أن يعزف عليه ذات ليلة، واستلذ ملامسة أصابعه لأسنان ومدارج الآلة، وما إن شرع في ذلك حتى غاص عميقا في اللحن المرتجل، وتوغل بعيدا يعزف لساعات، وتسرب نغم لحنه إلى الزقاق، واستأثر باعجاب الناس فتحلقوا حول ورشته، و لم ينتبه لجمهرتهم إلا بعد أن استيقظ من جذبة عزفه، ووجدهم يصفقون ويبتسمون له بإعجاب.

لم يسترد الحداد حاسة سمعه، لكن جمال ما كانت توقعه أنامله أنساه في أذنيه وفي حرفته، واستبدل أذنيه بتلك الآلة التي صار مهووسا بها، واستمر يعزف عليها ويبدع بشكل عصامي سمفونياته الخاصة، تلك التي طبقت الآفاق، مما جعله يحيي سهرات في أكثر من مدينة إلى أن وافاه الأجل ذات صباح.

ورث البيانو أحد أحفاده، وتمرن عليه، لسنوات حتى أتقن العزف مثل جده، وفقد بصره بعد ذلك وكان البيانو هو عيونه التي يرى بها، غير أن أسرته كانت ترى في البيانو شؤما، خاصة بعد فقدان أمه لسمعها، وفقدان زوجته أثناء مخاض بنت له، البنت التي ستتزوج من نجار، بعد أن يموت أبوها الذي تنكرت له الأسرة، واحتفظت ابنته بالبيانو كرمز لا يقدر بثمن، وحدث أن كان زوجها النجار يلمع البيانو قريبا من النافذة ذات مساء عاصف، واندلق برق أصابه، فأغمي عليه للحظة وحين استفاق شعر بحنين غريب إلى آلة البيانو وشرع في العزف عليها كيفما اتفق، لم تصدق زوجته ذلك، فما من علاقة له بالموسيقى أصلا، وتحول عزفه إلى هوس استمر شهور قليلة، تخلى فيها عن حرفته وانصرف للعزف كليا، والمدهش أنه أمسى عازفا بارعا، يعرفه القاصي والداني، ولم تستمر نعمة عزفه طويلا، بفقدان زوجته للابن البكر، مات في مخاضه، وبعدئذ بدأ يفقد أصدقاءه في حوادث عجيبة، ثم فقدت زوجته بصرها، وعندما حبلت مرة أخرى، طلبت منه ألا يعزف على البيانو، ويتركه جانبا، ويرجع إلى حرفته، فقد صدّقت سيناريو اللعنة الذي حاكه الأهل حول الآلة، الآلة العجيبة التي عاش من أجلها جدها منبوذا ووحيدا، وعندما رفض زوجها ذلك، لهوسه المطلق بالعزف، انتهزت فرصة نومه ذات ليلة ومنحت البيانو لأخ زوجها الذي زارها مصادفة بذلك اليوم وطلبت أن يتخلص منه، شرط أن يرميه في قعر نهر أو بحيرة، أخ زوجها حينها كان يعمل في منشرة خشب بإقليم بعيد، وكانت المنشرة تقع في غابة تطل على بحيرة، حاول أن يلقي به ذات صباح بتلك البحيرة واستوقفه صاحب

النزل، هذا الذي أغراه بثمن كبير فباعه إياه.

جن جنون النجار، الذي لم يرجع لحرفته كنجار، وأضرب عن الأكل والكلام، وتوفي بوقت وجيز، قبل أن تلد زوجته ابنة سمراء .

كان لصاحب النزل أخت تدرس الموسيقى بدولة شرق أوروبية، وقد زارته ذات عطلة، وهيأ لها تلك المفاجأة الرفيعة، الشيء الذي جعلها في غاية الابتهاج، فقررت الإقامة معه بالنزل.

بدأت بعزف البيانو، وعلقت به حد الجنون، سارت تحيي به حفلات أنيقة بسهرات الفندق، ثم تحولت علاقتها به إلى ما يشبه هوسا مرضيا، وبدا نغم البيانو شريرا، وعاصفيا ومريبا.

لمسة الشر هذه، احتدت عندما طفقت أحداث غريبة تقع دونما تفسير لذلك، وقد لاحظ صاحب النزل علاقة وثيقة بين تلك الظواهر الغرائبية وعزف الآلة، مثل ارتطام طيور الغابة بنوافذ النزل، ومثل الشق المندلع في الفندق ابتداء من سطحه ونزولا إلى عتبة البوابة، ومثل النيلوفر الذي يغطي البحيرة بغتة بين الحين والحين، وأيضا الموت الجماعي للسمك.. إلخ، كما تناسلت حوادث موت غامضة، منها موت عازف قيثارة شاب كانت تجمعه علاقة غرامية بعازفة البيانو، فقرر صاحب النزل التخلص من الآلة، ورمى بها إلى قعر البحيرة ذات ليلة دون أن يخبر أحدا، وجن جنون أخته التي صارت تأتيها نوبات عصابية وهيستيرية عاصفة، وأمام عجز الطب عن تشخيص مرضها المجهول، سجنها أخوها صاحب النزل في الغرفة العلوية.

منذ استقر البيانو في قعر البحيرة، تغيرت أحوالها، وتشيطنت، وكلما لامس السمك بعض أسنان البيانو، يُحدث ذلك وقعا غريبا عليها، مثل تحول لونها، أو تناسل نيلوفرها، أو طفوّ جثة لأحد زائريها.

اكتشف زنجور صغير البيانو ذات شرود، واستأثر بانتباهه، فاستأنس ببعض الرنات التي تندلع منه كلما لامسه ذيله، فجعله بيتا أثيرا له، ومنذ استقر فيه الزنجور الصغير، صارت الأنواع السمكية الأخرى تتحاشى المرور بالقرب منه، لأن حارسه الفظ، ينقض عليها ويلتهمها في الحين، التحقت بالزنجور صديقته، وأعجبت بقصره وصنعا معا سلالتهما هناك، وتحول البيانو بقدرة قادر، إلى بيت حالم للزناجير، التي جعلت منه معبدا أبديا.

عند هذا الحد ينتهي النص، أي ما دوّنه الرجل القصير. ضحك كاتب السيناريو طويلا للحكاية المتخيلة، التي حبكها صاحب النظارة السميكة كقصة قصيرة، وفحص مئة ورقة أخرى بعد القصة، ووجدها مكتوبة كما الأول، غير أنها مشطوب عليها.

وكما لو أن الرجل القصير كتب رواية بالفعل، أخذ يشطب على الفقرات التي لم ترقه، حتى احتفظ بورقة واحدة، بمثابة قصة قصيرة.

انشطر ذهن كاتب السيناريو، و لم يستوعب ذلك الشتاء من المصادفات: أليست هذه حكاية السمراء التي تستضمر حكاية فتاة البيانو عمليا؟ هل يعقل أن يكون قد سمع بها، أم يتعلق الأمر بحدس عجائبي؟

أمسك برأسه وقد انتابه صدع مريب، وحاول أن يطرد عنه كل تلك الحيرة الدافقة و لم يستطع.

دخن سيجارة، وحاول اقناع نفسه بأن ما يحصل مجرد حلم، أجلْ حلم، وسيستفيق منه عما قريب.

الجمعة

استفاق فجرا على رفيف السنونوات، كانت تندلق بوتيرة سريعة وغفيرة واستمرت تتراقص وتحجب الرؤية ما يناهز ساعة، وعندما أخذت تنسحب وتلوح له بعض أشلاء المشهد، رأى جثة مترامية على الضفة بعيدا عن خيمته، بمئتي متر، ودنا منها، فوجد الرسام الأسود غائبا عن الوعي، حاول حمله بمشقة إلى خيمته، وقدم له بعض الإسعافات الأولية، وتماثل للوعي واليقظة وهو يقول:

– اللعينان، كادا يقتلانني.

– من تقصد؟

– الغواص ومرافق المرأة السمراء.

أوقد كاتب السيناريو سيجارة وقال له:

- ماذا حصل، وماذا كانا يبغيان منك؟

تلقف الرجل الأسود سيجارته، ودخَّنَ قائلا:

- لقد عثرا على درع المحارب المجهول الذهبي وسيفه البتار.

صفعت جملته ذهن كاتب السيناريو وقال مندهشا:

- ماذا تقول؟

تنفس بصعوبة ثم استفاق وقال:

- حكاية طويلة، سأسافر حالا إلى المدينة لأسجل محضرا، وأخبرك حالما أعود مساء.

وقف الرسام الأسود وهرع صوب النزل وامتطى سيارته وأقلع باتجاه الطريق واختفى وراء الهضبة.

درع المحارب الذهبي وسيفه البتار!

تذكر رؤيا الممثلة "هاجر" في مذكرة ولد الفندق، وضرب يدا بيد، ثم صعد الطريق المعشوشبة باتجاه النزل.

قريبا من الفندق رأى الفتاة على النافذة في الغرفة العلوية لأول مرة وهي تلوّح له بيد، وترسم له ابتسامة لا يعرف أين رأى مثلها.

دلج إلى البهو وجلس قريبا من النافذة المطلة هذه المرة على البحيرة، وأوقد سيجارة ثانية، وطلب قهوة. أتته بها العجوز في دقائق معدودة.

وضعت الفنجان وقالت له:

– لديك رسالة من الغواص، تركها لك ليلة البارحة عندما تناول عشاءه هنا بوقت متأخر.

أدخلت يدها في جيب سترتها البرتقالية، ورمت بها على الطاولة وذهبت في الحين باتجاه القبو، غابت ثم رجعت توا وهي تحمل كيسا وقالت:

– عذرا نسيت، فقد ترك لك هذه الوديعة أيضا.

نطقت الجملة وابتسمت وغادرت البهو.

رشف من الفنجان وهو ينظر بوجل إلى الرسالة، تردد طويلا قبل أن يفحصها، ثم أمسك بها، وفتح المظروف الصغير، ووجد ورقة صغيرة، مكتوب عليها:

أظن أن هذا الأمر يهمك أكثر من أي شخص آخر في هذا المكان:

البيانو موجود في شمال البحيرة، 300 متر في الخط الأفقي يمينا، و700 متر في الخط الأفقي يسارا، و150 متر في الخط العمودي بدءا من رأس البحيرة المقابل للفندق الملعون.

قرأ الرسالة مرات وكرات، و لم يستوعب لماذا اختاره الغواص بالذات من دون شخوص المكان، كي يطلعه على موقع البيانو، ربما الأمر يعني

السمراء أكثر مما يعنيه هو، وربما يعني أخت صاحب النزل أكثر مما يعني أي أحد منهم.

احتار في أمر الرسالة، وفي كتم معلومتها الثمينة، والتبس عليه الخيار، هل يسلم الورقة للسمراء، أم لفتاة الغرفة العلوية؟

رشف القهوة على عجل، وخرج كي يبحث عن السمراء، عند العتبة، وقف مذهولا لمرأى السمراء، وهي تمتطي حصانا مرقطا، يشبه إلى حد بعيد حصان فيلمه، لوّحتْ له على الضفة وانطلقت جامحة تعدو به، وسمع لحوافره إيقاع موسيقى متواترة، ذات قرقعة منتظمة ورفيعة، فجلس على العشب يتأمل فروسيتها الباهرة، وهو يدخن سيجارة ثالثة، والتحقت به العجوز وصاحب النزل، وأبديا آيات الدهشة معا...

جالت السمراء حول البحيرة، ثلاث مرات، ثم انطلقت صوب الغابة، باتجاه الجبل الشاهق، وغابت في الصنوبر الداغل...

لم تمض إلا دقائق حتى اندفعت شاحنة صوب الفندق وهبط منها رجل يرتدي قبعة مع مرافق يحمل بندقية وقال الأول لاهثا:

– عذرا، هل شاهدتم امرأة تمتطي حصانا مرقطا؟

وقفوا ذاهلين دون أن ينبسوا بكلمة وأردف الرجل قائلا:

– نحن فريق سيرك، وقفنا ليلة البارحة بغابة قريبة من هنا، للاستراحة، وقد ابتلينا بامرأة سمراء، سرقت أحد خيولنا المرقطة.

لاذوا بالصمت، ولم ينطق أي منهم بكلمة، مما جعل الرجل يرتاب في أمرهم، فكرر سؤاله مرات، دون أن يحصل على جواب منهم، فغادر المكان مستاء.

رجع كاتب السيناريو إلى الخيمة وهو يحمل كيس الغواص ولبث فيها مسحورا بما رأى، فتح الكيس ووجد بدلتين للغوص، واستغرب لذلك، حاول أن يفك تلك الرسالة المشفرة، لماذا بدلتان وليس واحدة على الأقل؟

تقلب ذات اليمين وذات الشمال، دخن بشراهة، ثم وقف عازما على جمع أغراضه ومغادرة البحيرة بأسرع ما يكون، وتردد، وتراجع وارتمى في فراشه، وأجل الأمر.

شيء غامض كان يشده إلى المكان، ويفوت عليه هجر البحيرة، دخن منهكا، وداهمه النوم.

صحا عصرا على صوت الرسام الأسود، وكان يحمل صنارة، هاتفا:

- عدت لأجرب آخر حظ لي بصيد الزنجور.

نهض كاتب السيناريو وقال:

- ليس قبل أن تخبرني عن قصة الدرع الذهبي والسيف البتار.

ضحك الرجل الأسود وصاح به:

- اجلب صنارتك، وسأحكي لك القصة في طريقنا.

في الطريق قال الرجل الأسود لكاتب السيناريو:

– لا يجدر بي أن أكشف هذا الأمر، و لم أفعلها بكل حياتي، لكن، هناك ما يجعلني أضعف الآن، كي أخبرك بالقصة، وهي على كل حال ستنفضح قريبا بالجرائد. إن لم يكن قريبا، فسيحصل آجلا بكل تأكيد.

القصة وما فيها يا صديقي، أنني لست رساما كما كنت أزعم، ما أنا إلا صحافي صغير، بجريدة وضيعة، وقد جئت إلى البحيرة من أجل إعداد ملف حول مافيا الخشب التي تسطو على صنوبر الغابة. وما كنت لأمكث كل هذه الأيام في البحيرة لولا أن أثارني الغواص الأجنبي، وحركاته المشبوهة، وحدست بوجوده هنا لأمر غير الاستمتاع بارتياد القيعان، وهذا ما جعلني أقترب منه وأتداخل معه، حتى يطمئن إليّ علني أكشف ما تستضمره طويته، وهذا ما حصل بالفعل، إذ قضيت معه لحظات طيبة لم يكن يبخل علي بقاربه، كل شيء بدا اعتياديا حتى سمعته ذات ليلة بينما كنت أقصد عربته يتحاور مع مرافق السمراء، وأذهلني ما تناهي إلى سمعي، عندما كان يتحدث عن توفره على وثيقة تثبت وجود صندوق بالبحيرة يحتوي على درع محارب روماني ذهبي مع سيف بتار، وأقفلت إلى المدينة وبحثت في تاريخ ذلك.

درع المحارب المجهول وسيفه البتار هو بقايا تراث من الحضارة الرومانية بشمال إفريقيا، وقد تمت سرقته من سنوات في آخر القرن الماضي من متحف بالعاصمة، و لم يظهر له من أثر، برغم مجهودات المخابرات في كشف العصابة التي خططت ودبرت لذلك.

كيف توصل الغواص الأجنبي بتلك الوثيقة التي تفيد بوجوده في قعر هذه البحيرة؟ وكيف تم الإلقاء بالدرع هنا بالذات؟ تلك حكاية غامضة لا علم لي بها.

منذ استرقت السمع إليهما، وأنا أراقب تحركاتهما وأرصدهما عن بعد، إلى أن حانت اللحظة الحاسمة الموعودة بوقت متأخر من ليلة البارحة، حين شاهدتهما ينزلان للغوص ليلا، ومعهما كان شركاء آخرون سهلوا عملية انتشال الدرع والهروب به صوب سيارة كانت جاهزة للإقلاع، كنت قد صحت بهما أثناء خروجهم بالدرع من مياه البحيرة، وحينها تصدى لي أحدهم وضربني بشيء صلب على مؤخرة رأسي فأغمي علي.

نزولي إلى المدينة كان من أجل تسجيل محضر لحادثة السرقة وهذا كل شيء، صديقي.

دون أن ينبس بكلمة، دخن كاتب السيناريو كما لو صدق كل ما تلفظه الرجل الأسود، ومشى معه يتخطيان صف الصيادين على الضفة، بذهن نصف غائب، وفكر مصدوع ومخيلة مشطورة...

ضحك الرجل الأسود وقال:

– خسرت رهان درع المحارب الذهبي وسيفه البتار، ولن أخسر رهان سمك الزنجور المجنح.

ابتسم كاتب السيناريو وقال له:

– حسنا اتبعني لننال منه.

مشى به كاتب السيناريو حتى رأس البحيرة شمالا، وطلب منه أن يتوقف، جهز صنارته وأمره أن يفعل نفس الشيء، ثم قال له:

– ثلاثون زنجورا يمرحون الآن في هذه النقطة من شمال البحيرة، 300 متر في الخط الأفقي يمينا، و700 متر في الخط الأفقي يسارا، و150 متر في الخط العمودي.

رمى بخيط صنارته بعد أن أثبت طعما لسمكة "باربو" وسددها وفق تلك الحسابات ذات الاحداثيات الدقيقة وكانت تسديدة بارعة، وحفز الرجل الأسود أن يفعل أيضا، فألقى بها كيفما اتفق وجنحت بقدرة قادر صوب النقطة المستهدفة.

– لن يستغرق الأمر أكثر من تدخين سيجارة.

قال له كاتب السيناريو، وأشعل واحدة، فامتثل الرجل الأسود للفعل وأشعل واحدة أيضا، دخنا معا، وحين شارفت سيجارتيهما المنتصف، توتر خيط الصنارتين معا، فسارعا إليهما، أرخى كاتب السيناريو الخيط وطلب من الرجل الأسود أن يفعل مثله، أرخى الخيط أكثر، ثم شرع في استدارة البكارة، وهنا بدأ الصراع مع الزنجورين اللذين تماوجا ذات اليمين وذات الشمال، وعلقا بالأعشاب السفلية، فأبدى كاتب السيناريو مهارة في المراوغة، وكان يقلده الرجل الأسود في كل حركة، ما يناهز نصف ساعة من ارخاء الخيط وسحبه والمراوغة يمينا وشمالا، وسارع الصيادون

إليهما، وتحلقوا يشاهدون الفصل الأخير من المعركة الشرسة، ثم سارعوا إلى إبداء المساعدة عندما وصلا الزنجوران إلى الضفة، وألقيا بشبكة كبيرة على الحوتين الضخمين، وسحبوا جميعا، وظفروا بهما. زنجوران بوزن 150 كيلوغرام للواحد، وطول يناهر المتر ونصف.

قفز الرجل الأسود في مكانه وجن جنونه، لم يصدق أنه فعلها، عانق كاتب السيناريو وقبل رأسه، ثم ركض باتجاه الفندق وهو يصيح ويرطن بأغنية الفوز، هناك جمع أغراضه ورحل في الحين.

خلص كاتب السيناريو الزنجورين من الشبكة وطلب من الصيادين إعانته على إرجاعهما إلى المياه، وهذا ما جعلهم مستغربين ومترددين، فألحّ عليهم في الطلب، وقدموا له المساعدة حتى أرجعهما إلى مجال حياتهما المنشود، فحمله الصيادون على الأكتاف يهتفون به وبنصره المبين.

في خيمته بتلك الليلة الفالقة، قرر أن يرحل صباح اليوم الموالي، وتنازل عن قيمة الجائزة التي خصصها الفندق لمسابقة صيد الزنجور، على أن يكون مقابلها هو أن يرى الغرفة التي نزلت بها ممثلة فيلمه "هاجر"، وأجل أمر اكتشافها للغد، حاول أن ينام مع منتصف الليلة، وما إن وضع رأسه على الوسادة، حتى سمع وقع أقدام على العشب، ونهض ليجس الأمر ووجد فتاة ثلاثينية بعينين ذئبيتين وشعر منفوش، ذات جمال بربري تقول له:

– كنت أعرف أن حادثة موتك مجرد خرافة.

كانت فتاة البيانو أخت صاحب النزل، التي شبه لها بصورة حبيبها عازف القيثارة، فهبت تعانقه وتقبله، وأبعدها عنها قائلا، عندي لك مفاجأة.

- مفاجأتي هي عودتك حبيبي.

مد يده إلى الكيس وطلب منها أن يذهبا إلى رأس البحيرة شمالا، حمل معه بطارية ومضى معها في ذهول وهي تعانقه وتقبله ماتزال.

بوصولهما إلى المكان الموعود، طلب منها أن تلبس بدلة الغوص تلك ولبس بدوره ثم حاول أن يقيس المسافة التي تركها له الغواص المريب، ولحقت به تتعقبه، وهما يتنفسان بقنينتي هواء على ظهريهما، لم يخطئ الاحداثيات التي تركها له الغواص الأجنبي، ووصل إلى موقع البيانو الذي تتراقص حوله الزناجير الضخمة، ودلها عليه، فارتعشت وانتفضت وابتهجت وسارعت إليه تتلمس أسنانه وحواشيه، ثم شرعت في الكبس على درجاته، وعزفت بأناملها المنعمة وحامت حولهما الزناجير، في دوامات وحشية، دوامات تشبه زوبعة، زوبعة عاتية ابتلعتهما وأتلفتهما واختفيا عن الأنظار.

السبت

كان مستلقيا على الرمل، عندما لمسته يد أنثى وأيقظته، كانت يد الممثلة الجديدة (سارة) التي تواعد معها على اللقاء بالمكان، رفع نظرته و لم يصدق ما رآه، رأى صحراء مترامية الأطرف، وبالقَرب منه بناية مردومة، التفت إلى المرأة وقال لها:

– أين البحيرة والغابة والجبل والفندق؟!؟

ابتسمت ووضعت يدها على ناصيته وقالت:

– أي بحيرة، وأي غابة وأي جبل؟ نحن تواعدنا على اللقاء في هذه الصحراء، للأسف، لم أكن أعلم أن فندق "الخالدون" هذا، قد صار طللا.

قالتها وهي تشير إلى البناية المردومة قريبا منهما.

17

أنهيت القراءة، وندّ مني زفير صاخب، دخنت وفكرت كيف تكتب فيرجينيا نفس مخطوط رواية صديقتي الفرنسية. مرقت المشاهد والصور في ذهني كفيلم مرعب متخيل، فالقصة مستنسخة تماما، وإن كنت قد قرأتها سابقا مرة واحدة ومنذ زمن بعيد.

هل يعقل أن يكون الأمر تخاطرا بين ذهن فيرجينيا وذهن الصديقة الفرنسية؟

أفزعني الأمر ووثبت في مكاني، تراجعت إلى الخلف وانكمشت، شعرت ببرودة فظيعة تلمّ بدماغي، كأنه سيتحجر، انتفضت أطرافي، وكادت تتجمد بعدها.

ثم بزغت في ذهني خيوط العلاقة الغامضة التي تجمعني كعازف سكسفون بالحداد الأصم صانع البيانو، صاحب سمفونية صهيل الحصان المرقط وكل أفراد سلالته الذين زاولوا الموسيقى بشكل فجائي غريب وطارئ، بمن فيهم النجار أب السمراء في الحكاية.

فكرت بالبيانو المترسب في قاع البحيرة الذي يشبه بصورة من الصور السكسفون الذي عثرت عليه بإحدى بحيرات ضواحي مدينتي "رانس"، وتساءلت عن حكايته الغامضة التي اصطفتني بطلا مأساويا لقدريتها الملعونة؟

وأشرقت وجوه كل من عازف الكمان الألماني هيرمان في حكايات ولد الفندق وعازفة البيانو، آنسة البحيرة، أخت صاحب النزل في رواية فيرجينيا، الرواية المطابقة لرواية صديقتي الفرنسية المنتحرة، والعجوز الكسيح، جاري بمدينة "رانس" الذي رأيته في أحلام هذيانية داخل عيني الكلب المبقع بالأبيض والأصفر والأسود، العجوز المقعد الذي صار عازف بيانو بقدرة قادر، بل وصار يعزف ألحاني التي أبدعتها بشكل خارق هنا على ضفة بحيرة "أكلمام أزكزا" ولم يغادرني وجه جدي عازف الكمان ووجه أبي عازف البيانو أيضا، هذا الذي كان يبتسم لي ابتسامة خرقاء نصفها ساخرة ونصفها دهشة.

فصام حاد يعصف بي، فرأسي منفصلة عني، وجسدي كتلة منفلتة.

شعرت بدوار، دوار، دوار جعلني أستلقي وأتقلب في مكاني ذات

اليمين وذات الشمال، دوار أعقبه صداع رهيب جعلني أصرخ من الألم وأنا ألعن كل شيء.

ثم نمت بساعة غامضة، كانت ساعة تشبه طلقة الرحمة.

استيقظت على نعيق غراب عند العصر، واحتدمت الرغبة في رشف كأس شاي بالخيمة البدوية، واتجهت مباشرة صوب الهضبة، فيما أصداء ماجنة لكل ما حدث تعصف بذهني. عندما عرجت على المكان الذي كانت تقيم فيه فريجينيا خفق قلبي بشدة، ووجدتني أهمس:

– سلاما أوديسا بجع الشمال.

وصلت الهضبة وفاجأني غياب الخيمة البدوية، خمنت ربما ارتحلوا حينما كنت مستغرقا في النوم، نبشت بنظراتي الولهى عن أثر لهم، وخابت محاولاتي، لم يكن في المكان إلا صفير رياح، وريش بجع يتطاير هنا وهناك.

– لقد وفرت علي مشقة المجيء إليك.

قال شخص من خلفي، وعندما التفت وجدت الصياد الأسمر صديق الصياد الأشقر يحمل مذكرة، وأردف:

– لقد انتهى موسم صيد الزنجور، ونحن بصدد تهديم خيمتنا كي نرحل هذا المساء.

أشعلت سيجارة وقلت له:

– يبدو أنه مساء الرحيل.

ابتسم الصياد الأسمر وقال:

– سترحل أيضا هذا المساء يا سيدي؟

رشفت نفسا وقلت:

– أعني أن الأسرة الغجرية أيضا رحلت من هنا دون أن أشعر بذلك.

– أي أسرة تعني يا سيدي؟

قال باستغراب، وجاوبته في الحين:

– خيمة الغجر الذين كانوا يقيمون هنا، ويقدمون الشاي للزوار.

رسم الصياد الأسمر علامات تعجب وقال:

– غريب، يا سيدي، لم تكن هنا أي خيمة، و لم يكن هنا أي غجر.

أربكني رد الأشقر، وجعلني أرتاب في الأمر، هل يعقل أنني كنت أتوهم ذلك، هل من المعقول أن تكون كؤوس الشاي التي شربتها هنا مجرد تهيؤات؟

لا لا لا، لم أصدق ذلك، وهدرت رأسي بانشطارات صفيقة، وتألمت كما لو أن برقا يعصف بذهني وانحنيت أشد جبهتي وأنا أئن وسارع إلي الصياد الأسمر وهتف بي:

– خيرا يا سيدي، ما بك؟

– لاشيء، فقط نوبة تجيء وتذهب لحالها.

قلت وأنا أجلس على عشب الهضبة، ثم جلس بقربي وقال:

– هذه المذكرة تركها لك صديقنا الصياد الأشقر، قبل أن يركض بجنون صوب الغابة المريبة خلف الجبل المسحور.

كدت أطلق ضحكة، وترددت في إمساك المفكرة، وفكرت كيف صرت بنكا عجيبا لاستقطاب رؤوس الأموال: أعني تلك المخطوطات والمذكرات. ماذا يظنونني، مشروع روائي، الملاعين.

هنا بزغت في بالي جمل الصياد الأشقر النارية، حول المصائر المتقاطعة وحبكة القصص التي ينسجها حضورنا المأساوي في مسرح البحيرة.

– خذ وديعتك يا سيدي، فلا وقت لدينا هنا، نود أن نعجل بمغادرة هذه البحيرة الملعونة، ولن نرجع إليها مرة أخرى.

تسلمت وديعته الحارقة، ووضعتها في جيب سترتي دون أن أفحصها، وترددت جملته الحادة بداخلي، وأدركني شعور حتمي بوشوك نهاية ما، وخلف تلك النهاية المحتملة، كنت أعي أكثر وأحدس بوجود مفاجأة صادحة أشد وقعا مما حدث حتى الآن.

رفقا برأسي المشطورة، أجلت اكتشاف مفكرة الصياد الأشقر، وتحاشيت الذهاب إلى الفندق الصغير برغم الجوع الذي يعتصر فراغ معدتي.

IV

18

أسدل الليل ستاره الفاحم، ولذت بخيمتي الصغيرة. في داخلي قرار صلب على أنها الليلة الأخيرة لي في البحيرة. وضعت المفكرة أمامي ودخنت، ثم فكرت طويلا بأمر فحصها. كانت رغبتي منقسمة حول ذلك إلى شطرين، شطر يقول: اترك عنك المفكرة اللعينة ويكفيك كل ما تكبدته رأسك حتى الآن من لعنة الحكاية، وشطر آخر يحفزني على فتحها، هاجسا لي: ثمة أسرار مدوية ستنكشف لك في المذكرة.

لم أستطع أن أطرد وجه الصياد الأشقر، المرسوم في مخليتي وهو يقهقه، ساخرا، يستفزني على القراءة.

ألقيت بعقب سيجارتي بعيدا وتلقفت المفكرة بتوجس، ثم غامرت بفتحها، وطالعتني ورقة صغيرة مطوية، بسطتها وكانت رسالة، وقرأت:

(مروض الزناجير الخرافية

الساكسافوني اللاذع

صديقي العازف المريب

وعدتك بكشف حكايتي الأخرى لوجودي المريب هنا على ضفة البحيرة. والمسألة ببساطة هي مشروع كتابة رواية حول صيد سمك الزنجور، تكون البحيرة موضوعها المركزي.

ما إن شرعت في الكتابة، حتى وجدتني أكتب قصة طويلة مختلفة، غير تلك المرسومة بدءا في ذهني. أعني أن قدرا آخر للكتابة ذهب بي إلى شيء آخر، وإن كان له علاقة بشكل من الأشكال بمسرح البحيرة. أجل أخفقت في كتابة نص حول امبراطور الغياهب: الزنجور المرقط. وألفيتني أكتب قصة متخلية (سيناريو ضمني بالأخرى) حول أسرة غجرية، عبرت وجود هذا المكان وتركت صدى غائرا في مخيلتي.

لا أعلم لما أترك لك هذا المخطوط يا صاح، فليس وعد اطلاعك على حكايتي الأخرى كما أشرت أعلاه هو السبب الدامغ، بل هناك شيء غامض يجعلني أعتقد بأن هذا السيناريو (ستلاحظ أن القصة مكتوبة بطريقة سيناريو ضمني كما ألمعت أعلاه) أو الرواية القصيرة، أو القصة أو لنقل مشروع رواية، أقول أعتقد بأنها تعنيك، أجل تعنيك أنت بالذات.

فكما وجدت لي مفتاحا سحريا في عزف سكسفونك المجيد والعاتي، أظن أنك ستجد مفتاحك السحري أيضا في مخطوطتي هذه: طريق أزغار.

وهذا ما كنت أعنيه في لقائنا الأول، عندما قلت لك:

عندي إحساس غريب، بأن شيئا غامضا تماما يجمع طريق ذاتي وطريق ذاتك أكثر مما يفرقهما!

ولم يكن صيد الزنجور المرقط هو ما يجمع طريق ذاتي وطريق ذاتك على كل حال، لنقل أنه محض ذريعة فقط.

فشكرا على رنين الحقيقة المدوية:

هنا أحلام الطفولة. هنا أحلام الأبدية.

عم مساء، صديقي.)

اكتفيت بقراءة الرسالة مرة واحدة وابتسمت رغما عني بخبث وخمّنت:

فيرجينيا كانت ستكتب سيناريو فيلم ووجدت نفسها تكتب رواية بشكل مفاجئ، وهاهو الصياد الأشقر نفسه يعزز غرابة الفعل ويعترف بأنه كان سيكتب عن سمك الزنجور المرقط لا غير، فوجد نفسه دون أن يعي ذلك يكتب مشروع رواية أو قصة سيناريو لا علاقة لها بما رسمه في

ذهنه، وعكس ما فكر فيه كتب عن شيء نقيض يمت لي بصلة وثيقة!!!

أي لعبة مجنونة هذه!

أي دوامة محبوكة من قهقهة أزلية بالأحرى!

بل أي بحيرة مسحورة وملعونة هذه حقا!

تساءلت بحدة، واحتدمت الرغبة في اكتشاف المخطوطة: طريق أزغار.

رفعت مصباح البطارية الأزرق، وشرعت في القراءة...

طريق أزغار

تزحف عظاءة (الوزغة) على صخرة بيضاء شاهقة، تنتصب على الحافة ويتوتر عنقها المرقش من فرط التفاتها ذات اليمين وذات الشمال. بعينين مريبتين تمسح المشهد البكر للفجر المغسول بصمغ الحلزون:

تشحج الغربان في سماء غائمة. تحلق منخفضة وتعلو. تعلو وتنخفض. تحط على شجرة سنديان منفردة وسط الأرز الداغل. شجر سامق يطل على بحيرة "أكلمام أزكزا". يعقب الشحاج عواء كلب أجرب، كأنما يرد على رطانة الغراب بفصاحة النباح.

فوق صوت النعيق ونباح الكلب معا يعلو صدى عزف كمنجة من قزدير، هي لطفل في العشر سنوات يجلس على صخرة ووراءه قطيع غنم شارد الأطراف.

الصباح المندّى ينفطر عن صحوه عبق الغابة ورائحة غامضة لشيء طارئ على أهبة الحدوث. يرنو الطفل إلى الخيمة المهترئة على الهضبة ويتذكر وضع أمه المأزوم وتندّ منه آهة ترقب.

في جوف الخيمة ذات الإضاءة الطفيفة المشفوعة بدفء فرن حديدي مهترئ في الوسط، يعتليه مقراج أبيض يصدر صفيرا حادا، تنام امرأة في الأربعين عند الركن، ببطن منفوحة تئن أنين المخاض وهي على أهبة أن تلد. أمامها تجثو فتاة في الثلاث عشرة من عمرها بعينين زرقاوين تبدو فزعة وهي تتابع المخاض العسير وتترقب لحظة الولادة.

لم يكن صباحا عاديا، فأنين مخاض المرأة الحبلى وصفير المقراج ونعيق الغراب ونباح الكلب وصرير الكمنجة لا يحول دون سماع صوت أقدام رجل قريب من الستين تدهس الورق اليابس وترفس العساليج التي تؤثث الشعاب في وسط الجبل المطل على الخيمة والبحيرة. الجبل الذي تكتسحه أشجار الأرز والبلوط والعرعار والصنوبر... إلخ. يتوقف صدى مشيه بغتة على الورق الهائل والحصى والخشخاش إذ يسمع صرخة حادة من الأسفل. يترك كومة الحطب الذي كان يشده برسن جارح إلى ظهره المقوس ويركض لاهثا إلى أسفل.

على سفح الهضبة المعشوشبة بنبات إهليليجي، يركض الطفل أيضا صاعدا إلى الخيمة وقد ترك كمنجته المصنوعة من القزدير على الصخرة المبللة (صنخرة ينمو على سفحها صعتر أبيض).

من ثلمة الخيمة تخرج الفتاة رأسها وهي تصرخ ناحبة:

– (ويلتاه ماتت أمي،

... رحلت أمي!)

خلف صوتها الزمردي الذي ينعي موت أمها يصعد صوت بكاء طفل وُلد لتوه.

على شمال الهضبة حيث حلّ المساء الرصاصي بشجنه المثقل، أقلع موكب جنازة بائسة يبدو فيها الغروب شفقيا حزينا صوب مقبرة معفرة لا يظهر في رسمها الممحو إلا بضع قبور مجهولة لا تتعدى أصابع اليد، قبور يعمدها نبات الصبار ويتناسل في أحجارها شوك زقوميّ الشكل بإبر منتصبة موجهة ضد عدوّ وهمي. على حاشية حفرة محدثة يقرفص فقيه أعمى يرتّل ما تيسر من الذكر الحكيم ونظرته شاخصة على الرجل الستيني الذي يدرّ التراب فوق جثة زوجته، فيما طفل العشر سنوات يبكي دون صوت، بدموع حارقة، وغير بعيد ترابط صبية الثلاث عشرة سنة قريبا من الخيمة وهي تحمل الرضيع مجهشة ببكاء ينقله صوتها الحاد أكثر من اللازم ويتقاسم الرضيع معها النحيب وهو يملأ سماء اللحظة الفجائعية بثغاء متواتر.

داخل جوف الخيمة الغجرية، حيث أسدل الليل سلهامه الفاحم كان المقراج يصفر مايزال على الفرن والفتاة ذات الثلاث عشرة سنة تحاول إرضاع الوليد بنهدها الصغير. يشحب وجهها لأن نهدها لا يدر حليبا، فتصنع رضاعة بقنينة صغيرة تضع في رأسها ثوبا على شكل مثلث. يرصدها طفل العشر سنوات مذهولا ويتأملها وقد صارت أمّا قبل الأوان بينما ينزوي الأب إلى فراشه وهو ينذرهما قائلا:

– لم يبق لنا ما نفعله هنا، غدا نحمل أغراضنا ونرحل.

ندّت منه أنفاس خشنة وتابع:

– أمكم من كانت يربطنا بهذا المكان لبّتْ نداء السماء، فليرحمها الله، إن بقينا هنا سيدركنا الشتاء والثلج، وتموت خرفاننا شرّ ميتة.

يدخل في فراشه مبتهلا ويترك الفتاة والطفل يحدقان في وجهيهما، ويغرقان في ذهول وعبوس.

مع انقشاع أول خيوط الفجر، يظهر طفل العشر سنوات على الهضبة حيث قبر أمه. يقف بقدمين حافيتين على بقعة سرخسيّة، يعزف كمانه وهو يؤدي أغنية مرتجلة من إبداعه:

تركتينا لوحش الشتاء أمّاه!

فجأة تحط يد أبيه الخشنة على كتفه كما لو كانت غرابا. ينزع منه الكمان المصنوع من علبة بنزين وهي من القزدير ويهشمه على حجر ملفوف بالنّقرس، صارخا في وجهه:

لا ينقصك إلا كمنجة كهذه كي تصير مهرّجا

أمك أكرمها بتلاوة القرآن أيها الوغد

أما الموسيقى فلم تخلق لبؤساء مثلنا،

ثم أمك تريدك أن تصير رجلا صاحب شأن

لا أن تنحب عليها مثل النسوان

انصرف كي نجمع الأغراض ونرحل بسرعة.

مع لحظة الصباح المنكّهة برائحة الجلجلان تنتصب عظاءة (الوحرة) على صخرة بازلتية وهي تحدج الطريق بعينين لاذعتين.

تشرع قافلة صغيرة بالرحيل من جانب البحيرة باتجاه الجنوب. الأب الستيني في المقدمة يقود بغلا محمولا بخيمة مع كل معداتها الثقيلة. خلفه يدب حمار مثقل كاهله ببقية الأثاث. تليه الفتاة ذات الثلاث عشرة سنة تحمل الرضيع على ظهرها. ثم قطيع الغنم الذي يتخلف وراءه طفل العشر سنوات وهو حزين على انكسار كمنجته، ويتعقبهم الكلب المبقع بالأبيض والأصفر والأسود، يركض ذهابا ورجوعا بين رأس القافلة وذيلها.

على ضفة نهر – مزدهرة بشجر الرمان والدفلى والسفرجل والعنب والزيتون – وبعد مسيرة ثلاثة أيام نزولا من الجبال العاتية. يقترح الأب أن يقيموا الخيمة في المكان على حافة المياه، مؤقتا قبل مواصلة الرّحيل نحو أزغار.

الفتاة منصرفة إلى شؤون الرضيع، وطفل العشر سنوات يساعد أباه في تشييد الخيمة على أرضية زعفرانية، الخيمة الغذافية التي استغرق انتصابها البهيج أكثر من ساعة.

حلّ المساء بلون زنجاري.

طفق الطفل يجرب حظه مع النهر، محاولا أن يصطاد سمكة بخيط مهترئ وشص صدئ يحتفظ به في جيبه. وبين الحين والآخر يتناهى إلى

مسمعه صوت بلطة الفأس، حيث الأب يحتطب على هضبة قريبة، ذات خبازى وخردل ونعناع بري وخس قطني، فبرغم انفراط الصائفة القائظة وبرغم الخريف الكاسح الذي يلهث على أهبة المغادرة، فالأرض ماتزال تدخر طراوة وألق الربيع الذي أفل، وهروب الأسرة الغجرية إلى سهل أزغار ليس سببه الدامغ هو انعدام الكلأ، بل ضراوة الشتاء وفداحة الثلج في الجبال السامقة.

تشرع فتاة البحيرة في إضرام النار داخل الفرن بأعواد السدر في انتظار مجيئ الأب بحمولة الحطب السندياني وفي نفس الوقت تهيئ الطحين لإعداد خبز، بيد أن الرضيع يفوت عليها ذلك بالبكاء المتواصل الذي يتردّد صداه في صرود الأعالي.

أخيرا يعود الأب ومعه حمولة من أعواد البلوط. ينادي على طفله ويرمي إليه بقنفذ اصطاده بمعونة الكلب المبقع بالأبيض والأصفر والأسود. يمسك الأب برضيعه ويطلب من فتاته أن تحلب النعجة بدل المعزاة قائلا:

– حليب المعزاة أقوى وقد يقتل الرضيع.

قالها متيقنا من أن نهد الفتاة لا يدر حليبا.

ما هي إلا ساعة حتى أسدل النهار جفنه وادلهم ليل الوادي فانهمكت الزيزان تلهج بأزيزها مؤثثة الفراغ الطارئ بين صمتات الهدير الفجائية. تحلق ثلاثتهم حول المائدة الصغيرة داخل جوف الخيمة، وأخذ الأب

الستيني يمتص عظام القنفذ ساخرا من ابنه:

– عوّلنا عليك كرجل، كي نتعشّى سمكا.

الطفل يستلذ طعم لحم القنفذ ولا يستلذ سخرية أبيه ويجيب بتوجّس:

– أنا صيّاد بحيرة ولست صيّاد نهر.

يضحك أبوه بشكل صفيق ويعلق ساخرا بحدّة:

– الصياد صياد، سواء كان صياد بحيرة أو صياد نهر.

والسمكة سمكة، سمكة نهر كانت أم سمكة بحيرة.

تحاول الفتاة الصّغيرة أن تبتسم بخفر ناظرة إليهما معا في غرابة وهي تحضن الرّضيع. يرمقها الأب بطرف مقلته ويصيح فيها:

– لن نغادر النّهر حتى نضع له إسما.

ينهض دون أن يغتسل كعادته ويندسّ في فراشه. يربّت بيده على كتف الصبية ويقول لها قبل أن يغطي وجهه:

– أنت من سيسمّيه يا فتاة البحيرة.

ويغطس مثل فقمة هرمة في بركة النوم.

مع انقشاع أوّل خيوط الصّحوة البكر، على تخوم الفجر الجليل، ينهض الأب ليؤدّي صلاته معجّلا بذلك كما كل مرّة، وإن كان يهملها مرّات، ثم يوقظ ابنه الصغير، ويأمره باخراج القطيع مسدّدا له كلمات توصية حرّى:

– أوصيك خيرا بالخيمة فقد صرت رجلها الآن،

سوف أذهب إلى الضفّة الأخرى حيث السّوق كي أجلب السكر والزيت والشاي وأقفل راجعا عند المساء.

يخرج الأب الستيني وهو يرفع جلبابه على كتفه مشمرا ساعديه كما لو سيسلخ معزاة، يضع بردعة مبقرة البطن على البغل ويمتطيه ولا يغادر المكان إلا بعد أن يطمئن على إخراج الابن لقطيع الغنم.

طقطقة حوافر البغل في الشعاب – المخضبة بالتبن وبقايا نبات شوكي يستعمل ضد سم الأفاعي والعقارب – يعقبها بكاء الرّضيع في الدّاخل.

بعد أن يطمئن الطفل إلى غياب الأب ينزل تاركا القطيع للكلب الذي يتبول على شجرة الإلب، ويركض. وتخرج البنت المعسولة من الخيمة لتلتقط رزمة أعواد يابسة من كومة الحطب المكدسة قريبا من نبات الرند، وترجع الى الداخل كي توقد الفرن وتقوم بتسخين حليب النعجة.

تطل الشّمس على الوادي المضرج بتين الشجر العابس، وتضيء عتمته الخضراء، وتتراقص مرايا انعكاساتها الراقصة على وريقات الصفصاف وعلى النهر الطاعن في الهدير والموغل في الزبد.

ينهمك الطفل في البحث عن شيء ما. يبحث هنا وهناك حاملا فأسا صغيرة. ينبش في الوادي المزمخر بأكمة التوت البري، ثم يقفز متخطيا لأبنوسة. يرقص بقدميه فوق نبات العفرج. يصرخ. عندما يعثر على علبة بنزين قريبا من جرار مهترئ نافق على سفح شجرة إجاص. علبة من صفيح تصلح لكمنجة جديدة. يركض باتجاه شجرة بلوط ويشرع في قطع غصن من الشجرة بالفأس الصغيرة ثم أخذ يشذبه ليصنع يد الكمنجة. بعدها راح يبحث عن شيء آخر خلف شجر اللوز. نزل الهضبة المخضلة بشجر الخوخ. صعد أخرى تصخب فيها أجباح النحل. ثم اهتدى الطفل إلى وجود بيت منعزل على الهضبة الثالثة التي تطل على النهر دائما. وهناك ابتسم حين لمح حصانا مرقطا مقيدا إلى شجرة أوكاليبتوس. وتسلل بكل خفة مع غياب كلاب البيت وأخذ ينتف من ذيل الحصان خيوطا، فيما الحصان يتحرك ويحمحم وعلى أهبة أن يجفل.

حين ظفر الولد الشقي بكمية الخيوط نزل مغتبطا بين أشجار الأُتم (شبيه بالزيتون) إلى ضفة النهر من جديد.

عاود الطفل النبش في مكان تعتوره نباتات بقولية تشرئب فوقها عيدان رفيعة أشبه بحبة الحلاوة وأخرى أشبه بالبسباس وراء الخيمة وجلب خيوطا سلكية ثم شرع في ابتكار كمنجته من جديد وقد سها عن القطيع تماما.

ما إن بدأ بتجريب عزفها تحت شجرة خرنوبية حتى خرجت أخته "فتاة البحيرة" وهي تهمس له أن يصمت موبخة إياه:

– اصمت، ستوقظ الطفل، اذهب بعيدا واعزف صفيحتك في الغابة، لم أنوّمه حتى كاد يزهق روحي.

على أهبة أن يمتثل لرجائها وتوبيخها. وقفا معا مندهشان لنزول شاب في العشرين مع صبية صغيرة يناهز عمرها التسع سنوات من الهضبة التي ينتصب فيها البيت الأعزل والحصان المرقط.

دون أن يسلّم الشاب الذي يبدو من لباسه الأنيق أنه ابن مدينة، وضع أعمدة رفيعة ونصّبها على صخرة ينقشع من جنباتها نبات مقدنوسي، على أكتاف الأعمدة وضع لوحة بيضاء، ثم نصب قصبة أخرى قريبا وهي صنارة صيد ألقاها في النهر، وجلس على كرسي مغروزة أقدامه في طين مبلل يفيض عليه حبق الماء وأخرج سيجارة، أشعلها وهو ينظر باعجاب وتمعّن بنظرة شاخصة إلى الفتاة المطلّة من ثلمة الخيمة.

غير بعيد تقرفص الطفلة الشقراء ذات التسع سنين إلى جانب نبات خرشوفي، تنظر إلى الطفل الذي يمسك بكمنجة بدائية وتقول له بلسان ألثغ:

– تركناك تسرق خيوط ذيل الحصان لنعرف ماذا ستصنع بها!

انتباهه ذعر، ثم ابتسم متفاجئا وهو يرفع قوس العزف الذي صنعه من تلك الخيوط.

– هذا غير متوقع أيّها الشقي. لهذا، نغفر لك السرقة الجميلة. وسنغفر لك حقا إذا صرت عازف كمان ماهر.

تبتهج ملامح الطفل، ويضحك للثغ لسانها بتلك الأمازيغية القارسة.

تتسمر "فتاة البحيرة" في عتبة الخيمة بينما يشرع الشاب الأنيق في تخطيط شيء على بياض اللوحة.

غير بعيد، تقف الطفلة ذات التسع سنوات بعد أن تعبت من القرفصة أو أزعجها وخز النبات الخرشوفي بالأحرى. تدنو من الطفل صاحب الكمنجة وتطلب منه أن ترى وتفحص الآلة الموسيقية، ومقابل ذلك تمنحه دفترا صغيرا مع أقلام ملونة.

يتلقف الطفل الدفتر في غاية الحبور ويجلس على حجر يعتليه الشوكران ويشرع في تخطيط علامات وتجريب مختلف الألوان، فيما تمسك الطفلة ذات التسع سنوات الكمنجة وهي تفحصها وتتأملها باعجاب.

بعد أن ينجز الشاب الأنيق خطوطا في لوحته وقد أنهى تدخين السيجارة. يطوي الأعمدة الرفيعة ويجعل اللوحة في حقيبة صغيرة، وعندئذ تكون فلينة الصنارة قد غمزت، فيسرع إلى القصبة وبرشاقة يرفع الخيط ويمكر بسمكة حمراء يرميها إلى الضفة فوق صخرة بازلتية.

يلوّح إلى "فتاة البحيرة" الواقفة باندهاش على عتبة الخيمة كي تقترب، ويدنو كل من الطفل والصبية ذات التسع سنوات، هذه الأخيرة تصرخ في وجه أخيها:

– أعدها الى الماء فورا. انظر كيف تتألم المسكينة. أنقذها أرجوك.

يضحك الشاب الأنيق ويقول لها بنفس اللهجة :

– لا يعقل أن أرد سمكة نادرة أود أن أهديها لهذه الغجرية الإستثنائية.

تستدير الطفلة غاضبة وهي تقول :

– فليقضم الجحيم وجهك أيها الآثم.

الطفل ذو العشر سنوات مع أخته ينظران بدهشة وهما لصيقان بشجرة أرجوان.

يطلب الفتى الأنيق من "فتاة البحيرة" أن تدنو أكثر يشد على يدها وتسحبها، يقول لها :

– لا تخشيها ولا تخجلي، فهي لك.

يعاود إمساك يدها وينظر بامعان في عينيها الزرقاوين ويجعلها على السمكة التي لفظت آخر أنفاسها.

لحظتئذ، كان الأب الستيني يترجل من صهوة البغل في سوق القرية وهو يسلّم على رجل من سنّه في جلباب أزرق مهترئ ومعه فتاة في الثلاثين من العمر وحولهم تصطفق أصوات باعة التمر والأثواب والأعشاب والحلايقية (فنانو الحلقة) و....

بعد السلام والتحية يرحّب بهما الأب الستيني ويدخلون إلى خيمة

بعد أن التحق بهم رجل أشيب من عمرهما داخل خيمة هي مقهى سوق أسبوعي.

على زربية حمراء محبوكة من أشكال بدائية يهيمن فيها رمز السمكة وحافر قدم الأسد، يقتعدون جميعا ويطلب الأب الستيني من صاحبة الخيمة أن تعدّ إبريق شاي كبير، ويخرج من قبّ جلبابه قالب سكر مع كيس حناء صغير وثوب كتان أبيض ومعه بعض الكحل النسائي ويقدمهما إلى الرّجل صاحب الجلباب الأزرق صائحا:

– خذ يا أخي... شيء متواضع.

يتوسطهما الرجل الأشيب وهو يستفسرهما بعينين دائختين:

– هل هذا هو الزوج؟

– بلى، هذا خطيب ابنتي.

يجيب صاحب الجلباب الأزرق.

– هذه هي ابنتك ؟

– أجل هي مخطوبة صديقي هذا بإذن ربي.

يطلب الأب الستيني مهلة قائلا:

– سنحتسي الشاي أولا قبل أن نضرب كاغد الخطوبة.

تأتي صاحبة الخيمة بالصينية والبراد وينبري له الأب ممتحنا طعمه،

يستحلي نسبة السكر فيه، يصب لهم ويمد لهم الكؤوس واحدا واحدا. عندما يصل دور الفتاة الثلاثينية يسدد لها نظرة صقر عجور، وترمقه بطرف عينها الكستنائية، نظرة فيها خجل وخوف ونسبة الرضا فيها ضئيل.

يشرعون في رشف الشاي، ويتبادلون حياكة حوار مقتضب:

- موسم الشتاء سيكون ضاريا هذا الموسم.

- ليكن عاما مجللا بالبركة ومشفوعا بالرخاء.

يعجّل الرجل الأشيب وهو "عدول" عملية الخطبة بعد أن أبدى الرجل صاحب الجلباب الأزرق رضاه بالصداق الرمزي وينخرطون في قراءة الفاتحة.

يغادر الرجل "العدول" المكان وقد منحه الأب الستيني قطعة نقدية ويرجع للرجل صاحب الجلباب الأزرق الكالح ويتفق معه على مكان يلتقيان فيه بعد أيام. ويفترقان خارج الخيمة.

تجنح شمس النهار إلى مغيب حقيق.

"فتاة البحيرة" تحمل الرضيع والشاب يمسك بيدها محاولا تلقينها كتابة إسمها على ورقة من الدفتر.. بكاء الرضيع يحول بينها وبين ذلك بالكامل.. يقول لها مندهشا:

- مدهش، خطك جميل وإن كنت أول مرة تكتبين.

تضحك وتقول له بخجل:

– يا له من كذب جميل.

يجيبها توا:

– بلى، ستتعلمين كتابة الرّسائل أيضا وهذه مجرد بداية فقط.

– الطريق أطول مما تتخيل .

تؤول الشمس إلى أفول شامل.

لصيقا بشجرة البشام تلعب الطفلة الطفلة الشقراء مع الكلب المبقّع بالأبيض والأسود والأصفر، ويتذكر طفل العشر سنوات قطيع الغنم، بعد أن حدس برجوع الأب كما أخبره صباحا. يسلم على الطفلة بعجل ويهم بالرّكض نحو الهضبة فيتعثر بنبات القتاد. تضحك الطفلة، توقفه وتمنحه الدفتر وأقلام الألوان كهدية. يتبسم في غمرة ابتهاج وخجل ويقول لها:

– غدا أردّها لك بهدية أيضا.

تقول له مبتسمة:

– الهدية الحقيقية التي سأجلبها لك في العطلة القادمة هي أن أشتري لك كمانا حقيقيا من المدينة.

لايصدق ما لفظته الطفلة الشقراء ويركض صوب الهضبة كي يلملم القطيع.

غير بعيد، تقف فتاة البحيرة على عتبة الخيمة مشيّعة الفتى الأنيق وهو يصعد مع أخته الصغيرة. يلتفت إليها ويقول:

– أراك غدا.

تبتسم بخجل ولا تصدق ما حصل بتلك اليومية الغائمة.

يهرق الليل سطل صباغته السّوداء.

يباغت الأب الستيني ابنه ببعض الحلوى ويمنح الفتاة رضاعة اشتراها من السّوق ويسألها عن اليوم كيف مرّ معهما. يفرحان بالحلوى والرضاعة ويرتبكان في الجواب.

– هل يعقل أنني أشم رائحة سمك؟

يقول لهما بحماس.

يلوذان بصمت متوتر.

يرفع غطاء الطاجين الذي تعده فتاته على الفرن ويدلق صفير إعجاب مندهشا:

– من أين لكم بهذه السّمكة الحمراء؟

– أخيرا اصطدتها. حتى أكون جديرا بلقب صيّاد النّهر أيضا.

قال الولد لأبيه مقترفا كذبة بيضاء.

تتفاجأ الفتاة برد أخيها الشقي وتعرب في صمتها عن تواطئها معه في الكذبة.

على مائدة العشاء وهم يتلذذون بنكهة لحم السّمكة ينذرهما الأب الستيني قائلا:

– بعد غد سنستأنف الرحيل إلى أزغار.

يمضغ بمشقة ويردف:

– منذ زمن لم أصلِّ الجمعة في المسجد، غدا سأفعل.

يشرب من فم المقراج وينزوي إلى الركن ينظر للفتاة ويتمتم:

– احتفظي باسم الولد حتى نصل أزغار ونقيم له حفل عقيقة.

ينزلق كتمساح عجوز تحت الفراش وقبل أن ينهي الطفل والفتاة مرق الطاجين يأتيهما شخيره الغفير فيضحكان.

تتكبّد الشّمس سماء النّهار المرقشة بغيوم سخامية.

يلبس الأب الستيني جلبابا أبيض مائلا الى الإصفرار من فرط الاهتراء ويغادر الخيمة نحو مسجد صغير وراء الهضبة الشمالية في البادية الجاثمة في آخر الوادي.

– انتبهي للخيمة والرضيع لحين عودتي من صلاة الجمعة.

يقول لفتاة البحيرة.

بعد أن يغادر الأب الستيني المكان، ينزل الطفل مهرولا من أعلى الهضبة المحاذية تاركا الغنم للكلب المبقع بالأبيض والأصفر والأسود. يتزامن هذا ونزول الشاب الأنيق مع الطفلة الشقراء إلى ضفة النهر.

يهجس الشاب الأنيق ما إن يصل حافة المياه الصاخبة:

– حلمت أننا التقينا في مدينة بعيدة وسط حشد من الأطفال.

ابتسمت فتاة البحيرة، ساهمة بغرابة ثم أجابته:

– حلمت أيضا، أننا التقينا بعد زمن، في قبو، وسط لوحات وألوان وصباغة.

ابتسم، ودنا منها قائلا:

– عندي حدس قوي، سيكون لك شأن كبير في المدينة.

يتورد وجهها ويشحب في آن، بينما يستأنف كلامه:

– أجل، ساحرة صغيرة وأميرة مثلك مكانها في ضوء المدينة وليس في عتمة البراري.

تبتسم بأسى وتنبس:

– مثلي خلقت لتشيخ في طفولتها وتصير كهلة قبل الأوان.

ينظر إليها بتمعن وهي تضيف:

– عندي شعور كاسح يقول: غير مقدر لي أن أرى المدينة أصلا.

– لماذا هذا الحزن اللاطائل منه؟

يقول لها بحدّة.

– إنه قدري أن أصير أمّا رغما عني لطفل هو أخي، كما أعلم أن حكاية مأساوية بانتظاري مع هذا الأب الفظ.

تضيف له بنبرة حزن مضاعف.

يرون صمت ثقيل، يكسره نعيق غراب بعيد مشفوع بصيحة ديك مخبول.

غير بعيد عنهما، يدنو طفل العشر سنوات من الطفلة الشقراء ويرسم ابتسامة مرددا بارتباك:

– حلمت ليلة أمس، أننا التقينا وقد كبرنا في مدينة من الألوان. وكان هناك صوت مرتفع من بكاء الأطفال المولودين للتو. للأسف لم تتذكريني ولم تعرفي وجهي في الحلم.

ضحكتْ وشبكت أصابع يديها معا من الخلف ثم قالت له:

– وأنا حلمت أيضا، أنني التقيتك في مسرح وأنت تعزف كمانا كبيرا ولما اقتربت منك في آخر السهرة لم تتذكرني أيضا.

يضحكان معا.

تغرق الشمس في حقل الغيوم المتماوجة، ويصعب حدس الوقت بتلك اللحظة وإن كان ظهرا.

يشيع صمت باذخ يقطعه نباح الكلب مع نعيق غراب في الأعالي.

– ما رأيك لو تذهبين معي الليلة، الليلة أسافر وأسرتي إلى المدينة.

يقول الفتى الأنيق بشكل مباغت لفتاة البحيرة .

يمتقع وجهها وتقول له بتشوش:

– لماذا الليلة؟

يجيبها:

– العطلة انتهت هنا ويجب أن أرجع لدراستي.

تسأله:

– ماذا تدرس في المدينة؟

يجيب مبتسما ولاثغا:

– فن الرسم.

بدا على وجهها أنها لم تستوعب ما قاله و لم تستفسر عن ذلك وأردف هو:

– لا نأتي إلا لماما في عطل بعينها وقد لا أرجع إلى النهر إلا بعد سنة.

يلمّ بها حزن فاقع وتصمت ساهمة في داخلها.

يداهمها بسؤال ويقول:

– وأنت كم ستقيمين هنا وإلى أين ستسافرون فيما بعد؟

تجيبه بتوجس:

– نحن لا نستقر في أي مكان.

يسألها في استغراب:

– كيف ذلك؟

تجيبه بيقين راسخ:

– نحن رحّل.

تصمت قليلا ثم تضيف:

– غدا نسافر فجرا. وأمامنا طريق شتائية طويلة نحو أزغار.

يتلبّد وجهه حزنا وهو يردّد:

– أزغار.. أ ز غ ا ر ر ر.

يستشري صمت جرانيتيّ، يكسّره بكاء الطفل الحاد على ظهرها.

تستأنف الشمس اختفاءها البغيض في مهرجان الغيوم المدلهمة.

تلتقط عين الطفلة الشقراء تفاصيل المشهد وتلملمه ثم تنبس كما لو تصلي:

– الليلة نسافر إلى المدينة، اشتقت لدبدوب.

يرتعش الطفل ذو العشر سنوات ويسأل لاهبا:

– من يكون دبدوب؟

– دبدوب، دب كبير أبيض وأسود ينام معي في سريري.

يمتنع عليه الابتسام هذه المرة ويسأل في ذهول:

– ينام معك في سريرك؟!؟

– هو ليس دبا حقيقيا، هو نونوس كبير الحجم يؤنسني في غرفتي الصغيرة.

تجيبه فورا وهنا تتحرر غيمة وجهه ويضحك متمتما:

– مع الفجر سنسافر أيضا؟

– وأين ستسافرون؟

– مكان بعيد في السهل يدعى: أزغار.

– تقصد أنكم ستسافرون إلى بيتكم هناك؟

تسأله ولا يشعر بحرج وهو يجيبها ببرود:

- بيتنا هو هذه الخيمة المتنقلة.

تصمت مستغربة وتسأله:

- و لم تضطرون للذهاب إلى هناك، أليس هذا المكان أفضل؟

- جئنا من أعالي الجبال مخافة أن يداهمنا غول الشتاء. إن كان ثلج الجبال يقتل البشر هناك فكيف الحال مع البهائم والخرفان؟!؟

- لماذا لا تسافر معنا الليلة إلى المدينة ؟

- أحلم بالمدينة دائما. كنت أحب أن أدرس كي أصير معلما، أما الآن فرغبتي هي أن أصبح عازف كمان وفقط.

- فلتذهب معنا الليلة إذا.

- تقصدين أن أهرب معك؟

- تذهب أو تهرب الأمر سيان، المهم أن تسافر إلى المدينة.

- وهل تظنين الأمر بهذه السهولة؟

- كيفما كانت الأمور، فهي سهلة علينا نحن الأطفال.

- ليس كذلك عندي، لأنني لا أشعر بأنني طفل أصلا. أشعر بأنني هرمت حتى وأنا كما فرخ قبرة .

- لا ينبغي أن تقول مثل هذا الكلام.

– ليس أنا من يقول هذا الكلام. بل قدري وحياتنا الفظة بين الجبل والسهل من يقول هذا.

يصمت ويرجع ليستأنف مردفا:

– لمن أترك هذا القطيع وهذا الكلب، ثم أختي والرّضيع؟

تدلهم لحظة النهار ويتلبد لون الظهيرة.

يستأسد صمت ثقيل المكان إلا من هدير المياه الشعواء واندلاق شحاج غربان متراقصة في تخوم الغابة.

يدس الفتى الأنيق يده في سترة قميصه ويخرج شيئا يمده إلى فتاة البحيرة متمتما:

– هذه هدية صغيرة لك.

تمسك بالشيء الملفوف في علبة خجلة ولا تعرف ماذا تقول له غير:

– ما ألطفك، شكرا.

– سأنتظرك الليلة إن غيرت رأيك؟

يقول لها وهو يكاد يتحد بزرقة عينيها ويندمغ فيها.

يعاود الصمت اعتناق الهواء والفضاء وتصر الغربان كسر صلابته بنعيق مبتهج.

يدس الطفل ذو العشر سنوات يده في جيب سرواله ويخرج دمية من قصب، يمدها إلى الطفلة الشقراء وينبس:

- هذه عروسة من قصب صنعتها لك هذا الصباح.

يغرق وجهها في مسرّة ويتورد ثم تقول له هذه المرّة لاثغة:

- merci. merci. merci

ثم ما تني تدس يدها أيضا في حقيبة صغيرة لها وتخرج شيئا تمده قائلة:

- هذا مذياع صغير، أهديه لك كي تستمع للأغاني جيدا وتعزفها بمهارة.

يغرق وجهه في دهشة وابتهاج.

يتجهّم لون المياه وهو يعكس رماد اللحظة.

تغادر الطفلة الشقراء والرسام الأنيق ضفة النهر وهما يصعدان الهضبة باتجاه البيت الأعزل في الأعلى ويشيّعهما الطفل وفتاة البحيرة على عتبة الخيمة، بينما تجهش عاصفة بهدير في سماء الغابة الداكنة كأنما تتوعد ما تبقى من النهار بوابل من المطر.

عند منتصف الظهيرة يقفل الأب الستيني راجعا من مسجد البادية، ممتقع السّحنة وطفق يصرخ على مائدة الغذاء:

– اللعنة، أي شيطان هجس في أذني حتى ذهبت إلى المسجد كي أصلي!!؟

ينظر إلى الطعام ويقول مستاء:

– كيف سأستطعم هذه اللقمة وكيف أمرّرها؟

تنظر إليه فتاة البحيرة بغرابة وكذلك الطفل وهو لم يفصح بعد عن الخطب، يصيبهما فزع، خشية أن يكون قد علم بأمر الفتى الأنيق والطفلة الشقراء.

– اللعنة على "مخزن" رخيص كهذا، يطمع حتى في خيمة مثقوبة يمتلكها غجريّ معدم مثلي.

عندها تنفست فتاة البحيرة الصعداء، وعاود الضوء استنارة وجه الولد الذي سأل أباه بتوجس:

– لماذا يريدون خيمتنا يا أبي؟

– من أجل "الفيجطا" (أي الاحتفال) لأن عامل الإقليم سيأتي ليزور القرية التي في الضفة الأخرى، لم يبق إلا الفيجطا كي تسلبني خرقتي.

قالها بسخرية لاذعة وأردف:

– أنا من ارتكب الحماقة، وذهبت لأصلي كمؤمن حقيقي في المسجد.

يرفض أن يأكل وينزوي إلى الركن.

يسود الصمت المريب الوادي، وتغزو جحافل الظلمة المكان ويعربد سواد الليل في كل الجهات.

داخل جوف الخيمة تركن فتاة البحيرة الرضيع بحرص وحذر وتحاول أن تتسلل من الفراش، تنجح في ذلك بصعوبة، وترفع جانبا من ستار الخيمة وتتسلل خارجا.

صخب النهر يتلو أزيزه الأبدي، مشفوع بصرير الزيزان الليلية، ثم يتناهى صوت هدير سيارة على التلة. لا يظهر في العتمة المطبقة إلا شجرة رمان تستأثر بضوء السيارة المحشرجة.

أسفل شجرة الرمان تلتقي فتاة البحيرة والفتى الأنيق. يبدو عليه أنه لا يصدق قدومها، يمسكها من يدها ويهمس لها :

– كنت متأكدا من أنك ستأتين وتفعلينها.

تقول له مرعوبة:

– بلى أتيت، لكن ليس كما تظن.

يتشبث بيدها ويهتف:

– كيف؟ ليس كما أظن؟ كل شيء مهيأ الآن كي تذهبي معنا، كوني شجاعة فقط.

- لا، لا يمكنني أن أفعل ذلك، فكرت طويلا. لمن أترك الرضيع. وأخي؟

يندلق صمت مجلل بالفزع لا يدغدغه إلا نباح كلاب تعوي في الأقاصي. تدس يدها تحت إبطها وتخرج شيئا.

- لم أجد شيئا أهديك إياه غير هذه الوسادة التي صنعتها بنفسي من شهر .

تغمر وجهه مسرّة منقوعة بحزن، يمسك يدها ويقبل أناملها شاكرا لها صنيعها، تسحب يدها خجلة وتركض مودعة إياه:

- يجب أن أعود بأسرع ما يكون. قد يفضحني بكاء الرضيع.

إن علم بالأمر سيقتلني.

تركض بينما يعانق الفتى الأنيق وسادتها وهو ينظر إليها حتى تختفي في عتمة الليل.

يحتد صرير الزيزان، والنهر يرطن بلغة لا يفقهها إلا شجر الضفتين.

سرعان ما تنقشع ضحوة الفجر. ما هي إلا دقائق معدودة حتى يظهر رجل فظ، هو عون المخزن (المقدم) ومعه ثلاثة من رجال المخزن. يقفون جميعا ويشهدون ردم الخيمة، التي يطويها الأب الستيني ومنه تندلع آهات عدم الرضا ويقول للمقدم:

- أوصيكم خيرا بخيمتي فقد ورثتها عن أبي الذي ورثها عن جده وجده ورثها عن أبيه وهكذا دواليك.

- هي ثلاثة أيام بالتمام والكمال وتعال لتسترد خيمتك.

يقول له المقدم.

يغادر المقدم ورجاله المكان على خيول ويصيح الأب الستيني في ولديه:

- لنرحل الآن.

تزحف عظاءة شبيهة بالضب وتنتصب على صخرة كرانيتية كما لو تشيع الأسرة الغجرية بعينين صفراوين.

يتقدم الأب الستيني القافلة الصغيرة، ويمسك بلجام البغل الذي يحمل الأثاث ويليه الحمار يحمل بعض الأثاث والأواني وتعقبه البنت تحمل الرضيع وبعدها قطيع الغنم والطفل، ثم الكلب الذي يركض لاهثا، رافعا ذيله مثل عصا بين رأس القافلة ومنتهاها.

يعبرون الجسر بصعوبة ويوغلون في الشعاب المخضلة بالجثجات والحدال والحبلاب ويخاصرون الهضبات المجللة بالحومان والخابور والبهرمان ويصعدون جبلا داغلا يعرشه البيلسان والبشام والخروع.

استغرق صعود الجبل العاتي أكثر من ساعة، وحين بلغوا القمة، اندلق منهما اللهاث وأمرهما الأب الستيني بعدم الالتفات إلى الوادي الذي

غادروه، وحفزهما على الاستمرار في الرحيل، واستأنفوا المسير ساعات حتى الظهيرة.

ثم توقفوا عند شجرة بلوط وارفة قريبا من بئر.

سارع الأب الستيني برمي دلو مطاطي في البئر وأخرجه في الحين مترعا.بمياه رصاصية يشوبها تبن الخرطال، وعبّ بصوت مسموع وبسط الدّلو لفتاة البحيرة، وعبّت بدورها ثم بسطته لأخيها الصغير بعد أن ارتوت.

تحت شجرة البلوط الوارفة انصرفت فتاة البحيرة للرضيع ولقمته الرضاعة الصغيرة.

انهمك الأب بإعداد حجر، صنع منه أثافي لإشعال نار صغيرة، وأخرج إبريقا من الحمولة على الحمار وشرع في تهييء الشاي.

عندما أتمّ مكارم إعداد الشاي، قام بتسخين الخبز على صفيحة صدئة، ثم التحق بفتاة البحيرة تحت شجرة البلوط وصاح في ولده:

- تعال لتسدّ رمقك.

من قنينة زجاجية صبّ زيت زيتون في صحن صغير تتقعره زهرة شقائق النعمان، مرسومة بشكل ساذج وحرّضهما على الأكل.

حولهم دلق الكلب صوت لهفة وجوع فألقى إليه الأب بكسرة خبز.

توقف الأب الستيني عن الأكل ونهض بغتة قائلا:

– لكما أن تأكلا وتستريحا قليلا لحين عودتي من وراء تلك الهضبة، عندي لقاء مع شخص مهم وسأرجع بسرعة.

نظرا إليه باستغراب وامتثلا لأمره وهو يضيف:

– انتبها جيدا للخرفان من الذئاب والضباع.

قالها وكررها ثم غادر المكان باتجاه هضبة شمالية وهو يصعدها بشكل حثيث.

عندما تأكد لهما بلوغه قمة الهضبة المنكهة برائحة الورس وتيقنا من نزوله فيما وراءها، تركا الشاي والخبز والزيت جانبا.

سارعت الفتاة باخراج الهدية الملفوفة في ثوب، تلك التي أهداها الفتى الرسام الأنيق. فتحت العلبة بلهفة. وحاولت تجريب أحمر الشفاه والمشط والمرآة وهي تغني حبورا بما تفعله مزدهرة بضحكات طفولية، غير مصدقة كيف احمرّت شفاهها واسودّت رموشها وكيف أن شعرها صار نهر حرير متماوج، وبعدها استلقت على ظهرها وصوّبت نظرتها الى السماء وغفتْ على نبات القاقلّة وهي تحلم:

حلمت بليلة عرس وهي في حلة عروس وإلى جانبها عريسها الفتى الرسام الأنيق في جلباب أبيض.

وحولهما رجال ونساء يزفونهما برقصة أحيدوس صاخبة، تتعالى أناشيدهم وأهازيجهم الأطلسية.

لحظتها سارع الطفل إلى كيس خاص على حمولة الحمار وأخرج ثوبا ملفوفا. نبشه بيديه وأخرج كمنجته، تركها جانبا ودس يده مرة أخرى، وأخرج الراديو الصغير الذي أهدته الطفلة الشقراء على ضفة النهر.

بلهفة وحبور كبس على الزر وصدرت عنه أصوات مشوشة. أدار قرص المويجات وثبّت شوكته على إذاعة أمازيغية وأنصت بامعان إلى أغنية، ثم أخذ الكمنجة وحاول تقليدها في الوقت ذاته. عندما أنهكه التعب ترك الكمنجة واستلقي على ظهره وغفا على بقّول اليعضيض وهو يحلم:

في الحلم رأى نفسه مرتديا زيا رسميا داخل مسرح يؤدي أغنية حول الطفلة الشقراء وهو يعزف على كمان حقيقي، ومعه راقصات وجمهور غفير يستحسن ما يفعله باعجاب كبير وحماس قل نظيره.

يندلع غبار من الجهة الشمالية، وتنثره زوبعة بالتساوي في الاتجاهات الثلاث.

يصل الأب الستيني طريقا غير معبدة في اتجاه الشرق، يعشوشب على حافتيها نبات العنصّل ويقف عند زجاج نافذة سيارة من نوع "بيكوب"، تحمل ثورا وفي المقصورة شيخ بلحية بيضاء يقارب السبعين وسائق شاب.

يقول الأب الستيني للشيخ بنبرة تأكيدية:

– منحتك فتاتي بقلب مترع الصفاء.

ينشرح وجه الشيخ المغضن، ويرد بنبرة متعبة آمرا:

– هي أيام معدودة ونلتقي في أزغار، كي نعجل بالعرس .

– نم قرير العين، هي أيام معدودة وتكون الفتاة على ذمتك.

يقول له الأب الستيني بيقين صلب.

يرفع الشيخ يديه ويطلب من السائق أن يقرأوا الفاتحة على الاتفاق ويتمتمون: (الحمد لله رب العالمين.... آمين)

عندما يتمّون قراءة الفاتحة يقبلون جانب السبابة على ختام السورة ويتصافح الشيخ والأب الستيني، ثم يسلمه بضع أوراق نقدية صائحا:

– ارسم البسمة على وجوه أولادك .

يقبل الأب الستيني يد الشيخ ويقول له:

– ابتسامتنا الحقيقية عندما أصير نسيبك وخماسك في نفس الوقت.

يبتسم الشيخ ويقول له:

– سيكون لك ما تشاء.

تواتر اندلاق الغبار، واستأنفت الزوابع رقصاتها الماجنة حتى تخوم العصر.

حدث أن نامت البنت مطوقة بأشيائها، أحمر الشفاه والمرآة والكحل

والمشط ونام الطفل غير بعيد عنها معانقا كمنجته تاركا وشوشة الراديو تؤثث فراغ ذلك الخلاء.

يداهمهما الأب في عودته على تلك الحال ويضرب يدا بيد.

يصرخ في البنت أولا وهو يركلها بقدمه صائحا بفظاظة:

– تبارك الله، أهذه هي سيدة الخيمة المعول عليها؟ أهذا وقت النوم والأحلام؟، ماذا لو أن الذئب التهم رضيعك؟

تستيقظ مفزوعة وهي تنكمش على نفسها وحين يلاحظ أن شفاهها حمراء أكثر من اللازم ويرمق الكحل الصابغ لرموشها البديعة مع شعرها الممشوط، يمسكها من شعرها ويرفع صوته أكثر:

– من أين لك بأحمر الشفاه والكحل، يا راقصة المهرجان الرخيصة.

يحاول تعنيفها لتعترف وتجهش بالبكاء صائحة :

– وجدته على ضفة النّهر يا أبي.

تقول له بصوت مذعورة وهي تنشج. ويصفعها قائلا:

– ملعونة، تكذبين أيضا، حاضر يا دمية العشر سنتيمات.

يدفعها بقوة حتى يصطدم وجهها بالتراب ويصيب أنفها رعف ولا يتركها إلا بعد أن يبدأ الرضيع في بكاء مذعور وتسارع إليه.

يلتفت إلى الطفل وقد أثار انتباهه صوت وشوشة المذياع.

يتجه صوب الطفل ويمسكه من ردن قميصه خلف العنق ويصيح به:

– ما أسعدني بك، تبارك الله، تبارك الله، عولنا عليك يا رجل الخيمة، الكمنجة والراديو، أخبرني أيها الوغد، من أين لك بهذا القزدير.

– وجدته على ضفة النهر.

يجيبه بفزع.

يصفعه الأب ويعنفه كي يعترف قائلا:

– أخبرني، لمن يكون الراديو وكيف سرقته وإلا سأزهق روحك الآن.

يندلع من الطفل بكاء وهو يقسم صائحا:

– أقسم بالرب والخبز معا، أنني لم أسرقه، وجدته يا أبي على ضفة النهر.

– وجدته يا ثعلب البحيرة، سنرى أيها الملعون، سأتفرغ لك فيما بعد.

يقول له الأب وهو يدفعه بقوة ويرطم وجهه بالأرض فيحتك خده بالتراب ويصاب بخدوش دامية.

يصادر الراديو الصغير ويضعه في قبّ جلبابه ويهشم الكمنجة الصّفيحية ويلقي بأطرافها في البئر.

ثم يأمرهما في الحين بمواصلة الطريق.

تعود القافلة الغجرية الصغيرة إلى سابق ترتيبها الوئيد، وتتوغل في أصيل يشمله الغبار بعنايته المفرطة.

بعد مشي ثلاث ساعات، يسدل الليل جفنه على مقلة النهار الموحشة، فتستشري الظلمة الفاحشة في كل الجهات ويهتدون إلى مغارة في جبل. ينزل الأب الستيني مع طفله الحمولة عن البغل والحمار ويربطانهما في الخارج ويدخلون القطيع إلى الكهف.

داخل المغارة يفترشون حصيرة مهترئة ويوقد الأب الستيني نارا، بعد أن يلتقط حطبا من الخارج ويعدّ الشاي من جديد على جمر ملتاع. على ثوب أبيض يضع صحنا ويفك غطاء علبة سردين ويفرغها في قعر الصحن المزوق برسم زهرة شقائق النعمان، الساذج ويصيح فيهما محرضا إياهما على التهام سمك الإسقمري، وينصرف هو للراديو ويدير الموجات بحثا عن نشرة أخبار. ينظر إليه الولد بطرف عينه كاتما غضبه وحزنه ويلتفت إليه الأب هامسا بسخرية:

– سنرى إن كنت ستجد لنا تلفزة غدا.

ويضحك كما لو كان ينشج.

يمد يده ليأخذ لقمة ويتركها جانبا عندما يسمع بأوان نشرة أخبار الطقس:

– يرتقب سقوط أمطار في الأطلس المتوسط مع هبوب رياح عاصفية كما يتوقع سقوط ثلوج في العلو الذي يبلغ 1200 متر.

ينظر اليهما جاحظ العينين ويهتف:

– هل سمعتماد، لو مكثنا في جبل البحيرة لحاصرنا الثلج، غدا سيسقط غفيرا هناك.

يأخد لقمة ويشرب من كأس الشاي. في الخارج يسمع نباح الكلب مع صفير الرياح. حين يبدأ الراديو باطلاق أغنية يكبس أنفاسه ويغلقه. ومع انتصاف الصحن يترك بقية سمك الإسقمري لولديه ويتنحى جانبا، يندس تحت الفراش متمتما الشهادة بتثاؤب ثم يقول لهما:

– غدا نستفيق فجرا كي نواصل الطريق.

ما إن يغسلا الصحن بكسرتي خبز، حتى يتثاءبا بدورهما، وتطمئن فتاة البحيرة على وضعية الرضيع، ثم سرعان ما ينخرطان في نوم ثقيل من فرط التعب.

في البدء كان نباح الكلب، وأعقبه صوت رياح عاصفية، ذات صفير وصرير.

يستيقظون على تخوم الفجر، ويباشر الأب الستيني والطفل معا إخراج المتاع ووضع الحمولة من جديد على البغل والحمار ثم ينهمكان في إخراج القطيع، حيث يدخل الطفل المغارة ويصيح بالخرفان:

– تشيو. تشيو.

يندلق القطيع خارجا بانسياب. بانتباه كامل ويقظة دامغة يحصي

الأب الستيني خرفانه، وحين ينتهي إلى آخر القطيع يقول للطفل:

– أين النعجة السوداء، بقيت هناك نعجة أينها؟

يدّعي الولد عدم سماع أبيه ويعتقل نفسه في داخل المغارة، ثم يصرخ الأب فيه:

– قلت لك أينها النعجة السوداء، بقيت هناك نعجة؟

يتحصن الطفل بصمته المستفز، فتثور ثائرة الأب ويخطو ويدخل ليعرف سبب خرس الولد.

يغيب الأب قليلا ويسمع له صوت استياء بالداخل:

– هذا ما كنت أخشاه.

يصرخ في ابنه:

– اخرج أيها الوغد.

يلوح الابن حزينا ومذعورا من باب المغارة ويلحق به الأب حاملا جثة نعجة سوداء وهو يحوقل.

يقول الأب بأسى زاعقا في الولد:

– أهكذا يعول عليك كرجل، كان حريا بك أن تخبرني بالأمس، على الأقل نذبحها وهي تحتضر ونغنم لحمها.

يحاول فحصها ولما يتيقن من موتها يتركها وهو يزعق في الولد دائما:

– وغد، متى ستصير رجلا.

وتبدأ القافلة الصغيرة بالتحرك بذات الترتيب، نازلة الجبل المدثر بشوك الخزيز والخمان والرنف والدوم ويأخذون وجهة الشرق.

يتفاقم صرير الرياح، ويستفحل البرد، ويندلق المطر بتوحش مريب.

عبثا تحاول القافلة مقاومة الرياح والمطر الشرس.

وبرغم تلك المشقة الدامغة، يلح الأب الستيني على استئناف الرحيل الغجري. ويتوغلون في الشعاب المؤثثة بالحلفاء والعبهر والسرمق، ثم يتوقفون هنيهة عندما يستعصي على فتاة البحيرة المشي، فيطيح الأب الستيني بحمولة الحمار، ويضيفها إلى حمولة البغل، وينزع عنه معطفا عسكريا، ويدثر به فتاة البحيرة ورضيعها على الحمار، وحينما يطمئن إلى وضعها والرضيع، يرفع شارة مواصلة الرحلة.

يستغرق رحيلهم ساعات حتى يصلون قعر واد بين جبلين لحظة الظهيرة. فحدة الرياح الصاعقة تقتلع نبات السوجر والديلم والسمسق وأزيز الرعد يزرع الهول في صدر فتاة البحيرة وفلز البرق يصبغ النهار ببياض ياقوتي اللون مما جعلهم يلوذون بمنعطف شبه آمن في الوادي.

بُعيْد ساعة، يهدأ عصف الرياح، وتخف حدة البرق، وينطلقون من

جديد صوب فج عميق ممتد في الأعلى، وحين يدخلونه ينهمكون بعبور نفقه الصخري المخضوضر بالقشب. بتلك الوهلة تلوح عظاية من نوع (الورليات صغيرة الحجم) وهي ترصد الوادي بعينين متعبتين، وقريبا منها يظهر شبح ثلاثة فرسان ملثمين ويبدو من تناقل الإشارات بينهم أنهم قطاع طرق، ينتهزون توغل الأسرة الغجرية في الفج وينقضون بخيولهم المارقة عليها من الجهتين ويحاصرونها، يتصايحون ويحومون مثل هنود حمر حولها.

عبثا يلوح الأب الستيني بعصاه ويقف أمام ولديه كي يذوذ عنهما، وهو يصرخ:

- ما خطبكم؟ ابتعدوا!

ينطلق أحد قطاع الطرق وهو يحمل بندقية ويأمر صديقيه بالانقضاض.

يقفز الكلب المبقع بالأبيض والأسود والأصفر من الخلف وينبح قريبا من صاحب البندقية، ولا يكتفي بذلك بل يثب ويتمكن من العض على حذائه الجلدي، يحاول صاحب البندقية التخلص منه والفرس في جفول يصهل ويكاد يخر ويكبو، ثم يطلق رصاصة عليه ويرديه قتيلا.

البنت تصرخ، الرضيع يصرخ والطفل مفزوع يرصد ما يجري بجزع كبير.

يحاول الأب الستيني أن يبدي مقاومة خائرة للفارسين، يمسكان به

ويشبعانه ضربا حتى يغيب عن وعيه، ثم يدنو صاحب البندقية من فتاة البحيرة، يتلمس وجهها باستفزاز. تنكمش على نفسها وتتراجع إلى الخلف مذعورة ويحتد بكاء رضيعها، عندها يستفيق الأب الستيني وينهض بكل ما أوتي من قوة ويركض صوب فتاة البحيرة صادحا:

– ابتعد أيها الحقير، وتنحى جانبا.

يتمكن من اختراق الفارسين هائجا ويهب منقضا على صاحب البندقية كي يسقطه من صهوة الفرس، وينجح بالوصول إلى لثامه فيسحبه كي ينزله عنه، ويظهر جزء من وجهه الأسود. ويكون رد الفعل السريع من قاطع الطريق هذا أن يضربه بخلفية البندقية على صدغه ويرديه جثة هامدة.

يصرخ الطفل:

– أبي، لا، أبي.

يسرع باتجاهه فيما فتاة البحيرة تصرخ بملء الصوت.

عندها يصادر الثلاثة كل قطيع الغنم والبغل ولا يتركون لهم إلا الحمار الأجرب ويغادرون فج الوادي، غانمين القافلة وقطيعها وهم يتصايحون إلى أن يختفوا في جهة غير معلومة من فرط ضبابية الرؤية.

تهرع فتاة البحيرة إلى أبيها وكذلك يفعل الطفل، تمسك بوجهه المدمى وتمسح عليه بيديها وهي تنتحب:

– أبي، لا تفعلها، يكفي أن أمي تركتنا في عز الحاجة.

يقف الطفل مشدوها وهو ينشج دون أن ينبس بكلمة.

يمسحان على وجهه الدم ويبتهجان عندما يسمعان أنينه، فيهبان ليتيقنا من أنه لم يمت. تسنده فتاة البحيرة إلى حجرها وتهمس له:

– لا بأس، تجلّد قليلا، ما نزال نحتاجك أيها الغالي.

عندها يفتح عينه وهو يئن:

– فلذتا كبدي، سامحاني.

تغلق فتاة البحيرة فمه بيدها وتطلب منه أن يصمت، تربط رأسه مكان الجرح وتطلب من أخيها أن يجلب لها قنينة ماء على حمولة الحمار، يأتيها بها في الحين وتشرع في غسل وجهه وتسقيه بحفنة يدها.

يتماثل الأب لوعيه، ويسترد أنفاسه، ويمهلانه حتى يستفيق بالكامل. يغطيانه ببطانية، ويقيان رأسه بطاقية من رذاذ المطر.

ومع لحظة العصر يلقيانه على صهوة الحمار، بينما يهذي في غيبوبة حمى.

قبلها يرسم الطفل قبلة على رأس الكلب المضرج بالدم، ويصنع له قبرا ويدفنه ويتلو عليه أول الفاتحة، ثم يشيعه بيده، ويتقدم القافلة الصغيرة صائحا:

– لنرحل.

ويواصلون طريقهم الغجري المخضل بنبات الصوفان.

بعد مشي استغرق يوما، وصلوا عند منعرج في سفح هضبة تخاصرها الهندباء والأيهقان والتامول. تحت الهضبة تلوح خيمة وزريبة وفوق الهضبة تنتصب بناية بمثابة حجرة يلغط فيها أطفال ويتضح من اللغط أن الحجرة مدرسة ابتدائية.

يقف الأب الستيني بصعوبة وهو يضع يده على حاجبيه ينظر باتجاه الخيمة، من الخيمة يخرج رجل ستيني بجلباب أزرق، ويتجه نحوهم، هو نفسه الرجل الذي التقاه في سوق تلك القرية وضربا معا صداق الخطوبة (خطوبة بنت الرجل صاحب الجلباب الأزرق المهترئ من طرف الأب الستيني). يسارع الرجل إليهم ويعانق صديقه، بحفاوة كبيرة، وهو يسأله جزعا:

- ويلي، ما خطبك؟ من جش رأسك؟

تنهمر من الأب الستيني آهة ويقول:

- لا بأس، مادام الأمر قد مرّ على خير.

يسنده الرجل صاحب الجلباب الأزرق ويقول له:

- لنذهب إلى الخيمة أولا، ولنسمع بعدها الحكاية.

يظهر على عتبة الخيمة طفل صغير أشقر من سن الطفل (عشر سنوات) ويأمره أبوه بتخفيف الحمولة عن الولد.

بعد الولد الأشقر تظهر فتاة في الثلاثين، تهرع باتجاه الأب الستيني تقبل يده وتسارع إلى فتاة البحيرة وتحييها من وجهها وتمسك عنها الرضيع وهي تقول:

– مرحى.

ثم تتفقد الطفل الرضيع وتخاطبه:

– قمري الصغير جائع. سأعطي غزالي حلمته.

تلقمه ثديها دون أن تستشير أحدا وهذا ما تستغرب له فتاة البحيرة، ثم يتجهون صوب الخيمة جميعا، فيما الطفل يتبادل النظرات مع الولد الأشقر دون كلام، وبعدها ينظر صوب الهضبة وهو يرصد أطفال المدرسة يلعبون في ساحتها ويلفته ذلك.

يستلقي الأب الستيني إلى وسادة على زربية، بينما تبالغ زوجة الرجل صاحب الجلباب الأزرق في الترحيب به وبولديه:

– مرحبا بكم في خيمتكم.

تتلمس وجه فتاة البحيرة وتبدي اعجابا بجمالها:

– ويلتاه ماهذه الروعة، بنتي آسرة الجمال.

تعانقها بحفاوة كبيرة.

يلوح الرجل صاحب الجلباب الأزرق من داخل الخيمة في الخارج وقد

ذبح ديكا. يمسح السكين على نبات الطرثوث وينادي على زوجته كي تعدّ وجبة غذاء فورا، وتنهمك الفتاة الثلاثينية في إرضاع الطفل بثديها المنمش ماتزال في زاوية الخيمة.

يدخل الرجل بعد لحظة وفي يده صينية ذات نقش سباعي الدوائر والمربعات، يصب الشاي لضيوفه ويسأل صديقه:

- احك لي بماذا ابتليت يا صديقي؟

- داهمنا لصوص، قطاع طرق، هذا كل شيء.

يجيبه الأب الستيني متمتما.

- أوغاد.

يقول الرجل صاحب الجلباب الأزرق متعاطفا.

- سلبوني كل خرفاني والبغل.

يضيف الأب الستيني باستياء.

- بسيطة، مادام أن أرواحكم لم تسلب.

يقول الرجل متعاطفا دائما وسرعان ما يلطف من نبرة الاستياء ويحول ناصية الكلام باتجاه مسرات تاريخهما معا، ويغرقان في استذكار شقاوة شبابهما من بطولات وصولات وجولات ورقص وشعر.

حنين دامغ يتلطف معه رذاذ المطر، فيخرجان معا بعد وجبة الغذاء

صوب الهضبة المقابلة للتلة التي تنتصب عليها حجرة المدرسة.

يجلس الأب الستيني معصوب الرأس مع صديقه الرجل صاحب الجلباب الأزرق وهما يسمعان للراديو الصغير، (الراديو الذي سلبه من طفله) ويصغيان بامعان لبرنامج شعري بالأمازيغية وفيه يصدح صوت شاعر من جيلهما بقصيدة:

– هذا قصيد "بنطاهر"، أسد الشعراء، ظاهرة لن تتكرر.

يقول الرجل صاحب الجلباب الأزرق معلقا على ما سمعه وهو يفتت عود يلنجوج بأصابعه.

– هذا تواضع منك، إن كان "بنطاهر" أسد الشعراء، فمن تكون أنت؟

يجيبه الأب الستيني بيقين واعجاب وهو يقتلع عودا جافا لزهرة بابنوج ذابلة .

– انس الأمر يا صديقي، وأخبرني من سطا على ما شيتك وفيمن تشك؟

يسأله الرجل صاحب الجلباب الأزرق.

– أشك في رجال المقدم، عندما أزلت عن زعيمهم اللثام رأيت وجهه الأسود.

يقول له الأب الستيني بنبرة تخمين تجنح نحو الثقة.

– وأين رأيت رجال المقدم؟

يستفسره الرجل صاحب الجلباب الأزرق.

– أذكر جيدا بوضوح تام، فوجه هذا الرجل الأسود، رأيته عندما كنت أمنحهم خيمتي.

يقول له الأب الستيني.

– أعطيتهم خيمتك؟

يسأل الرجل باستغراب.

– نعم، سلبوني خيمتي في النهر بدعوى احتفال يستقبلون فيه السيد العامل في القرية المجاورة.

– جشع زائد عن اللزوم

بذات الوقت، وقد استحال لون النهار إلى رصاص كاسح، يقف طفل العشر سنوات مع صديقه الولد الأشقر على الهضبة المقابلة، وينبس متلمسا بأصابعه لشجرة سلامان:

– هل فاتني عمر الدراسة وحظ التعلم؟

ينظر إليه الولد الأشقر ويتضح من حركته أنه أبكم:

يرسم إشارة تعني أنه كل شيء ممكن.

يلمس الطفل جدار المدرسة ويضع خده عليها ويحلم، ثم سرعان ما يمسكه الولد الأبكم ويركضان وهما يحومان حول الحجرة الدراسية، فجأة يقفان وقد أطل من النافذة شاب في الثلاثين، ويبدو من هيئته الأنيقة أنه معلم المدرسة:

– ماذا تفعلان؟

يجيبه الولد الأبكم بأشارات تقول أنه مع صديق جديد .

عندها يسأله المعلم:

– أهلا بالزائر الجديد، هل تدرس؟

يرتبك الطفل ويجيبه:

– لا .

– ماذا تفعل إذا؟ يسأله المعلم.

– أرعى غنم أبي. يجيب الطفل بارتباك أكبر.

– وهل تحب أن تظل راعيا؟ يسأله المعلم.

يخرج الطفل الدفتر الذي أهدته الطفلة الشقراء على ضفة النهر من تحت حزامه عند البطن، ويشهر الأقلام الملونة ويلوح بها إلى المعلم قائلا:

– أريد أن أتعلم. أرغب أن أصير معلما مثلك.

يضحك المعلم ويقول له:

– ممتاز، غدا أتحدث مع والدك بشأن ذلك.

يغلق المعلم النافذة ويتلقف الولد الأبكم الدفتر من الطفل مع الأقلام الملونة ويبدأ بالتخطيط فيه.

أسفل الهضبة المخضبة بالدفلى، تجلس فتاة البحيرة مع الفتاة الثلاثينية عند عين مائية يمرح على صفحتها الخيثعور والعلق، يملآن قنينات بلاستيكية من ينبوع الماء وهما يتبادلان التعارف بتوجس وحماس.

تنبس الفتاة الثلاثينية:

– ستكونين صديقتي ولن أتعامل معك كابنة لي.

تستغرب فتاة البحيرة لكلام الثلاثينية وتسأل في نبرة خفيضة:

– لم أفهم؟

– ألم يخبرك والدك عن الأمر؟

– عن أي أمر؟

– يبدو أن لا علم لك بالأمر حقا...

دون أن تخبرها، تتركها تلتفت إلى أعلى وهي تصوب نظرة مريبة إلى الحجرة فوق الهضبة، حيث تنتصب المدرسة، وقريبا منها يلوح شبح المعلم واقفا، فتقول لها الفتاة الثلاثينية:

- شاب لطيف وجميل.

- من؟

- المعلم الآتي من المدينة.

تصمت فتاة البحيرة وتسترسل الفتاة الثلاثينية في الحديث:

- يمكن أن نراه غدا، فهو يعطي دروس محو الأمية أيضا.

- دروس محو ماذا؟

- نعم، دروس تعليم الجاهلات مثلي ومثلك.

يضحكان معا. تعلق فتاة البحيرة:

- يستحيل أن يقبل أبي الفظ بأمر كهذا.

- اتركي لي أمر والدك عزيزتي، ابتداء من اليوم سيكون لك ما تحبين.

تتدارك الفتاة الثلاثينية وتتساءل:

- لماذا تنعتينه بالفظ؟

تتلعثم فتاة البحيرة وتجيب:

- مثل أي فلاح فظ في طيبوبته.

يضحكان. ثم تسأل فتاة البحيرة:

– لنفترض أنه سمح لي بالتعلم، فهل يمكن أن أصير طبيبة إن درست؟

تضحك الفتاة الثلاثينية حتى تقع على قفاها، تنهض وتحاول أن تتوازن في صخب، بينما صوتها المكركر يعلو وتقول:

– طبيبة؟ واضح أنك تحلمين أكثر من اللازم، أقصى ما يمكن أن تصبحيه عزيزتي، هو أن تكتبي إسمك.

يحتد لون الرصاص الذي يلبس شجر البلوط والعثق والعسبق والدردار، وتتلبد له سحنة الصخور، ويؤول إلى ظلمة فاحمة، ظلمة ذات غسق ينهشها نباح الكلاب المندلق من الوديان المجاورة.

يخبو نور الخيمة باكرا، ويلوذ الكل إلى نوم مسكر. نوم يقطعه بكاء الطفل بين الحين والحين، كأنما يردّ على عواء الرياح المعربدة في الخارج.

تندلع صحوة الفجر متثائبة، ويلوح الرجل صاحب الجلباب الأزرق مشيّعا الأب الستيني أسفل هضبة المدرسة، في الجهة الأخرى المزمخرة بشجر العباقية الشائك. يركب الأب الستيني شاحنة مملوءة عن آخرها بالبدو:

– اهتم بك وانتبه لنفسك.

يصيح الرجل صاحب الجلباب الأزرق في صديقه.

– سأجلب خيمتي من المقدم وأرجع في الحين.

يجيبه الأب الستيني.

تقلع الشاحنة المهترئة ويرصدها الرجل وهي تتحرك حتى تنعطف وتغيب ثم يرجع ليصعد الهضبة.

يغسل المطر الوادي، وتتشكل أنهار صغيرة، تلغو بلهجة راطنة، تتعانق في منحنى، وتشق طريقها الصاخب إلى السفوح البعيدة.

تتلبد الظهيرة بغيوم شفقية، كأنها مضرجة بدم الكلاب المبتهجة في البقاع.

في حجرة الدرس: يتعرف المعلم الشاب إلى الزائرة الجديدة، تقدمها له الفتاة الثلاثينية، ويرحب بها ويطلب منها الجلوس على مقعد الطاولة الأولى:

– أهلا بك في حجرة الدراسة.

تبتسم خجلا وارتباكا. يسألها:

– هل يمكن أن أعرف اسمك أولا؟

تتلعثم ثم تجيب بنبرة خفيضة:

– فتاة البحيرة.

– ماذا؟ يسأل المعلم الشاب باستغراب.

– فتاة البحيرة. تقول له الفتاة الثلاثينية مؤكدة .

– إسم غريب وجميل.

يقول المعلم.

ينظر إليها باعجاب ويقول:

– طيب مادام أن النساء قد تغيبن عن هذه الحصة يمكن أن نبدأ مع فتاة البحيرة الدرس الأول.

يكتب حروف الأبجدية على السبورة ويشرع في نطقها وتلقينها للصبية. تدفع عنها بعض غيم الخجل وتدخل في جو الدرس بحماس.

يطلب منها الوقوف والتقدم إلى السبورة. يعطيها طباشيرا لكي تكتب حرف الألف. ترتبك يدها ويمسك بها من معصمها وهو يدنو من أنفاسها المحتدمة حد الالتصاق، ترتبك أكثر ويتخضب وجهها خجلا، يساعدها على كتابة حرف الألف.

يسقط الطباشير من يدها، يظل ماسكا يدها وهو ينظر الى عينيها الزرقاوين بافتتان ورغبة، تنكس رأسها وتسحب يدها ثم تتراجع إلى الخلف.

تتدخل الفتاة الثلاثينية :

– عفوا، سنذهب الآن ونرجع غدا مع الظهر.

يبتسم المعلم ويطالبهما بوقت إضافي.

وتلح فتاة الثلاثين قائلة:

- الرضيع بانتظارنا، غدا نكون هنا بنفس الموعد.

يخرجان للتو كما حجلتين ظفرتا بانفلات من فخ مكين، بينما انتصب المعلم على عتبة المدرسة، مسددا نظرات لائبة إلى فتاة البحيرة.

في الطريق إلى الخيمة قالت الفتاة الثلاثينية لصديقتها:

- ولد الحرام كاد يلتهمك بنظراته الماجنة.

- حقا؟

- يا حمقائي، أنت طاعنة في الجمال، وقد شطرت قلب ولد المدينة.

يضحكان بصفاقة وهما ينحنيان ليقطفا الآس ويتراشقان به...

يندّ من جهة غير معلومة صياح ديك، وتتناهى إلى السمع أنفاس خنزير برّي مارق بالمحاذاة، ولا يفوت كلب الخيمة أن ينبح في شبح ثعلب يتلصّص على خم الدجاج من فوق.

على تلة يعمدها نبات السيكران والجلوز، يشرد قطيع الغنم، ويجلس الولد الأبكم منهمكا بالرسم والتخطيط في الدفتر الذي منحه إياه الطفل صاحب العشر سنوات، هذا الأخير منصرف إلى صنع كمنجة جديدة، يقطع غصنا من شجرة بلوط متمتما:

- سوف أصنع كمنجة غير قابلة للكسر، أبدا لن تنكسر.

عندما ينجح في قطع الغصن يسير الى صديقه الأبكم ويجلس بقربه

كي يشرع في تشذيبه، بغرض أن يصنع يد آلته الموسيقية، يرفع نظرته إلى صديقه الأبكم ويجده منغمسا كليا في الخربشة على الدفتر. يلفته ذلك فيتطفل بالقاء نظرة على ما يفعله، لحظتها يندهش من صنيع الأبكم على الدفتر، حيث بدا له أن الأمر ليس محض خربشة وإنما كتابة أنيقة ومنسّقة فقال له:

- يا ابن الذئبة، أين تعلمت الكتابة؟

يتبسم الولد الأبكم ويجيبه بإشارة، تقول أنه تعلم انطلاقا من التلصص على حجرة المدرسة من النافذة.

يرجع الطفل إلى مجسّم كمنجته ويقول للولد الأبكم:

- حسنا، إن كان الحظ لم يسعفني كي أصير معلما محترما، فشاء من شاء وكره من كره، سأصبح عازف كمنجة شهير.

يضحك الأبكم من جسارة عبارته، ويقول له الطفل:

- أتكلم بجد، عاجلا أم آجلا، سأصير عازف كمنجة كبير.

عند الغروب السخاميّ، تلفظ الشاحنة الأب الستيني بمحاذاة بيت عند قنطرة عتيقة.

يقصد الأب الستيني بيت المقدم، هذا الذي يقف على العتبة ويبادره زاجرا:

- ما خطبك؟

– جئت كي أسترجع خيمتي كما اتفقنا. فالأيام الثلاثة مرت واليوم رابعها. يقول الأب الستيني.

– سمالتك احترقت. يقول له ببرودة.

– ماذا تقول؟

يسأل مصدوما.

– خرقتك التهمتها النار، ولا شيء تدين به للمخزن.

– النار التي أكلت خيمتي، ستأكلنا معا الآن .

يقول الأب الستيني بانفعال وهو يتوجه الى المقدم كي يقبض على رقبته ويستغيث المقدم بعونه الذي يحضر في الحين، عون أسود بقامة فارعة، ذكّره توا بقاطع الطريق الذي سطا على قافلته الصغيرة.

عندها صرخ الأب الستيني في وجه العون الأسود:

– أنت من سطا على مالي وخرفاني وكنت ستقتلني في الوادي.

وأخد يصيح دون أن يصل صراخه أحدا:

– ويك ويك اعباد الله.

يلكمه الرجل الأسود، ويخنقه بعدها حتى ينخرط في غيبوبة.

ثم يأمره المقدم قائلا:

- ألق به إلى الحظيرة، غدا نرسله إلى القائد كي يرمي به إلى السجن.

يربطه الرجل الأسود ويذهب به كما أمره ليلقي به في بيت الزريبة.

مع انقشاع الصباح، تتثاءب الغابة، وينفطر عن الأرض بخار تتلقفه تهويمات الضباب الشفيف الذي يحوم منخفضا في الأودية.

قريبا من العين المائية المحفوفة ببقول السلجم ونبات الكولان وحشيش أقرب إلى الكرفس البري، تحاول فتاة البحيرة أن تجعل أحمر الشفاه على ثغر الفتاة الثلاثينية وتصدر عنهما كركرات.

- من أين لك بأحمر الشفاه والمرآة والمشط والكحل؟

تسأل الفتاة الثلاثينية.

- فتى أنيق من المدينة أهدانيها على ضفة النهر.

تقول فتاة البحيرة.

- أكثر أناقة من المعلم؟

تسأل الفتاة الثلاثينية مشاكسة في خبث.

- نعم أكثر أناقة من معلمك الجاحظ العينين كما لو كان ذكر بومة.

- من قال أنه معلمي، هو معجب بك أصلا.

- من أدراك أنه معجب بي؟

– قالها لي البارحة عند الغروب، بل ويبتغي الزواج منك؟

– بهذه السرعة الخارقة؟ كذب لا أصدق.

– ولا أنا أصدق. على الأقل هو أفضل لك من الرجل الكهل الذي يريد أبوك أن يزوجك إياه.

– رجل كهل!

– شيخ القبيلة في أرذل العمر ينتظرك في أزغار؟

– غير معقول؟

– مسكينة، يبدو أن والدك يخفي عنك كل شيء.

تكتئب فتاة البحيرة وتكف عن تجميل وجه الفتاة الثلاثينية، وتغرق في حزن داكن.

كأن المطر أمهل الجبال لتتطهم بغيومها الهائمة.

من كل حدب، اندلقت السنونوات، وحلقت بنزق خفيضة، وهي تسبغ على النهار غبطة مفقودة.

تواصل رقصها البهيج حتى حدود الظهيرة.

على تلة مجاورة يعتليها شجر البوقة ويستشري فيها أزير (إكليل الجبل)، يعزف الطفل الكمنجة التي صنعها من علبة صفيحية ومعه الولد الأبكم ينقر على علبة مصاحبا له في إيقاع متناغم فيحتشد حوله جمع من

الأطفال، راعيتان وثلاث رعاة، ويقفون منبهرين في شجن ينصتون إلى النغم الفواح، ثم ما يلبثون أن يتداعوا له بالرقص، في لحظة حميمة ويصدر عنهم ضحك وكراكرات تتعالى في سماء الوادي...

بمنتصف الظهيرة الجليلة تلك

انفرد المعلم بفتاة البحيرة وزميلتها داخل حجرة الدرس، وهما يضعان أحمر الشفاه بعيون مكحلة وشعر متماوج.

يعلق المعلم على ذلك:

– ماهذه الأناقة الأمازيغية، كما لو أتيتما من عرس، أو ذاهبتان إليه بالأحرى.

يضحكان خجلا.

يكتب حروف الأبجدية على السبورة من جديد فتزحف عظاءة (وزغة) من زاوية محاذية للباب وتشق طريقها حتى منتصف الحائط ثم تقف كما لو لتتلو الحروف المرسومة. يطلب المعلم من الصبية أن تدنو منه بعينين مسحورتين. حين تصله، يغمز إلى الفتاة الثلاثينية كي تخرج، كما لو أن تواطؤا مسبقا تمّ بينهما. عندها يرتطم غراب بالنافذة.

تقف الفتاة الثلاثينية وتقول للصبية:

– سأذهب إلى الخيمة كي أرضع الولد، لك أن تنهي الدرس وتلتحقي بي بعدها.

ترتبك الصبية في ذعر ويلم بها خرس.

مع خروج الفتاة الثلاثينية يمسك المعلم الشاب بيد الصبية ويحاول أن يخطط معها بقية الحروف وهو ينطقها بلهفة تعاود العظاية النزول رافعة رأسها وهي تحدج المعلم بعينين متوقدتين. يسقط الطباشير من يدها عندما يلتصق بها وأنفاسه ترشح عند عنقها، تحاول أن تبتعد، يشدها إليه بقوة، تحاول أن تنفلت، يفاجئها بقبلة، تقاوم قبلاته، ثم يغمى عليها، يسارع الى إقفال الباب والنافذة. تسقط العظاية من الجدار على سفح السبورة. ويشرع المعلم في اغتصاب فتاة البحيرة.

حين ينتهي من الفعل الآثم يهب بسرعة هارعا ودون أن يرتب حقيبته يهرول خارجا من الباب.

يخرج من المدرسة راكضا باتجاه دراجته النارية، يمتطيها كيفما اتفق ويدير المحرك ويهرب بعيدا... إلى أن يغيب.

يستغرق غياب فتاة البحيرة زمنا. يتقدم الغراب الذي ارتطم بنافذة الحجرة إلى سماء الوادي، يحلق فوق المدرسة تماما، ويرسم ثلاث دوائر مندلعا بنعيق حاد، ثم يغادر المكان بعيدا صوب جهة غير معلومة.

تستفيق فتاة البحيرة من غيبوبتها على وقع ذلك النعيق المفجع، وتكتشف بقعة دم تلطخ ما بين فخذيها وتصاب بهلع، لا تصدق ماذا حدث لها، تلملم سروالها وترتب فستانها وتنهمر منها دموع وهي تنشج في صمت:

– ويلتاه!

في الخيمة الرابضة أسفل الوادي تلقّم الفتاة الثلاثينية الرضيع ثديها وإلى جانبها يحتسي الرجل صاحب الجلباب الأزرق كأس شاي، يقول لزوجته:

– أنا قلق على الرجل، أكد لي البارحة أنه سيرجع بسرعة وها نحن على مشارف المساء و لم يظهر له أثر بعد.

تقول له الزوجة :

– المسافة نائية، حتما سيؤوب ومعه ظفر السفر.

لحظتها تلوح فتاة البحيرة من باب الخيمة، شاحبة تدب بخطى ثقيلة وتسقط في العتبة.

ينهض الرجل مفزوعا ومعه الزوجة تصيح:

– ما خطبك؟

تنهض الفتاة الثلاثينية وتصيح:

– ماذا ألّم بك؟

يرونها ملطخة بدم ويحدسون للتو بأنها مسألة اغتصاب، يحوقل الرجل، يمسك برأسها ويهتف:

– من ألحق بك الأذى؟

- المعلم.

تتمتم بصعوبة ويغمى عليها من جديد.

يهرع الرجل نحو الهضبة، وتمسك الزوجة بالصبية وتحملها إلى الداخل، تغطيها بثوب وتتلمس وجهها وتطلب من ابنتها الفتاة الثلاثينية:

- إليّ بماء الورد.

يعطرانها بماء الورد وتتماثل للصحو.

يلهث الرجل بعد أن صعد الهضبة وفتش حجرة الدرس و لم يجد المعلم وخرج ينظر إلى الأفق، مختل الأنفاس يردد:

- شمت في ابن الكلبة الجرباء .

يضرب يدا بيد ويمسك وجهه بيديه معا ويهتف:

- فعلها بي جرو المدينة. أين سأهرب بوجهي، وماذا سأقول لصديق العمر حول وديعته.

يقرفص حتى تلامس مؤخرته نبات القيصوم ويبكي.

يجنح النهار صوب مغيب أثكل، وتنزل العتمة دفعة واحدة كما جيش مظليين بارعين. وتسود الظلمة القاتمة الوادي.

على هضبة الحجرة المدرسية، ينطلق الطفل وصديقه الولد الأبكم إلى البناية الصغيرة ويصيح فيه الطفل:

– لنتخلص من هذا الثؤلول.

يضرمان النار في حجرة المدرسة بعد أن حشوها بالتبن وروث البهائم والخرفان والحطب ووقفا يرصدان إحراقها بالكامل.

ثم أقفلا إلى الخيمة المضربة عن الكلام والطعام.

مع صيحة بكر لديك مارق، مشفوعة بنباح سافر لكلب أجرب، رمى عون المقدم الأب الستيني كما لو كان شيئا نافقا على قارعة الطريق.بمحاذاة ثمرة شوكية لنبات الهيشر، ثم التحق به المقدم وصاح فيه بنبرة وعيد:

– لا تريني وجهك بعد الآن، يوم أراك ثانية، حتما ستكون نهايتك الوضيعة.

يضحك العون الأسود ويهتف به:

– تبخّر، وابتعد عن طريق المخزن.

يسعل الأب الستيني بوجه منتفخ وفم مدمى ويزحف بتلك الساعة البدئية من الفجر الصقيعي ويقف بصعوبة على قدميه عند إسفلت الطريق.

يكتنز النهار تهويمات الضباب، ويراكم ترف الرماد الذي يلبس وجه الساعات الماطرة.

ساعات تواتر بعجالة كما لو كانت أسنان منشار موغل في عضلة الوجود.

وكانت للمساء رائحة رصاصة عندما تخترق ريش حجلة، وتتشظى في الأوصال.

بذلك المساء المغبون، على الطريق الجانبية خلف هضبة المدرسة المحروقة يمرق يربوع بين الضفتين حيث تقف الشاحنة التي تقلّ البدو إلى قرية النهر البعيدة وينزل فلاح يسند الأب الستيني ويشير إلى الشاحنة كي تستأنف درب الحشرجة. يحمله الفلاح بمشقة ويعينه في صعود الهضبة.

على تخوم الخيمة، أسفل الهضبة، يلقي الفلاح الغريب بالأب الستيني ويخرج الرجل صاحب الجلباب الأزرق مذعورا ومعه زوجته والفتاة الثلاثينية وفتاة البحيرة وهم يصرخون ويتصايحون:

– ماذا حل به.. إلهي.. أبي.

يحمله الرجل صاحب الجلباب الأزرق ويدخله، ويغادر الفلاح الغريب ممتنعا عن شرب كأس الشاي.

يغسلون جرحه بماء دافئ، ويرشفونه حليبا فائرا، ويدثرونه ببطانيات، فيغرق في نوم هذيانيّ.

لصيقا به ظلت فتاة البحيرة تتناوب وصديقتها الفتاة الثلاثينية على إسعافه حتى تخوم الفجر.

يكشر الصبح عن ضوئه المسنون، ويستفيق الأب الستيني من غيبوبته ويصدح بحكاية ما جرى لصديقه.

ما هي إلا ساعات جليلة حتى يعرف بشأن اغتصاب فتاة البحيرة،

فينفرد بها راجعة من الينبوع، يمسكها من شعرها ويصفعها صائحا بهياج:

- ما تبقى من العار، أتيت عليه بفعلتك الشائنة.

يصرخ وهو يصفعها ويلتحق بها الرجل صاحب الجلباب الأزرق منجدا، وتبدي الفتاة الثلاثينية بسالة كبيرة في ردعه، وتستشرس زوجة الرجل بصياح حاد كي يتعقل.

يخلصها الرجل من بين يديه بصعوبة وهو يهدئه:

- الفتاة بريئة، جرو المدينة من اقترف الجريمة، الفتاة ضحية، وأنا من يتحمل المسؤولية.

يقرفص الأب الستيني. ينقاذ للنشيج هاتفا بصوت مثخن ينحب كامرأة ثكلى:

- احتقرتني الحياة. احتقرتني السماء. احتقرني المخزن. احتقرني المعلم. أي رجل أنا. الموت أرحم لي من هذه المذلة.

- استغفر رب سمائك.

يقول له الرجل صاحب الجلباب الأزرق ويمسك يده ويسحبه الى داخل الخيمة.

بذهول يقف الطفل متسمرا، مصعوقا، لأنه أول مرة يشاهد أباه يبكي بضعف يستدعي الشفقة.

يضاعف الرجل من تهدئة وتلطيف روع صديقه الأب الستيني، ويهتف لزوجته:

– هيئي لنا برادا نطفئ به هذه الحرقة.

تضع زوجته الصينية ويشرع في صبّ الشاي واستحلاء السكر، يمد كأسا إلى الأب الستيني ويقول له:

– ارشف كأسك أولا لتزول عنك الغمة ونحكي بعدها.

– ما ذا عساني أحكيه، ما عاد الكلام يسعفني، في أي روث سأدس وجه العار هذا وأخفيه، وماذا أقول لشيخ القبيلة عن شرف البنت التي نذرتها له زوجة.

يتبسم الرجل صاحب الجلباب الأزرق، المهترئ، ويجيب صاحبه بلهجة مطمئنة قائلا:

– إن كانت هذه هي المعضلة، فلا تحمل همها يا صاح.

ينظر إليه الأب الستيني باستغراب ويقول له:

– كيف لن أحمل همها الفاجع وهو يكاد يقصم كاهلي؟

– بلى، لا تحمل هم ذلك، الشيخ في أرذل العمر، وزواجه من صبيتك شكليّ فقط، كل نسائه لم يلمسهن أصلا، فهو فاقد لهمته منذ حادثة رصاصة استعمارية خرقت حجره.

- كيف؟

- أجل، يبغي الزواج لأنه وحيد، ويحتاج إعمار خيمته لا غير.

- هذه حكاية لم تكن في بالي.

- سيستر عرض فتاتك، وستظفر بخماسته .

يتواشج الضباب بالخيمة ويشيع في الوادي.

على التلة المرقشة بنبات القرطم، يترك الطفل عزف الكمان للحظة ويطلب من الولد الأبكم أن يمسك عن الكتابة في الدفتر. ويقول له بنبرة من يود أن يصارحه بشيء:

- يجب أن نتفق على خطة.

يلتفت إليه الولد بملامح طاعنة في الدهشة.

يواصل الطفل الحديث بوتيرة حماسية:

- يجب أن نتصدى لشيء سيّء ليس في صالحنا معا.

يستغرب الولد الأبكم ويشير اليه بأن يفصح له:

- لقد استرقت السمع من أيام لحوار دار بين أختك وأختي وصدمني ما التقطته أذني.

يصمت لهنيهة، يستعيد الأنفاس ويواصل:

– هناك شيء خطّط له أبوك مع أبي، ما أن نصل إلى مكان يسمى أزغار.

ينصت الولد الأبكم بذهول يلطخ وجهه ويسترسل الطفل:

– بلى، تصور أبي سيتزوج من أختك وأختي سيزوجها غصبا لشيخ في أرذل العمر هناك.

يتملى علامات الصدمة في وجه صاحبه الأبكم ويردف:

– فكر معي في إفشال هذا الزواج بأي شكل من الأشكال.

يبتسم الأبكم ويشير إليه موافقا ثم يهمس له الطفل بكلام، ويتجاوب الأبكم معه بحزمة من الاشارات الغريبة.

يعاود الفجر ختمه الجليل، ويمهر الوادي ببياض قبلته الوارفة.

على صخرة شاقولية تقف عظاءة من صنف (الوحرة)، بعينين جاحظتين وهي ترقب المشهد أمامها بتوتر.

يشرع الأب الستيني والرجل صاحب الجلباب الأزرق مع الطفلين في ربط الحمولات على كاهل بغلين مع حمار وينتظمون في قافلة طويلة.

الرجل صاحب الجلباب أمام البغل الذي يحمل الخيمة والأب الستيني أمام البغل الذي يحمل المتاع والزوجة أمام الحمار الذي يحمل بقية العتاد والفتاة الثلاثينية والصبية أمام قطيع الغنم والأبكم والطفل في آخر القافلة.

ينطلقون باتجاه أزغار في موكب مهيب ويتوغلون في الفج بين الهضبتين المزدان بشجر العبرب والعاقول والقرانيا.

تنهمر السنونوات من الأعالي وتخضب الأمكنة بمهرجان راقص من الدوائر السوداء.

في نقطة الانطلاق، من ضفة النهر، يلوح الفتى الأنيق (الرسام) مع لحظة الصباح، على شاطئ المياه، وحده يتفقد مكان الخيمة التي استقرت فيها فتاة البحيرة مع أسرتها الصغيرة وهو على صهوة حصان مرقط، الحصان المرقط الذي نتف منه الطفل خيوطا لأوتار كمنجته سابقا، ويصيح في الحصان كي يتحرك ويقطع النهر، باتجاه الضفة الأخرى. يحرض حصانه على الركض ويصعد الجبل العاتي إلى أن يغيب شبحه تماما في شعابه الملتوية.

يلوح مجددا خلف الجبل عند مفترق طرق يستفحل فيه الحوذان.

يتوقف الرسام الأنيق على حصانه ويحير في الوجهة التي سيأخذ، يتزامن وقوفه مع مرور رجل ملثم (شبيه بالملثمين الذي قطعوا الطريق على قافلة الأب الستيني)، ويسأله الفتى:

– معذرة، هل يمكن أن تدلني على طريق أزغار؟

تبرق عين الرجل الشمالية وتدور في محجره ويشير إلى الطريق الذاهبة غربا.

يصيح به الفتى:

- شكرا.

ويحفز حصانه على انطلاقة جامحة باتّجاه الغرب.

يتوغل ساهما في السفوح المثخنة بنبات الحسك ويرتقي الهضاب المهورة بالدّخن والسذاب والأثل، ويمضي ساعات حتى يصل الوادي الفسيح المخضوضر بالقلقاس.

على فج ممتد بين جبلين، يقف ملثمون على خيولهم وهم يترصدون الفتى الأنيق الذي ينزل إلى ينبوع صغير محفوف بنبات القراص كي يشرب، يشير أحد الملثمين إلى صديقيه وينزلون مارقين فيما يشبه غزوة منقضّين على الفتى الأنيق، يحومون حوله وهم يتصايحون، عندما يسارع إلى حصانه المرقط كي يمتطيه يعترضه أحدهم، فيسقط، ويأخذ حصانه عنوة، يصرخ فيه الفتى:

- اترك عنك حصاني.

يضحك وتؤول ضحكته قهقة فيدنو منه ساخرا:

- فتى شجاع.

يضربه بخلفية بندقيته فيسقط مغشيا عليه.

يضحكون حد الهرطقة ثم ينطلقون غانمين الحصان المرقط.

تتخلف السنونوات عن زحف القافلة الغجرية.

ويلم بالنهار صحو بهيج، يعتوره بعض الرذاذ الحالم.

تصل القافلة إلى أزغار أخيرا لحظة العصر، ينفصلون عن الشجر الداغل المحبوك من البلوط والغار والعصفر والتنوب والشوحط، ويقفون عند أعتاب أكثر من دار تشبه تكتل قصبة صغيرة بدون سور، كلها في ملكية الشيخ، ويرحب بهم رعاة وخدم هذا الأخير ويسعفوهم بانزال الحمولة والأمتعة ويدخلونها آمنين.

- مرحى بالأحبة.

ويبدأ شخص مقرب إلى الشيخ باستضافتهم ويدل الأسرتين على دور الاستقبال. يقود أسرة الأب الستيني إلى بيت مستقل ويقود أسرة الرجل صاحب الجلباب الأزرق إلى بيت ثان خاص أيضا.

يتفقد الأب بيته الجديد، ويفحص المفروشات الفاخرة، الحيطان المزوقة، الزرابي المطوية، الوسادات المصفوفة، البطانيات المرصوصة، الشمعدنات الكبيرة، السقف الخشبي الصنوبري والدولاب المتألق ببلور الزجاج. الخ.

يتهج وجهه، ويصيح في ولديه حبورا:

- لن تعرفوا للزمهرير عنوانا بعد اليوم، مرحى دفء الحيطان ووألفتها الجميلة.

عندئـذ يطـرق أحدهـم الباب ويدخـل مع آخريـن ويؤثثـون المائدة بصحن كبير مـن المرق ولحم الغنم ومعه طابق مـن الفاكهة (تفاح وعنب وبرتقال).

ما أن يغادر الشخص وخدمه البيت حتى ينقض الطفل على الصحن وكذلك تسارع فتاة البحيرة ويدنو الأب الستيني، فمنذ زمن لم يتذوقوا طعم اللحم، حتى أنهم نسوا طعمه.

يلتهمون الأكل، وينقاذون لنوم قيلولة متأخرة. عندما يرجع الشخص ليلملم فتات المائدة يدنو من الأب الستيني ويهمس له:

- هيء نفسك لعرس الغد، يبشرك الشيخ.

ثم يسطو الليل بجنح ظلمته ويتجبر بسلطان عتمته المجيدة.

يستشرس عواء الكلاب في الظلمة العاتية، كما لو كانت تحمي قصرا عتيقا من مداهمة جحافل ذئاب متربصة.

تنشج فتاة البحيرة في البيت المخصص للأب الستيني عندما يفاجئها هذا بالخبر اليقين الصارخ، ويصيح بها:

- وجدنا أخيرا من يستر فضيحتك.

ينصرف، وتجهش بالبكاء أمام ذهول الطفل، لا يصدق أن أخته الصغيرة ووالده سيتزوجان في يوم واحد. البنت من الشيخ وهو من ابنة صديقه ويقول لها في دهشة:

– حقا سيتزوج أبي من ابنة صديقه وأنت من ذلك الكهل؟

وتتداعى له بدموع ونشيج مؤرق.

ظلت فتاة البحيرة تتقلب على جمر سهاد، لم يذق جفنها طعم النوم على طول فراسخ الليلة. تمنت لو كانت ذئبة بتلك الليلة، تركض في الشعاب وتثب من هضبة إلى أخرى ومن جبل إلى آخر.

لا تعرف كيف انفرط الليل، وبكّر النهار بعودته المفزعة.

نهار مخضب برائحة المرق ودخان المشويات يتعالى في سماء البيوت المتواشجة كعنقود، وفي الساحة المتاخمة، دائرة رقصة أحيدوس كبيرة، تندلع منها الصيحات والأهازيج والنقر على البنادير يتعالى صاخبا في نغم متناسق وجليل وتتعالق أجساد الراقصين، رجالا ونساء كما لو يهندسون لمدارات كوكبية بين الأفلاك السماوية.

استأنف صخب الوليمة إيقاعه الباذخ من الصبح حتى المساء، بدت القصبة كيوم حشر صغير، متماوجة بنهر وجوه جاءت من كل الأصقاع، واحتشدت شارعة الأفواه للثرثرة والأكل والرقص الرجيم.

وأعقب المساء انسكاب الظلمة من كل الجهات، ودنت الحقيقة المفزعة من فتاة البحيرة بكل جشع وفظاظة.

بدت فتاة البحيرة ممتقعة اللون وهي تذرف ماء الهلع ما تزال، ولاحت الفتاة الثلاثينية منشرحة الطلعة وسط ثلاث نساء يشرفن على إلباسها ثوب العرس ويشرعن في تزيينها أكثر مما ينبغي.

تهتف إحداهن في فتاة البحيرة قائلة:

– الحمقاء، هذا عرسك لك أن تبكي فرحا.

تنشج فتاة البحيرة وتتمتم:

– أتمنى لو أموت على أن أقبل بهذا الوضع المهين.

بعيدا عن الرقصة البربرية، يتخلف الطفل وراء بيت الشيخ حاملا قنينة بلاستيكية ومعه الفتى الأبكم يتلمس بأصابعه الخشنة علبة كبريت في جيبه.

يبدي الطفل حماسا صلبا ويقول لصاحبه الأبكم:

– سنضرم النار في مخزن التبن أولا، ثم نحرق مخزن الشعير ثانيا.

يشير إليه الولد الأبكم بعلامة استحسان مبدئية من رأسه.

يرش الطفل بوابة المخزن الخاص بالتبن، ويوقد الولد الأبكم عود كبريت، ويلقي به الى الداخل فيندلع الحريق.

يركضان معا جهة مخزن الحبوب، ويكرران العملية ثم يلوذان بالفرار.

يتسللان إلى الساحة ويلوحان داخل دائرة الرقصة كأنما لم يقترفا شيئا، وحين يعلو لهيب النيران، متفاقما في سماء البيوت، يتعالى صياح الفزع من كل الزوايا وتتفكك الرقصة، فيركض الجمع في كل الجهات:

– النار، النار. حريق، حريق.

– الحريق في مخزن التبن.

– النار في مخزن الحبوب.

وينبرون لها في الحين بالصياح والصخب ويتطوعون ببسالة لإخمادها بالدلاء والحجر والتراب.

عندما يصل لغط وصراخ المحتشدين بنذير الحريق غرفة العروسين، تخرج النساء من البيت مذعورات، وتهرع الفتاة الثلاثينية هاربة في أيما اتجاه، وتعقبها فتاة البحيرة.

وسط الأمواج البشرية المتلاطمة، لحظة الذعر والهرج والهلع تنزع فتاة البحيرة عنها ثوب العروس وتهرب جهة العربات المتكدسة على جانب الساحة وتتسلق شاحنة وتقفز إلى داخل الحاوية وتنكمش في زاوية خلف بقرتين.

تتحرك الشاحنة بعد نصف ساعة، عندما يخرج سائقها من وسط البيوت ويدير المحرك كأنما يهرب بدوره أيضا.

تخف حدة الصراخ مع انطلاق الشاحنة في خارطة الليل وهي تحتطب بضوء مصباحيها حقول الظلمة ولا يستنسر في سكون الوهاد والسفوح وشعاب الهضبات إلا حشرجتها الفاسقة.

ينقشع خيط الفجر المجلل بندى الصقيع.

تقف الشاحنة أخيرا في سوق قرية على تخوم الفجر.

يركنها السائق داخل رحبة مخصصة لبيع المواشي في السوق الأسبوعي. تتوجس فتاة البحيرة وتتلصص من حاوية الشاحنة، تلوح لها عظاءة من صنف (سام أبرص) على السور تتملى الجهات بعينيها المتورمتين، وحين تطمئن الفتاة الى غياب السائق، تنزل، وتتسلل في زحمة البدو، بين قطعان الغنم والبقر.

يندلع الصباح بهيجا وملوثا بضجة الزائرين.

تقف فتاة البحيرة على عتبة خيمة.بمثابة مقهى بدوية (هي نفسها الخيمة التي التقى فيها أبوها الستيني بالرجل صاحب الجلباب الأزرق كي يضربان صداق خطوبته على بنت هذا الأخير). تسترعي انتباه المرأة صاحبة الخيمة وتدعوها هذه قائلة:

– ادخلي يا ابنتي، لتسدي رمقك بكسرة خبز.

وتتفضل فتاة البحيرة بالدخول.

تعدّ لها بيضة في زيت مقلية، وتصب لها كأس شاي وهي تسألها:

– من أين أنت؟

تجيبها البنت مترددة

– من بحيرة "أكلمام أزكزا" .

- مرحبا ببحيرة "أكلمام أزكزا" وسحر "أكلمام أزكزا".

تتفرسها من قنة رأسها حتى أخمص قدميها وتسألها:

- إلى أين وجهتك؟

تصمت فتاة البحيرة وترتبك. وتلح عليها المرأة:

- احتسي شايك أولا وكلي البيضة.

تأكل فتاة البحيرة في خجل وينتابها خوف. لا تمهلها المرأة وتسألها من جديد:

- ما خطبك فتاتي، صارحيني؟

تصمت فتاة البحيرة وبمشقة تنبس:

- لا شيء أبحث عن عمل لا غير.

تضحك المرأة بصوت جهوري. وتردد:

- العمل، بلى، سنبحث لك عن عمل.

ثم ما تلبث تلتهمها بعينيها الفاسقتين وتسأل بصلافة:

- وماذا عن أهلك؟

تصمت قليلا وتجيب:

- كانت عندي أم توفت، وأنا الآن يتيمة.

- مسكينة.

تقول لها المرأة شبه متعاطفة، تزهر ملامحها ويبرق الخبث في عينيها ثم تخاطبها:

- ساعديني في العمل هنا إذن، إلى أن يأتي رجل معرفة، أرسلك معه لتحترفي عملا يكسبك ذهبا.

تزدهر ابتسامة فتاة البحيرة وتنهض فورا لغسل الأواني وتقديم المساعدة اللازمة.

عند الظهيرة يقبل رجل بشارب كث، وتنقشع ابتسامة على وجه المرأة صاحبة الخيمة، فتتحمس قائلة:

- دائما تأتي في الوقت المناسب.

- خيرا إن شاء الله. يقول لها.

- هو الخير بعينه. تقول له.

يجلس ليشرب كأس شاي، وتطلب المرأة من فتاة البحيرة أن تمد له الكوب:

- سلمي على سيدك.

تتقدم البنت وتسلم عليه في خفر.

- ما رأيك بفرخ اليمام هذا؟ تقول له بخبث.

– لم أر حجلة مثلها من قبل.

يجيبها.

– دبر لها عملا إذا، لأنها تحتاجه، واحرص عليها كابنتك.

– عمل!

يضحك بشكل صفيق ويتابع:

– مرحى، وإن كان العمل نادرا هذه الأيام، فسأدبر لها شيئا فاخرا يليق بها وبحسن خلقها وجمالها.

ينهض توا ليخرج وهو يقول للمرأة:

– لننصرف الآن، فلا وقت لي أضيعه هنا.

تطلب المرأة من فتاة البحيرة أن ترافقه قائلة:

– كوني مطيعة يا فتاتي، هذا الرجل الطيب سيصحبك إلى مكان العمل مباشرة.

في الوقت الذي تتقدم فتاة البحيرة لتخرج من الخيمة، ينفرد الرجل بالمرأة ويسلمها ورقة نقدية، قائلا:

– هذا عربون صفقتك اللعينة، سأزودك بالمبلغ عند عودتي الأسبوع المقبل.

تتوجس فتاة البحيرة من مصيرها الغامض، ولا تصدق أنها وجدت عملا بتلك السرعة الخارقة. يرافقها الرجل صاحب الشارب الكث إلى محطة الحافلات ويحجز لها مقعدا بجانبه، وتنطلق الحافلة المهترئة، المكتظة بالبدو خارج قرية السوق.

تلتفت فتاة البحيرة صوب زجاج النافذة وترفو نظرتها السهول والهضاب، ويلمّ بها دوار، وينتابها غثيان، فتلك أول مرة تجرب فيها ركوب حافلة متصدعة.

يستغرق السفر ساعات، قبل الوصول إلى مدينة حمراء.

ينزلان في المحطة الصاخبة ويشقان طريقهما وسط تموج بشري هادر وهو يمسك بيدها كأنما ستنفلت منه في أي لحظة، وهذا يجعلها محرجة تماما، ويستعصي عليها سحب يدها، فتتلاطم مشاعر متناقضة بصدرها ولا تجد ملاذا أمام عدم الرضا الذي يصخب في داخلها.

يعرجان في زقاق طويل، ويدس الرجل مفتاحا في باب خشبي لدار كبيرة، ويدلفان إلى فناء واسع، بغرف عديدة، وهناك تنتصب امرأة سمراء، بدينة على أريكة أمام مائدة وهي تمسك سيجارة. يدخل الرجل صاحب الشارب الكث، ويقدم لها الفتاة:

– هذه فرختك الجديدة.

تتفرس فيها بانبهار وتصيح:

- قرطاسة!

تتلمس جسدها بوقاحة وتسألها بصلافة:

- كم عمرك حبيبتي؟

تصمت فتاة البحيرة ويقول لها الرجل صاحب الشارب الكث:

- اسأليها بالأمازيغية فهي لا تعرف الدارج العربي.

عندها تسألها المرأة بلهجتها وترد الفتاة مذعورة وبخجل:

- ثلاث عشرة سنة.

- تبارك الله، تبارك الله. تقول لها ثم تنادي على إحدى الفتيات:

- عزيزة، عزيزة.

- نعم، عزيزتي. تجيبها الفتاة.

- امنحي الفتاة جلبابا واصحبيها إلى الحمام واغسلي عظامها الطرية.

- حاضر أ لالة.

بتلك الليلة المريبة، صدحتْ الموسيقى الشعبية في الدار الكبيرة واحتد اللغط وترامت أصداء الهرطقة في الزوايا.

في غرفة بذاتها، تعتورها تهويمات دخان السجائر، يشجب صوت

خشن لرجل بلباس رسمي ومعه عون في زي تقليدي (هو نفسه المقدم الذي سجن أب فتاة البحيرة وسلب خيمته على ضفة النهر) يتحلقان حول مائدة تؤثثها زجاجات نبيذ أحمر.

تبالغ المرأة صاحبة الوكر، في الترحيب بضيوفها وتصب لهما كأسين، قائلة:

- الليلة لكما موعد مع مفاجأة صارخة .

- عجلي بها إذن قبل انفراط الليل. يقول الرجل الرسمي بجشع وهو يتلمظ .

عندها تصيح المرأة صاحبة الوكر:

- عزيزة، أينك، وأين "القرطاسة".

- فورا أ لالة. ترد الفتاة عزيزة.

بعد برهة تدخل الفتاة عزيزة ومعها فتاة البحيرة إلى غرفة العربدة فيصفر الرجل الرسمي لمرأى فتاة البحيرة اعجابا وافتتانا ويصيح المقدم قائلا:

- في أي أرض مباركة حفرت وعثرت على هذا الكنز.

عندما تراه فتاة البحيرة تتذكر وجهه المقيت، وتصعق لذلك، وأكثر من ذلك يلم بها الهلع، لأنها تدرك لحظتئذ أنها سقطت ضحية في يد قذرة وكل المؤشرات تقول أنها ستغتصب من جديد .

يطلب منها الرجل الرسمي أن تتقدم باشارة من يده وتبقى متسمرة في مكانها، تقشعر حينما يمسك بها المقدم ليجعلها بين يديه فتتمرد وتنفلت من قبضته مذعورة وهي تقول:

– لا، لا.

لحظتئذ يمتقع وجهها وتجهش بالبكاء، ثم يحدث ما لم يكن في حسبان أحد، إذ تتبول من الفزع الحاد.

تأخذها صاحبة الوكر بعنف وتدفعها ناحية الفتاة عزيزة وهي تقول:

– يا للحرج والعار.

ثم تأمر الفتاة عزيزة صائحة بها:

– اصحبيها إلى الحمام وجهزيها من جديد بسرعة.

تخرج فتاة البحيرة مذعورة ما تزال ترتعد وتنشج، وتتعاطف معها الفتاة عزيزة وبدل أن تصحبها إلى حمام البيت، تدلها على باب الدار وتفتحه لها وتهمس لها:

– اطلقي ساقيك للريح وانفذي بجلدتك.

تقف فتاة البحيرة متسمرة وحائرة وتكرر الفتاة عزيزة :

– اهربي بأسرع ما يكون .

تخرج فتاة البحيرة وتركض مرعوبة في الزقاق...

تستأنف هرولتها مذعورة دون أن تلتفت إلى الخلف، وتنعطف داخل شارع فارغ وعندما تشرع في عبوره إلى الرصيف المقابل، تدهسها سيارة فارهة.

تخرج من السيارة امرأة في الستين، مذعورة بدورها تتلمس جسد الصبية المطروحة على الإسفلت، وتتنفس الصعداء عندما تجدها ما تزال على قيد الحياة، وبدون دم مصفد، تلتفت يمينا وشمالا، ويتأكد لها أن الشارع الصغير فارغ تماما، فتحملها وتضعها في الكرسي الخلفي للسيارة وترجع إلى مكانها في المقعد الأمامي وتقلع من جديد.

داخل مؤسسة مكتوب على بوابتها: مؤسسة أولاد البلاد (ملجأ الأيتام). تظهر فتاة البحيرة وهي ترعى أطفالا في قاعة مملوءة بالدمى ومعها مربية، وتلوح غير بعيد عنها المرأة الستينية التي دهستها بالسيارة مطلة من الباب وهي تبتسم لها وتسألها:

– هل كل شيء على ما يرام .

تحرك فتاة البحيرة رأسها ممتنة وترسم ابتسامة رضا وارتياح أكيد.

بعد مرور عشرين سنة. داخل مؤسسة أولاد البلاد (ملجأ الأيتام)، في قاعة واسعة مكتظة بالأطفال، تظهر مديرة المؤسسة العجوز في كرسي متحرك، وقد شاب رأسها بالكامل، المديرة التي كانت قد دهست فتاة البحيرة بسيارتها وأنقذتها من مصير التشرد بضمها إلى المؤسسة، كي تعتني بالأطفال كمربية.

ترحب المديرة هذه وقد تقدمت في السن، بشاب في الأربعين، بشعر كثيف ومعه امرأة شقراء تبدو من ملامحها أنها فرنسية، وتقدمهما للمربيات والأطفال:

– أقدم لكم الرسام المتميز أطلس، ومعه زوجته الفنانة، الفوتوغرافية "إيميلي".

تطلب منه أن يتقدم إلى وسط الدائرة حيث سيقوم بورشة رسم للأطفال وتردف:

– أترككم مع رسامكم المدهش، لتتعلموا معه رسم كل شيء.

استمتعوا بوقتكم.

وتنسحب بكرسيها المتحرك صوب مكتبها.

عندما يسلم الرسام على فتاة البحيرة وقد صار عمرها بعد مرور عشرين سنة ثلاثة وثلاثون سنة، يقف مبهورا بعينين شاخصتين، ولا يصدق أنه أمام وجه يعرفه جيدا، وجه أليف تماما، يحاول أن يتذكره ويمعن فيه النظر أكثر. يبدي ذهولا وارتباكا كما لو يرغب في أن يتيقن من أنه هو، أي وجه الفتاة التي في ذهنه تماما. لا يشعر بأنه كان غائبا إلا بعد أن تقول له مربية ثانية وهي صديقة لفتاة البحيرة تعمل معها في نفس المؤسسة وهي من سنها:

– هذه المربية شامة وأنا المربية نوار، ونحن رهن اشارتكما.

يرتبك الرسام ويتقدم ليبدأ بتلقين أدبيات الرسم للأطفال، ويبدو عليه

عدم التركيز وهذا ما تلحظه زوجته "إيميلي" التي تسأله بين الحين والحين:

- ca va toi?

نفس الحيرة والارتباك يظهر على فتاة البحيرة، التي ترمقه بتوجس وريبة ولاتصدق أنها ترى وجها أليفا، وجه وسيم تعرفه تمام المعرفة.

تمضي الحصة في تشوش، إذ ينهي الرسام الدرس التطبيقي على غير عادته وهو ببال مشطور وتركيز مختل، ولا تبرح نظراته وجه الفتاة، فتاة البحيرة التي صار إسمها المستعار هو: شامة.

مع حلول الليل الجانح تستلقي الفتاة نوار على سريرها المجانب لسرير فتاة البحيرة وترصد عظاءة منزلية من صنف (الوزغة) ملتصقة بسقف الغرفة، وتنبس:

- غريب كيف كان ينظر إليك الرسام الأنيق، كأنه يعرفك من زمان.

تصمت فتاة البحيرة، بنيما تردف نوار:

- ربما شبهت له بفتاة يعرفها؟ وربما جمالك صعقه، لكن كيف تجرأ أن يسدّد لك نظرات الإعجاب تلك على طول الحصة ومعه زوجته؟

تلتزم فتاة البحيرة بالصمت كأنما لم تسمعها وتضيف صديقتها نوار:

- حدسي يقول أن وراء الأمر حكاية.

عندما تلاحظ أن صديقتها غائبة تماما عنها، تقفز إليها في سريرها وتضع

يدها على خدها، تصفعها صفعة طفيفة كي تثير انتباهها وتقول لها:

– لا تقولي لي أنك لم تسمعي أزيز ماكينتي، ماذا في الحكاية أيتها اليمامة الشاردة؟

ترسم فتاة البحيرة ابتسامة غريبة وتنبس:

– غدا أخبرك بالأمر اليقين، عندما ألتقيه. ما في رأسي الآن لايعدو أن يكون محض شكوك.

– تلتقينه! تسألها نوار مندهشة.

– بلى، طلب مني أن نلتقي غدا في منتصف الظهيرة.

بمنتصف ظهيرة يشملها القيظ بعنايته الشمسية المفرطة.

تظهر فتاة البحيرة على الإفريز، بمحاذاة مقهى أزغار، وتقف سيارة من نوع جيب، ويلوح الرسام من زجاج النافذة، فاتحا لها الباب كي تتفضل بالركوب، تركب الفتاة وتقلع السيارة في الحين.

في السيارة تسترعي انتباهها وسادة صغيرة تتدلى كتميمة في المقصورة الزجاجية ويذكرها هذا بشيء مألوف وسحيق في ذاكرتها، حيث كانت تنسج مثل تلك الوسادات في صغرها.

تنطلق سيارة الجيب مخترقة وسط المدينة الصغيرة وتتوقف عند عتبة

"فيلا" في حي فاخر وينزل الرسام الأنيق ليفتح الباب لفتاة البحيرة ويرحب بها بحفاوة كي تتفضل وتدخل منزله.

يفتح بوابة الفيلا ويلجها هو الأول ثم تلحق به.

بحفاوة يرحب بها ويطلب منها أن تجلس على أريكة في البهو، يطلب منها شرب شيء، وتعتذر، فيقترح عليها أن تلقي نظرة على ورشة رسمه بالداخل.

يقودها إلى جناح داخلي، ويحرضها على الدخول، تتقدم بخطوات متوجسة والذهول يضرج وجهها، وما يني الذهول يؤول إلى صدمة بما تراه من لوحات، لوحات هي عبارة عن بورتريهات لوجه واحد من كل الزوايا، وجه فتاة واحدة، هو وجهها بالذات لما كان سنها في الثلاث عشرة سنة.

– غير معقول.

تردد مصعوقة ومن عينيها تسح دموع المفأجاة.

تتراجع إلى الخلف ويكاد يغمى عليها، يسارع إليها ويسندها إلى كرسي، ويأتيها بكوب ماء.

يجلس إلى جانبها في مقعد ثان، يتنفس الصعداء ويقول لها:

– لا أصدق أن نلتقي بعد عشرين سنة.

– يصعب أن أصدق أنني أراك ثانية. تجيبه.

- أنا مدين لك ولوجهك الأسطوري، لولاك لما صرت رساما كبيرا في فرنسا. يقول لها باعتزاز ويقين.

تنظر إليه بذهول وهي لم تستوعب هول المصادفة بعد.

ينهض ويذهب باتجاه لوحة بعينها، وفيها يشرق وجهها، واقفة في التفاتة ساحرة على عتبة الخيمة، بضفة النهر:

- تتذكرين هذه؟

يسألها راسما ابتسامة وارفة.

ترمقه مسحورة وتتأمل اللوحة بابتهاج طفولي.

- هذه هي سبب نجاحي الباهر. يقول لها.

يتجه صوب رف خزانة ويجلب عددا من المجلات ويطلعها عليها، أغلب أغلفتها الأمامية تضع نفس اللوحة، وحول اللوحة يريها الكم الهائل من المقالات والدراسات والبحوث الخ....

يدع المجلات تنفرط ساقطة من بين يديه ويتكئ على كرسيّه، ثم يحكي لها في حزن:

- منذ أن افترقنا تلك الليلة، ابتليت بابتسامة وجهك، لم أستطع أن أنام برجوعي إلى المدينة، وكنت تشرقين في أحلامي بكل حين، ووجهك كان لغزا بالنسبة إليّ، وعنوانا لتاريخ غامض، هو تاريخ هذه البلاد المنسي. أحببتك من أول نظرة، لم يكن هذا حب مراهقة، كان أعمق من ذلك،

أعمق بكثير، لهذا رجعت إلى المكان بعد أيام من فراقنا تلك الليلة وسألت عن طريق أزغار الذي سلكته قافلة أبيك، امتطيت فرس جدي المرقط وصرت في أثرك الغجري، لسوء الحظ، أو هكذا شاء القدر المأساوي، فقد ضللني رجل لئيم، اكتشفت فيما بعد أنه قاطع طريق، ودلني على الوجهة الخطأ، عندما سألته عن أزغار وفي مكان موحش، سينقض علي هو وعصابته ويسرقون فرسي بعد أن غدروا بي وضربني زعيمهم بخلفية بندقية وأغمي علي في حينه. التقطني غجر على دوابهم وعدت إلى النهر، ثم المدينة فيما بعد، وظل وجهك الأطلسي أثرا فنيا، حاولت أن أؤرخ غرابته وأقبض على تفاصيل جماله البربري في أكثر من لوحة، وصرت مهووسا به كما لو كان مسّا، وما رسمت غيره، بأشكال ووضعيات مختلفة.

ما يضاهي ألف لوحة من أجل وجه واحد، واحد متعدد.

يشعل سيجارة، يرشف بعمق ويردف:

– أتفهمين، كيف أنني مدين لك.

من ركن الغرفة الشمالي، تتدلى رتيلاء بخيط رفيع كأنما لتسترق السمع لما يدور بين الفتاتين.

بدت الفتاة نوار على حاشية السرير منهوبة الملامح وهي تنصت بامعان إلى صديقتها فتاة البحيرة، تصفر وتنبس:

– كما في قصص الجدات الخرافية.

تعلق الفتاة نورا وهي تنصت باهتمام مفرط ما تزال، على سريرهما المزدوج بغرفة النوم.

– أمر يستعصي على التصديق، أفدح من حلم.

ترد فتاة البحيرة مسحورة .

– في كل الأحوال أنا سعيدة أنك التقيت الشاب الوسيم الذي سحرك منذ عشرين سنة.

– ليتني ما التقيته!

– بدل أن تفرحي وترقصي، تقولين ليتك ما التقيته؟ أهذا جنون؟

ترد الفتاة نوار باستغراب.

– سحر اللقاء لا أنكر جماله، لكن بعد فوات الأوان صديقتي.

– فوات أوان ماذا؟

– لا تكوني حمقاء فهو متزوج من فرنسية؟

تقول فتاة البحيرة.

– قد يطلقها ويتزوجك. تقول الفتاة نوار بحماس مفرط.

– بل علي أن أترك هذه المدينة بأسرع ما يكون.

تهمس فتاة البحيرة بشجن.

– تتركين ماذا؟

تسألها نورا وتصيح:

– يبدو أنك جننت.

تبتسم وتردف:

– يللا جربي أن ترافقيني مرة واحدة، واحدة فقط، لتكن هذه الليلة، أعرّفك على الشاب الوسيم الذي أغني مع مجموعته، ستنسيك أناقته في كل شباب العالم.

تجيبها فتاة البحيرة:

– تعرفين أنني لا أرتاد هذه الأمكنة.

تقول لها بفتور.

تنهض الفتاة نوار وترتدي جلبابها بعد أن تضع لباس رقص في حقيبة صغيرة وتقول لصديقتها:

– هذا موعد ذهابي إلى السهرة سأرجع فجرا وسنتحدث، لكن دون أن أسمع هذرا منك كرّة أخرى: سأترك المدينة.

وتغادر الغرفة.

على ركح مسرح مضاء بأكثر من بروجيكتور، في سهرة تحيط بها موائد فاخرة، لعرس باذخ، تظهر مجموعة موسيقة، يترأسها عازف كمنجة وسيم

في سن الثلاثين، ومع الراقصات تظهر الفتاة نوار صديقة فتاة البحيرة، يندلع الايقاع فوارا يتماوج له الحضور بالرقص والصفير وتتوقد السهرة على وقع النغم المنسكب الفواح ويستحسن الجمهور العزف والأداء الساخن للمجموعة، وتزدهر النشوة في وجوههم المغتبطة.

تستغرق السهرة ساعات ولا تكاد تنتهي حتى تخوم الفجر، مع اختتام الغناء البربري، تتقدم امرأة أنيقة، شقراء، على مشارف الثلاثين، وتعرب لعازف الكمان عن اعجابها بعزفه وأدائه وتقول له :

– سيشرفني جدا أن تحيي حفل خطوبتي.

وتمد له بطاقتها الشخصية. يمسكها بحماس ويقول:

– شكرا، بكل فرح.

صباح اليوم الموالي، تقف فتاة البحيرة مع صديقتها نوار بساحة مؤسسة أولاد البلاد (ملجأ الأيتام)، بحزن فاقع، وعلى إيقاع ترتيل آيات من القرآن الكريم تتلقيان معا التعازي في وفاة مديرة المؤسسة من بعض الجيران والمعارف القليلة، ومن المعزين الزائرين، كان الرسام أطلس مع زوجته إيميلي.

بمرور أسبوع على وفاة مديرة الملجأ، يدخل شخص نحيف إلى المؤسسة ذات صباح ويسأل عن المربيتين، فتاة البحيرة ونوار، ويسلمهما ورقة وهو يقول بصوت أجش :

- يؤسفني أن أخبركم بأمر إفراغ المؤسسة، هذا بلاغ رسمي يمهلكم بثلاثة أيام حتى تغادروا المقر .

ينظران إلى بعضهما البعض بفزع وتنبس نوار:

- كيف؟ إفراغ المؤسسة؟

يجيبها الرجل النحيف:

- هذه دعوة قضائية من أقرباء المديرة يطالبون فيها باخلاء المؤسسة.

- المديرة ما كان عندها أقرباء غيرنا، ثم هذا ملجأ أيتام، أين سيذهب هؤلاء الأطفال؟

يرد الرجل النحيل:

- هذي دعوة قانونية وأما الأطفال فستتكلف بهم مؤسسة أخرى.

تخرّ قوى نوار وتفقد توازنها فتجلس على الكرسي ممتقعة الوجه، ولصيقا بها تشرد فتاة البحيرة منقوعة الملامح.

مساء ذلك اليوم الفاجع تجلس فتاة البحيرة مع الرسام أطلس بزاوية في مقهى أزغار، ويسود بينهما صمت غائر، يقطعه الرسام قائلا:

- يستحيل أن أتركك، بعد أن عثرت عليك ثانية.

تبتسم فتاة البحيرة بأسى وتقول له:

– قدرنا أن نلتقي لنفترق مرة ثانية كما في الأول. لكن هذه المرة سيكون للأبد.

يفاجئه ردها ويقول بانفعال:

– لن أسمح بهذا. لن أتركك أبدا، فأنا لا أزال مغرما بك.

يصمت مشوشا، مترددا، ثم يواصل:

– يمكن أن نعيش معا هذه المرة.

– كيف؟ أعيش معك وزوجتك؟

يتدارك ويقول مرتبكا:

– أعني سأستاجر لك بيتا، أشتريه لك بالأحرى، وأهتم بكل شؤونك.

– بصفتك ماذا تسدي لي هذه الخدمة؟

– بصفتي...

يرتبك، ثم يقول:

– ما رأيك أن نتزوج؟

يقول لها بحماس ودونما حسابات.

– نتزوج؟ كيف سيحدث ذلك، ماذا عن زوجتك إيميلي؟

- أعني يمكن أن نتزوج سرا..

يقول لها، وتنهض في الحين مفجوعة الملامح وهي تكاد تنشج، ودون أن تسلم عليه تغادر المكان، بينما يصيح بها مصدوما:

- فتاة البحيرة ...

دقت ساعة الرحيل بذلك الصباح المدلهم.

على رصيف المؤسسة، قريبا من باب الملجأ، تقف سيارة من نوع "هوندا"، وتحمل أمتعة الفتاتين، فتاة البحيرة ونوار ويركبان معا بجانب السائق، وقد أفرغا غرفة مسكنهما داخل المؤسسة لصالح الورثة الجدد. ثم تقلع الهوندا باتجاه زقاق في حي شعبي وتقف عند بيت كبير ببوابة من خشب العرعار، وينزل السائق وهو يحمل الأمتعة ويدخلها إلى البيت، ولا يفوت بعض الجيران الأمر ويطلون من النوافذ ويتحلق الأطفال...

حين ينهي السائق نقل الأمتعة، تدفع له نوار، وتقف فتاة البحيرة مذهولة وهي تمعن النظر في بوابة الخشب والبيت، وتتذكر الرجل صاحب الشارب الكث الذي اصطحبها إلى بيت دعارة كهذا عندما جاءت المدينة أول مرة. تحثها نوار على الدخول ويصعدان الأدراج باتجاه غرفة في السطح، ثم ينبريان لتنظيف وتأثيث الغرفة المشبعة بالرطوبة.

صعدت إليهما امرأة بدينة من البيت السفلي ورحبت بهما في الغرفة، ثم روت لهما دون مناسبة حكاية الدار الكبيرة، التي كانت فيما مضى وكرا للدعارة، و لم يستقر في ذهن فتاة البحيرة إلا حادثة موت صاحبة

الوكر على يد إحدى فتياتها.

علقت الشهقة في صدر فتاة البحيرة وهي لا تكاد تصدق أنها في البيت الآثم الذي كانت ستغتصب فيه وتسقط في كمين البغاء. ابتهلت إلى الرب في داخلها ورغبت تماما بلقاء الفتاة عزيزة التي أنقذتها من المصير المزفت، فأمسكت بذراع المرأة البدينة وسألتها:

– ما كان إسم الفتاة التي قتلت صاحبة الوكر؟

– عزيزة.

شطر برق صدر فتاة البحيرة وأردفت بلهجة منتفضة:

– وأين هي عزيزة الآن سيدتي؟

– عزيزة ماتت في السجن للأسف.

انهمرت فتاة البحيرة بالدموع أمام اندهاش المرأة البدينة والفتاة نوار.

استغرق تنظيف الغرفة ما يناهز ساعة.

و عاود المكان الخرب بعض روح الدفء.

تغرق فتاة البحيرة في صمت داخل سريرها، حزينة وهي شاردة الذهن، وتتزين صديقتها نوار، مرتبة شعرها على مرآة جانبية صائحة:

– السكن هنا مؤقت، لحين كراء بيت أفضل.

توغل فتاة البحيرة في وجومها وتسترسل نوار:

- لا تحملي هم العمل أيضا، أنا تكلمت مع الشاب الوسيم، الكوامنجي، وهو مشتاق كي يتعرف على صوتك ورقصك المثير.

تترنم بأغنية ثم تردف:

- الليلة سنلتقيه في "قصارة" عرس أقصد خطوبة، وسآخذك بالقوة.

صدقيني الشاب طيب ونبيل وسترتاحين للعمل معه.

بتلك الليلة المتوترة، صاحبت نورا فتاة البحيرة إلى سهرة الخطوبة بفندق مصنف (أربعة نجوم). وهيأتها كمفاجأة صاعقة لصديقها عازف الكمان، كصوت عذري قوي وصارخ ومثير.

على ركح منصة السهرة في قاعة الحفلات بالفندق يدخل العازف الشاب مع الفرقة، ويتوسطون الدائرة وتتعالى صيحات الإعجاب، تلتحق بهم الراقصات، وفي مقدمتهن فتاة البحيرة ومعها صاحبتها نوار، ويحتد لغو الضيوف والجمهور الذي يؤثث القاعة بشكل غفير.

على هامش المنصة الاحتفالية، تبدو على كرسي مستقل المرأة الأنيقة، الشقراء التي سبق وتقدمت إلى عازف الكمان في سهرة سابقة وأعطته بطاقتها الشخصية، حتى يحيي ليلة خطوبتها، ويتضح جليا أنها ليلتها الموعودة تلك. وقريبا منها يقف بجانب الكرسي الفتى الرسام الأنيق أطلس ومعه زوجته الفرنسية إيميلي.

هذا الذي يقشعر عندما يشاهد فتاة البحيرة على ركح المنصة، وينتصب مشدوها ومتوترا لرؤيتها غير المتوقعة.

نفس الشيء، يحصل معها عندما تشاهده من فوق المنصة وهي تتساءل في نفسها:

- ماذا يفعل هذا هنا؟

يبدأ العازف الشاب بالدوزنة عِلى الكمان، ويتداعى لها الجمهور بالتصفيق والآهات. ثم فجأة، يندلع صوت فتاة البحيرة، قويا، صادحا، حادا، وشجيا في موال أمازيغي ساحر:

- أوصيك خيرا يا حمام الأعالي

قد يضللك طريق أزاغار الملتوي

يتجاوب الحضور لصوتها الحاد بالتصفيق الحار، بينما يقف الفتى الرسام أطلس مصعوقا وهو لا يكاد يفهم شيئا. صوتها الزمردي يباغت أكثر عازف الكمان الذي يلتفت غير مصدق حنجرة المغنية البلورية، وعندما يحدق فيها يثيره وجهها الأليف لديه، وتعتريه حيرة ويصاب بدهشة مما يراه، ليس لأن فتاة البحيرة باذخة الحسن وعاتية الجمال، ولكن لأنه يعرف هذا الوجه تمام المعرفة ويحاول أن يتذكره جيدا.

عندئذ يجيبها في نفس الموال الذي استحسن موضوع كلماته وارتجل أيضا يقول:

ما أطولك يا طريق أزغار، قد أهلكنا الشوك

كيف طردت يا درب العاصفة أبناءك بعيدا؟

يثيرها جواب عازف الكمنجة وصوته الشجي، القوي، وتلتفت بدورها لتكتشف ملامح وجهه، ولا تصدق أيضا ما تراه، إذ أن الوجه ليس غريبا عليها، وتحاول تذكره شاردة ومذهولة.

ويَتواطآن معا في ارتجال كلمات الأغنية، ويستهلانها بـ:

أيا طريقا لعينا، أذقتنا المرار

رميتنا للحزن، ألقيتنا للأخطار

وبينما يرددان المقطع معا، يوقف العازف الشاب إيقاع الأغنية ويقطعها بموال، هو عبارة عن سؤال موجه إلى فتاة البحيرة:

لي قمر ضاع مني في طريقك المضلل يا أزغار

قلبي يهمس لي أهو أنتِ وعقلي حائر بشأن ذلك

تقشعر لرسالته التي هزت أعماقها وتجيبه في الحين:

لي نجمة تخلفت عني بسماء تلك الطريق

قلبي يقول أنتَ، وعقلي مشوش لذلك

يزهر وجهه أكثر ويشجو صوته بسؤال ثان في موال:

أيعقل أن تكوني "فتاة أكلمام"

أم الأمر مجرد أضغاث أحلام؟

يصعقها سؤاله الصريح حين نطق باسمها القديم (فتاة بحيرة أكلمام) وتجيبه وهي على وشك أن تبكي:

يا أخي لم أتوقع لقاءك، غربتنا السنين

زاحت غربتي الآن، كم جلدتني سياط الحنين

عندها يحصل ما جعل الحضور يقف في دهشة وذهول إذ يترك العازف الشاب كمانه ويسارع إلى المغنية الجديدة ونفس الشيء تفعله فتاة البحيرة، تترك الميكروفون وتهرع إلى العازف الشاب، ويتعانقان بقوة ولهفة وهما يبكيان معا.

وراءهما تقف الفتاة نوار، والمجموعة مصدومين أمام المشهد النادر. تحجر وجه الرسام الأنيق من فرط الحادثة العجيبة، بينما وقفت أخته المخطوبة باندهاش، دون أن تفهم مما يحصل شيئا، ثم تعالى في الحين التصفيق والصفير من كل جهات القاعة.

بمرور أيام على اللقاء الصارخ، تنتقل فتاة البحيرة وصاحبتها نوار للعيش مع عازف الكمجنة.

يستلقي هذا على حجر أخته فتاة البحيرة ببهو بيته وهي تمسد على شعره، ويطفق يحكي لها ما جرى لأسرتها بعد هروبها ليلة العرس:

(كنت أنا والولد الأبكم من أحرق مخزن القمح والشعير وأيضا بيت التبن والعلف، لنفشل ذلك العرس. بعد هروبك، قرر الأب أن يتبرع بأخينا الرضيع إلى الشيخ، وهذا الأخير هو الذي طلب أن يتبناه، في مقابل أن يسامح الأب على حادثة هروبك.

تزوجِ أبي بالفعل من بنت الرجل صاحب الجلباب الأزرق. لكن نعمة زواجه وعمله الكريم عند الشيخ لم تدم طويلا، فبنزوله والرجل صاحب الجلباب الأزرق إلى سوق قرية بعيدة، كي يبيعا قطيعا من الغنم، صادفا داخل زحام السوق، المعلم الذي اغتصبك، طبعا الرجل صاحب الجلباب الأزرق هو الذي عرفه، لأن الأب لم يسبق له أن شاهده، كان مع فريق من السياح وكان مرشدهم، انقض عليه الرّجل وهو يقول للأب:

- هيت لك، هذا جرو المدينة الذي اغتصب ابنتك.

لم يتمالك الأب نفسه وخنقه، وبرغم تدخل الحاضرين ليخلصوا المعلم من بين يديه، لم يستطيعوا أن يحولوا بينه وبين ذلك الحقير، أحكم الأب قبضته القاتلة عليه، ولم يتركه حتى لفظ أنفاسه. ثم دخل الأب السجن بعدها، ومات بعد ثلاث سنوات)

تجهش فتاة البحيرة بالبكاء، ويعانقها عازف الكمان، ويستغرق نحيبها نصف ساعة، وحين تهدأ، تلح عليه كي يواصل سرد التفاصيل، ويتمتم مردفا:

(بعدها التحقت أنا والولد الأبكم بأقرب مدينة، وتشردنا وجربنا

العمل في أكثر من حرفة، إلى أن اشتريت كمانا وبدأت في إحياء الحفلات، وأما الولد الأبكم فجرب العمل في مطبعة للكتب.

الحظ الجميل لعب لأخينا الصغير الذي اعتنت به زوجة الأب بعد وفاة الشيخ، هذا الذي ترك له نصيبا من التركة، فأكمل تعليمه، وأجمل شيء فعله، هو أن صار معلما وهذه سنته الثانية في أزغار، حيث يدرس في نفس المدرسة التي أحرقتها أنا والولد الأبكم، انتقاما من المعلم الوضيع.)

ما أن أنهى الكوامنجي قصّ حكاية الأسرة الصغيرة بعيد حادثة هروبها، حتى سمعا معا صوت أنين وتأوهات من الغرفة المجاورة ونهضا للتو، فصادفا الفتاة نوار خارجة من الغرفة راكضة صوب الحمام كي تتقيأ.. التحقا بها ليطمئنا على صحتها وأسعفانها توا، فحملاها في السيارة إلى أقرب عيادة.

في عيادة الطبيبة التي أحيا الفنان عازف الكمنجة حفل خطوبتها، جلس الكوامنجي وأخته فتاة البحيرة وصديقتها نوار إلى مكتبها بعد أن فحصتها، وقبل أن تنبس بكلمة حول حالة غثيان الفتاة نوار، بادرتها فتاة البحيرة بالسؤال، عن اللوحة التي تعتلي حائط المكتب وفيها تظهر الطبيبة مع الفتى الرسام الأنيق أطلس متعانقين:

– هل يمكن أن أسالك: ماذا يقرب لك الرسام أطلس؟

نظرت الطبيبة إلى الصورة فوقها وابتسمت، ثم فاهت:

– هذا أخي العزيز الوحيد .

لاذت الطبيبة بالصمت لحظة وسألتها:

– واضح أنك تعرفينه شخصيا؟

تنهدت فتاة البحيرة وقالت:

– ألم يخبرك بالحكاية؟

أجابتها الطبيبة:

– وراء الأمر حكاية إذا!

شهقت فتاة البحيرة أكثر ثم ابتسمت وقالت:

– الحكاية طويلة وقد بدأت حينما التقينا منذ عشرين سنة على ضفة النهر.

قفز الكوامنجي في مكانه وقال لفتاة البحيرة باندهاش:

– لا تقولي لي أنها أخت الرسام، الطفلة الشقراء التي أهدتني الراديو والدفتر والأقلام الملونة.

– أجل هي نفسها وكأن الأمر محض حلم لا يريد أن ينتهي.

اقشعرت الطبيبة لحوارهما ونبست باندهاش يأكل وجهها الطفولي:

– من يصدق أنكما التقيتما بعد عشرين سنة في حفل خطوبتي، ومن سيصدق أننا نلتقي جميعا مرة أخرى بعد مصادفة النهر في الطفولة البعيدة.

ندت منها أنفاس حرى وابتسمت قائلة بنبرة مبتهجة:

– يشرفني بهذه المناسبة السعيدة جدا، أن أزف لكم خبرا أسعد وهو أن نوار، حامل.

– حامل!

تساءل الكوامنجي الشاب وفتاة البحيرة معا في ذهول.

في مقبرة ريفية مهملة بأزغار تزحف عظاءة (الحُكاءة) وتتوارى خلف قبر دارس. هناك حيث يعرش الصبار والهليون والحومن والشقارى، تنتصب فتاة البحيرة ممسكة بيد أخيها المعلم الذي لم يسبق لها أن رأته، ويمسك هو بيد عازف الكمنجة الذي يمسك بيد زوجته الفتاة نوار بينما يرش الشاب الأبكم قبر الأب الستيني بماء عاطر وينفض عنه غبار القسطل، ويشرعون في تلاوة الفاتحة على روحه، ثم ينفضّون عنه بعد ساعة.

على منصة داخل قاعة مكتظّة بالحضور، يجلس الأبكم إلى طاولة ومعه شخص يترجم إشاراته، ووراءهما لافتة وملصق، لكتاب يظهر في غلافه الأمامي، بورتريه اللوحة التي رسمها الفتى الأنيق الرسام أطلس لفتاة البحيرة ومكتوب على اليافطة، حفل توقيع رواية: طريق أزغار.

وتتداعى القاعة بالتصفيق للكاتب الأبكم الذي أنهى مداخلته حول حكاية روايته الواقعية ويتهافت الجمهور إلى المنصة وهو يوقّع لهم واحدا واحدا.

في الزاوية الشمالية لسقف القاعة. كانت عظاءة (الوزغة) مذعورة ترقب الحشد الغفير للحضور بعينين قلقتين ومؤرقتين وفي الخارج كان صدى نعيق غراب ينسكب من جهة بعيدة.

V

ذيل الأسبوع
(شفق الدوّامة)

19

دوامة حلزونية ابتلعت ذهني واستهلكت مخزون الدهشة بداخلي. دوامة أفصحت أخيرا عن طرف الخيط المفقود. لا ريب في أنها الحكاية الموشومة. وجدتني أهتف وكلي ينشج صائحا بزخم: تلك كانت حكاية أمي المغربية شامة، "فتاة البحيرة"، ووجودي هنا هو أكبر من أن يكون مصادفة.

دون احتكام لمزيد من الشك أو ارتهان إلى استدلال منطقي طفقت أهذي مسحورا:

هل علي أن أشكر اليوم الأول الذي مالت رغبتي فيه نحو هواية صيد الزنجور؟ ألم تكن هذه الهواية العاتية دليلا سحريا لي كي آتي إلى

هذه الجغرافيا المنسية، حيث كيمياء المغنية الأمازيغية الساحرة، مذ لمحت وجهها ضبابيا في صورة الفندق وأنا منجذب إلى لغز عاصف يشدني إلى سرابيتها؟!

كيف أجّلت حقيقة فتاة البحيرة وقد كشفتها لي إيماءة حكاية فتى العشرين في مفكرته منذ البدء؟ ألم يكن ذلك رأس خيط مضيء لمتاهة خلاسيتي الضارية؟

ربما كان عدم الوثوق بما يحدث هاجسا وراء تأجيل الإصطدام بالأشياء المفزعة والخارقة في آن؟ فكل ما حصل وقع بسرعة القتل المحيّر الذي لم يمهل المنطق حتى يغسل أدواته ويمتحنها؟ كل ما حدث انقشع كشمس مارقة بين كهفين، كهف الحلم وكهف الكوابيس.

لم تكن هناك حتى مهلة لتصديق أثر الزوبعة.

فالزنجور المرقط كان مستأثرا بكل الغواية، وانتصب خلف المسرح يحبك خيوط الملهاة وهو يعدّ لقدرية الحكايات المجنونة إيقاعها المأساوي وزعيق صرختها المدوية.

وبرغم ذلك، فاليقين الراسخ تأخّر إلى حينه، وما مفكرة فتى العشرين ورواية فيرجينيا المنسوخة بتخاطر ذهني وراوية صديقتي المنتحرة وقصة طريق أزغار، وكل عزفي السّاكسفوني الجبار، إلا محض هذيان أحاول عدم تصديقه بالكامل.

فربما أكون ضحيّة حلم صاعق، وربما هي تمثّلات غيبوبة جانحة ما

أزال أعول على صحو شامل منها، وربما لا يعدو الأمر أن يكون تخييلا مفرطا في تلفيق التهيؤات.

عجبا كيف صرت أشك في حقيقة وجودي على ضفة البحيرة أصلا! عجبا كيف صرت أشك في أنني سافرت إلى المغرب! عجبا كيف صرت لا أستوعب أنني خارج حديقتي ببيتي في "رانس"!

هل يعقل أن يكون لسحرية البيت هذا دخل بما يحدث من غرابة تستعصي على الوضوح؟ هل يعقل أنها لعنة الفتيات الثلاث اللواتي أحرقن في هذا البيت القرسطوي؟

التبست علي الأمور كلها، وانشطر ذهني.

أنهيت قراءة مخطوط "طريق أزغار" بذهول خارق وكامل، وتصدع داخلي بالأسئلة المزلزلة: كيف تكون هذه القصة، أو السيناريو أو الرواية متخيلة وهي واقعية في آن؟

هل في الأمر تدبير ساخر من جديد أيها الصياد الأشقر؟

هل من الراجح أن تكون المخطوطة قصة لم تحدث إلا في رأسك حقا؟ ما الذي يجعلني أصبح بملء الاعتقاد الراسخ، أن فتاة البحيرة، هي أمّي.

لم أكن أتوهم تلك الخيمة الغجرية على الهضبة إذن.

أشباح أو أطياف كل من الطفلة ذات الثلاث عشرة سنة وأخيها طفل العشر سنوات والأم الأربعينية والرجل الستيني والكلب السحري المبقّع

بالأبيض والأسود والأصفر، كانوا جميعا أفراد أسرتي الأطلسية.

الطفلة ذات الثلاث عشرة سنة التي كانت تلهبني زرقة عينيها كانت أمي.

تلك كانت أرواحهم الغريبة لم تغادر المكان وتشكلت لي في مشاهد عشت أطوارها السديمية العاتية. من يصدق هذا الجنون؟!؟

كانت الساعة قد شارفت منتصف الليل، تذكرت حكاية أمي (صرت أقول أمي بيقين دامغ حتى وإن كان في الأمر ما يتسع إلى بعض الريبة)، حكاية أمي فتاة البحيرة التي خربشها فتى العشرين في مذكرته الصغيرة - حكايات البحيرة السبع - وحضرني خبر عزيز على هامش حكايته يدل على قبر أمي التي دفنت بجوار قبر جدتي على الهضبة الشمالية. امتشقت بطارية وهرعت صوب الفندق الصغير، وهناك أيقظت صاحب النزل، وأغريته بالمال كي يدلني على المقبرة الصغيرة، طلبت منه أن يريني قبر المغنية الأمازيغية وأشرت له بأصبعي على الصورة في بهو الفندق.

- وماذا تبغي من قبرها؟

سأل بارتياب وفزع.

- سأخبرك هناك، دلني فورا ولك ما تريد من مال.

خرجنا في جنح الليل وسار أمامي صوب هضبة تتربع عليها بضعة قبور دارسة، ووقف على قبر بعينه على حاشية التلة وقال:

– هذا قبر المغنية الودودة.

– هذا قبر أمي يا سيدي.

قلت له وارتميت على القبر منهمرا بالدموع والبكاء وطلبت منه أن يدعني وشأني، فغادر مندهشا ومرعوبا وهو يقول ظانا أن الجنون قد أصابني:

– لاحول ولا قوة إلا بالله.

بكيت وأنا أعانق ترابها الفواح حتى استنزفت قوتي ونمت على قبرها ساعات.

على تخوم الصباح، سمعت صوت فتاة تنادي باسمي والتفتّ وإذا بي أرى صديقتي المغربية التي دعتني إلى البحيرة ومعها ثلاثة شخوص، رجل في الستين مع امرأة في الخمسين وشاب في آخر الأربعين.

– أظنك عرفت من نكون الآن.

قالت متسائلة باستنكار.

ولذت بالصمت. وقالت مشيرة إلى شاب الأربعين:

– هذا خالك الصغير، معلم المدرسة.

وأشارت إلى رجل الستين قائلة:

– هذا خالك الكبير، عازف الكمنجة الشهير.

التفتت إلى امرأة الخمسين وأشارت إليها قائلة:

- هذه صديقة أمك "نوار" أي زوجة خالك الكبير عازف الكمان الشهير.

ورسمت ابتسامة عريضة وقالت وهي تفتح ذراعيها:

- وما عساي أن أكون غير بنت عازف الكمان وصديقة أمك "نوار"، أي بنت خالك.

هرعت باتجاهي ووقفت مصعوقا بالمفاجأة وشرعوا في معانقتي جميعهم وهم ينشجون، ثم سرعان ما طفقوا يضحكون ويرحبون بي:

- أهلا بابن الغالية.

في الفندق الصغير لفعتنا موسيقى الدانوب الأزرق لشتراوس، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يغير فيها الفندقي موسيقى بحيرة البجع لتشايكوفسكي التي ظل يترنم بها النزل العجيب على طول الأيام المنفرطة. شربنا الشاي احتفاء بملمّنا البهيج، وأنا لا أكاد أصدق إن كان ما يجري حقيقة، أم محض حلم.

جاءني الفندقي بصور كل من فتى العشرين والصياد الأشقر وفيرجينيا، وطلب مني أن أشرّفه بتعليقها في معرض البهو.

ما أن أنهيت تعليق صورة فيرجينيا، حتى انتبهت لحضور رجل بشعر أشيب في الستين من عمره يتقدم نحوي وهو يرسم إشارات لم أفهمها

بينما الكل ينظر إليه بامعان ولهفة عاشقة، فترجمت لي صديقتي المغربية، أي بنت خالي عازف الكمان كلامه:

– لا شك كنت تتساءل عن الشبح الذي كان يرصدك على طول هذه السبعة أيام في الفندق. ها هو ذا أمامك، يكشف نفسه أخيرا.

ابتسم الرجل الأبكم وألقى إليّ بمخطوط، تلقفت المخطوط وفحصته، وكدت أجن وأنا أقرأ عنوان المخطوطة الذي يطابق عنوان مؤلفي الموسيقي الخماسي:

– موسم صيد الزنجور، رواية.

فحصتها بسرعة ووجدتني موضوع أحداثها ووقائعها المريبة، ولم أفهم كيف أن حكايات البحيرة السبع للفتى الفندقي ورواية البيانو بيت الزنجور الأثير لفيرجينيا وقصة (سيناريو) طريق أزغار، موجودة كفصول في روايته أيضا.

بدا أن عجائبية الأشياء تجاوزت كل حدّ و لم يبق إلا شعرة تفصلني عن الجنون المحقق.

ضحكت الصديقة المغربية، أي بنت خالي عازف الكمنجة، وقالت:

– هذا هو الكاتب الأبكم صديق خالك عازف الكمنجة.

فدنا مني وعانقني وغمغم بكلام ترجمته لي بنت خالي فورا:

– شكرا لأنك جعلتني أرصدك وأظفر بكتابة رواية في سبعة أيام.

لذت بالصمت شبه ثمل بنهر المفاجآت والتفاصيل العجيبة.

على ضفة البحيرة عصرا جلست والصديقة المغربية أي ابنة الخال، عازف الكمان الشعبي، نشيع المكان بنظراتنا العاشقة وتمتمت لي:

– لقد كان كل شيء في الأول مجرد حدس.

أشعلت سيجارة وقلت لها:

– تعمدتِ ألا تأتي إليّ على طول الأسبوع؟

ضحكتْ وقالت:

– تركت لك أمر اكتشاف المكان بطريقتك الخاصة، وكانت مناسبة لنتيقن من أنك أنت هو الابن الضال أيضا.

رشفت من سيجارتي وقلت:

– ومتى تأكد لك أنني الابن الضال فعلا؟

ابتسمت وباحت:

– تأكد لي الأمر من شيئين دامغين: ترددك على الهضبة بشكل تلقائي، تلك الهضبة التي سكنتها أسرة أمك، والشيء الثاني كانت علاقتك الحميمة بصورة المغنية الأمازيغية أي فتاة البحيرة في معرض الصور.

رشفت من سيجارتي وقلت:

- وهل هذا كاف لتتيقني من أنني ابن عمتك المفقود؟

- سأخبرك بشيء صارخ كان بمثابة رأس الخيط، تتذكر طبعا الرسام الأنيق، الفتى أطلس في قصة أو سيناريو أزغار، لم يكن ليتنازل عن طيف أمك لحظة واحدة، وقد شاء قدر الحكاية أن تتزوج أمك الأطلسية فتاة البحيرة من أبيك الفرنسي وتسكن في مدينة رانس حيث يسكن الرسام أطلس مع زوجته إيميلي. وتلك كانت هدية ربانية للرسام كي يجاور فتاة البحيرة ويترصدها عن قرب حتى وفاتها بمخاض ولادتك. حسنا. لن تصدق أنني التقيت هذا الرسام الأنيق في عيادة أخته الشقراء بينما كنت أصاحب أمي نوار من أجل كشف طبي هناك، ولأنه يعرف أمي نوار تصافحا ثم سرعان ما مالت دفة الحديث صوب الراحلة فتاة البحيرة، وعندها نطق الرسام الأنيق بالخبر المفقود، وتحدث عن اسمك وعنوان مدينتك الفرنسية رانس، وعن عمرك وكل التفاصيل التي تخصك. لقد ظل يرصدك أيضا كوفاء لذكرى فتاة البحيرة ويراقبك بحرص عن قرب. حدث هذا اللقاء مع الرسام بعد شهر من لقائي معك في المهرجان الغنائي المتوسطي. رددت اسمك الذي أطلعني عليه الرسام، وترنمت به في دهشة عارمة وأنا أهتف في داخلي:

- هل يعقل أن تكون أنت؟! هل يكفي تشابه الأسماء بينكما وبعض المواصفاة المتطابقة ليكون دليلا ساطعا وحجة كاملة على أنك ابن فتاة البحيرة، الثمرة الضائعة؟!

طبعا لم يكن كافيا مئة بالمئة، دعوتي لك في المهرجان لزيارة البحيرة

الأطلسية كانت تلقائية، وبعد لقاء الرسام، صارت الدعوة ملحاحة وضرورية. لهذا عاودت مراسلتك ومهاتفتك من أجل أن تفعل.

لاذت بصمت قصير، رسمت ابتسامة غضارية وقالت بنبرة كما لو تصلي:

- ذهابك غير المتوقع إلى المقبرة ليلا كي تعانق رفات أمك كان اللحظة المذهلة الخارقة والخالدة في آن - قالتها وقد انفطر دمع من عينيها -، و لم أصدق ذلك عندما أخبرنا صاحب النزل بالأمر.

- هذا يعني أن صاحب النزل كان متواطئا معكم؟

- قطعا لا، لم يكن صاحب النزل ولا أي شخص من الذين صادفتهم في البحيرة متواطئين. الأمور التي حدثت هنا وقعت مصادفة، مثلما يحدث دائما، فالمكان عبارة عن مسرح عجائبي.

تحول المكان لحظتها إلى مسرح عجائبي بالفعل، عندما طفت الأواني فجأة على سطح مياه البحيرة، بكل الاتجاهات، طناجر، وصحون، ومقارج وأباريق...

ابتسمت ابنة خالي وقالت:

- هذه أواني الفتيات الثلاث بحسب الحكاية الأسطورية.

وقفت كطفل مسحور وضحكت وقلت:

- هذا ما كان ينقص المسرح العجائبي كي يكتمل.

وقفت هي الأخرى وردت قائلة:

- ربما ليس بعد، فهناك المزيد المزيد.

التحقنا بعدها بالسيارة في الأعلى، كي نغادر صوب المدينة، وطفق الخال الصغير أي المعلم يشرح ظاهرة طفو الأواني على صفحة البحيرة، ويردها إلى تفسير علمي يقول بأن البحيرة لها علاقة بنهر ما في الجوار، فعندما يفيض النهر يحدث أن يجرف الغجر الساكنين على ضفتيه، ويسحب معهم متاعهم وأوانيهم التي تبزغ في آخر المطاف بالبحيرة. كنت أصعد إلى السيارة بجانبه عندما صاح الفندقي باسمي وتقدم لكي يشيعني وقال:

- في الزيارة القادمة ستنزل في الفندق وسأخصص لك غرفة مجانية.

ابتسمت لعرضه النبيل وقلت له:

- في الزيارة القادمة، سأغامر بالذهاب إلى ما وراء الجبل المسحور كي أكتشف الغابة السوداء.

ضحك الفندقي وتمتم:

- ما هي إلا غابة قرود متوحشة يا صديقي.

لحظتها تناهى إلى مسامعنا نعيق مستفحل وهادر، التفتنا جميعا وشاهدنا حجافل غربان تتطاير من شق الصخرة العظيمة في الجبل العاتي

وتتناسل وتتفاقم إلى أن صار كل شيء فاحما أسود، وحجب ليلها البحيرة والفندق والجبل والغابة الداكنة.

20

في المدينة الصغيرة الأقرب إلى بحيرة "أكلمام أزكزا"، لذت بمقعد إسمنتي في الحديقة العمومية بمحاذاة هاتف الشارع. تأملت السماء المرقشة كبطن الزنجور بذهن شبه مسحور. كنت أتلمس الساكسفون في حقيبته بأصابع مرتعشة وأنا منشطر التفكير بشيئين لاسعين: أن ألقي بالساكسفون إلى قعر بحيرة أكلمام أزكزا، أم أعود به إلى موضعه بتلك البحيرة الصغيرة الجاثمة في ضاحية مدينتي الفرنسية "رانس".

غير أن خيارا ثالثا بزغ بقوة وهاجسني بشدة. كان فكرة لاذعة حول تعقب حكاية الساكسفون بالسفر إلى بولونيا والبحث عن صاحبه أو التنقيب بالأحرى عن صانعه المدهش.

ابتسمت لغواية الفكرة المجنونة، وانتصبت واقفا ثم خطوت إلى هاتف الشارع. هاتفت رقم جارتي الفرنسية، صاحبة الكلب الأبيض، لكي أطمئن على حال البيت، فمنذ أسبوع لم أفعل ذلك بسبب المنطقة المعزولة عن العالم، فلا الهاتف ينفع هناك على ضفة البحيرة ولا أي وسيلة أخرى للتواصل بما فيها الإنترنت.

جاءني صوت الرجل العجوز المقعد وهو يقول:

– ماتت زوجتي من ثلاثة أيام.

أحزنني الخبر وقلت له:

– آسف، تعازيّ الحارة.

– لا تتأسف فهي تستحق، اللعينة! كانت ستقتلني وهي تطعنني بسكين المطبخ.

قال بنبرة جافة.

– كيف؟

سألته وأنا أتذكر ما شاهدته في رؤيا الليلة البيضاء مع فيرجينيا داخل القارب وسط البحيرة. رؤيا تلك الحادثة الدموية المفجعة، وما لمحته أيضا في عيني الكلب المبقع بالأبيض والأسود والأصفر – كلب الأسرة الغجرية المتخيل طبعا–. وقال لي:

– كلبها الأبيض هو الذي أنقذني، وهو الذي قتلها.

أصابني الخرس وكدت ألقي بالهاتف أمام برق الصدمة والمفاجأة، ثم تناهى إليّ صوته وهو يضحك قائلا بحماس:

– صرت عازف بيانو بقدرة قادر، وقد أنجزت لك مؤلّفا موسيقيا بخمسة أجزاء أو مقاطع. كلّي لهفة لكي تسمعها قريبا.

– ماذا؟

قلت له في غاية الذهول، وتمتم:

– أجل، أبدعتها على بيانو والدك في بيتك المريب، وأعدّها لك كمفاجأة، لا بأس من أن أخبرك بعناوين المقاطع الخمسة:

الجزء الأول تحت عنوان:

دورات الغراب الثلاث.

الثاني:

ساحل اللؤلؤة السوداء.

الثالث:

أوديسا بجع الشمال.

الرابع:

حكايات البحيرة السبع.

الخامس:

رقصة اللوثيان.

وأما المؤلَّف الموسيقي ككل، فقد وضعت له إسم: موسم صيْد الزّنجور.

إسماعيل غزالي
مريرت، الأطلس المتوسط
2012-2011

إسماعيل غزالي

روائي و قاص مغربي، من مواليد 1977.

صدر له مؤخّرا:

- عسل اللقالق، قصص، عن جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الخرطوم، 2011.
- لعبة مفترق الطرق، قصص، دار فضاءات، عمان الأردن، 2011.
- خرير الأحلام، صرير الكوابيس، روايتان قصيرتان، دار التنوخي، الرباط، 2012.
- بستان الغزال المرقط، كتاب قصصي يضم أربع مجموعات قصصية: عسل اللقالق، لعبة مفترق الطرق، منامات شجرة الفايكنغ، الحديقة اليابانية. دار أبي رقراق، الرباط، 2012.

لا ريب في أنها الحكاية الموشومة. وجدتني أهتف وكلي ينشج صائحا بزخم: تلك كانت حكاية "فتاة البحيرة"، ووجودي هنا هو أكبر من أن يكون مصادفة. دون احتكام لمزيد من الشك طفقت أهذي مسحورا:

هل علي أن أشكر اليوم الأول الذي مالت رغبتي فيه نحو هواية صيد الزنجور، ألم تكن هذه الهواية العاتية دليلا سحريا لي كي آتي إلى هذه الجغرافيا المنسية، حيث كيمياء المغنية الأمازيغية الساحرة، مذ لمحت وجهها ضبابيا في صورة الفندق وأنا منجذب إلى لغز عاصف يشدني إلى سرابيتها؟

لم تكن هناك حتى مهلة لتصديق أثر الزوبعة.

فالزنجور كان مستأثرا بكل الغواية، وانتصب خلف مسرح البحيرة يحبك خيوط الملهاة وهو يعدّ لقدرية الحكايات المجنونة إيقاعها المأساوي وزعيق صرختها المدوية.

وبرغم ذلك، فاليقين الراسخ تأخّر إلى حينه، وما مفكرة فتى العشرين ورواية فيرجينيا المنسوخة بتخاطر ذهني وراوية صديقتي المنتحرة وقصة طريق أزغار للصياد الأشقر، وكل عزفي السّاكسفوني الجبار، إلا محض هذيان أحاول عدم تصديقه بالكامل.

الغلاف: عمرو عبد العزيز

9 789774 902116

دار العين للنشر
Elain publishing House